عبد الله شريط

من واقع الثقافة الجزائرية



الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر

عبد الله شريط

من واقع الثقافة الجزائرية

الطبعة الثانية



الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

رم أننشر 960 /81

تقديم

هذه مجموعة بحوث ومقالات ، كتب أكثرها فيما بين سنة ١٩٦٨ وسنة ١٩٧٠ ، والقليل منها فيما بعد . وهي تعالج قضايا وتطرح مشكلات « من واقع الثقافة الجزائرية » كما عشناها في فترة ما بعد الاستقلال إلى اليوم .

ولئن تأخر طبع هذه البحوث في كتاب فذلك لا يزيد هذه المشكلات والقضايا في حاضرنا اليوم الا أهمية ، ولا يزيد ما ارتأيناه لها من علاج الا وضوحاً ، وخاصة على ضوء تطورنا في السبعينات .

ولئن جاز لي أن أحكم على هذه البحوث بعد بضع سنوات من كتابتها ، فهو أنها تركزت على الجوانب النفسية والخلقية والاجتماعية من واقع هذه الثقافة .

ولئن رأى فيها القارئ كثيراً من الصراحة في نقدنا الذاتي عند طرح المشكلات ، وفي المطامح البعيدة عند اقتراح الحلول ـ فان دافعنا الحقيقي لذلك هو حرصنا الشديد على كسب معركة الوقت الذي يلعب دوراً كبيراً ، ان سلباً وان ايجاباً ، في حياة المجتمعات المعاصرة ، بما فيها مشكلات الثقافة في العالم المتخلف . اما حكم القيمة فأمر أتركه للنقاد وللأجيال الصاعدة التي لا نفكر فيها ، ونحن نطرح المشكلة ، ونبحث لها عن حل ـ

مقدمة

في هذه الفصول

* نعالج قضايا بلاد ولا نتبجح بعضلات قلم .

* نبحث عن حلول لمشاكل أمة . ولا نبحث عن أعذار لمسؤوليتنا .

* هذه الأمة لا نفرق فيها بين جزائريين وعمانيين . ولا بين فلسطينيين وتونسيين . لأننا ننظر اليها من خلال الوزن الدولي الراهن فنجدها حتى اذا اجتمعت خفيفة لا تكاد تذكر . أما اذا افترقت فهي هباء لا يكاد يرى .

* لا نقول لأحد : احذر من الرد علينا . بل نود أن يكون حديثه مكملاً لنقصنا . فمن المستحيل أن يرى واحد منا كل الحقيقة ولا يرى منها الآخر شيئاً

* حديثنا صريح بقدر الامكان عن أنفسنا . فلا مبرر لكي لا نكون كذلك مع غيرنا . والحديث الصريح يوجه للرجال الواثقين من أنفسهم لذلك لا نخاف المشاكل ولا نخفيها .

* نعتقد أن تشخيص المرض أهم من البحث عن الدواء بالنسبة الينا . لأن خطر أمراضنا في مرحلتنا الراهنة هو أننا نعيشها ولكننا لا نشعر بها .

* نحاول بقدر الامكان أن لا نتحدث عن قضية لا نعرفها . لأننا حتى في قول ما نعرفه نحاول أن لا يكون جارحاً ولو كان مؤلماً .

المعركة بين الأعراب والتعريب

في الأحاديث العادية التي تجري هنا وهناك بين المواطنين ، وفي المقالات الصحفية والمحاضرات العمومية أصبحت كلمة التعريب تتردد على الألسن أكثر من أي وقت مضى .

والسؤال الذي لا بد أن ننتهي إليه يوماً هو : هل انتهينا نحن المثقفين بالعربية من الحديث عن هذه القضية من حيث المبدأ لندخل في نقاش وسائل التطبيق ؟ أم أن مرحلة الحديث عن المبدأ ما تزال لم تأخذ حقها بعد ، وأنها تتطلب « جولات » أخرى تهيئ فيها الجو النفسي لتقبل الفكرة وتزايد الاستعداد لها و « تنضيجها » في الأذهان قبل أن ندخل مناقشة التطبيق ووسائل التحقيق ؟

والسؤال الآخر ـ وهو في نظري أهم من الأول ـ : هو أن مرحلة الحديث عن المبدأ التي ما زلنا فيها لحد الآن هي مرحلة قائمة على خطة متعمدة مدروسة ، وكنا ننوي منذ البداية أننا سننتقل بعدها إلى مرحلة التطبيق ، أم أن مرحلة المبدأ قمنا بها بصورة عفوية فقط دون أن نتصور أنها ستسلمنا في يوم من الأيام إلى مناقشة مرحلة التطبيق ؟

هذا السؤال هام جداً لأنه تترتب عنه نتيجة خطيرة هي الآتية : إذا كان

حديثنا عن مرحلة المبدأ قائماً على خطة نعرف أنها ستسلمنا إلى خطة التطبيق . فإن معنى ذلك أننا نكون أثناء المرحلة الأولى نستعد للمرخلة التالية ، مرحلة التطبيق ، وأننا ـ أيضاً ـ نعرف ماذا سنضع في هذه الخطة التطبيقية ، ونعرف ـ بالخصوص ـ أنها ستكون هي المرحلة الصعبة لأن الحديث عن المبدأ سهل يستطيعه كل واحد منا . ويكفي أن يعتمد فيه على العاطفة القومية والدينية والوطنية ويستنجد فيه بالشهداء وبالثورة وبالإسلام وبالنخوة العربية والعزة والكرامة إلى آخره .. أما إذا وصلنا مرحلة الحديث عن التطبيق ووسائله وطرقه ، فإن كل شيء يتغير ، هنا ستتكلم بلغة العقل وبالتجارب والاحصائيات والمناهج التربوية والمقارنات مع الماضي أو مع غيرنا من الأمم ، وسنضطر إلى معرفة وسائلنا البشرية والمالية ، ومدى ما نستطيع أن نستفيده من المتعاونين العرب . ومدى تقبل الرأي العام عندنا لهذا التطبيق في المدن وفي القرى والبوادي وعند المثقفين والأميين ، وعند الأطفال في المدارس والعمال والفلاحين والبطالين ، وهل نحن المعربين مستعدون للاضطلاع بهذا العبء تطبيقياً كما كنا مستعدين له حديثاً وتحمساً للمبدأ ..

إن الفرق كبير جداً بين الموقفين : إذا كنا نتحدث عن التعريب من حيث المبدأ وفي نيتنا أننا عند التطبيق سنكون أكثر قدرة وأشد حماساً ، فإن ذلك يعني أننا سننجح حتماً في مرحلة التطبيق نجاحاً يفوق نجاحنا في الحديث عن المبدأ وهو الحديث الذي هيأنا به الجو النفسي والوطني وأخرجنا به المترددين والخائفين من ترددهم وخوفهم ، وأثرنا به الحماس لدى من لم يكونوا يحملون شيئاً من هذا الحماس .

أما إذا كنا نتحدث عن التعريب من حيث المبدأ ، ونحن نشعر شعوراً غامضاً أو واضحاً بأن مجرد هذا الحديث عن المبدأ سيجعل التعريب ، عندما يدخل مرحلة التطبيق سيطبق من تلقاء نفسه ، أو سيطبقه أناس آخرون غيرنا ، أو سنطلب له متعاونين من إخواننا في المشرق وخبراء من منظمة « اليونيسكو » أو المستعربين الروس أو الهولانديين والفرنسيين ، وأن دورنا نحن قد انتهى بانتهاء المرحلة الأولى المتعلقة بالمبدأ ، وأن المسألة بعد هذه المرحلة تصبح من مهام الدولة : نحن هيأنا لها

الجو فقط أما هي فعليها بعد ذلك أن تفعل الباقي ، وأن مهمتنا لا تتناول التفكير في المناهج التطبيقية نفسها ، وإنما نحن نريد أن يتم التعريب وكفى. أما كيف يتم فذلك لا يعنينا ، فليتم بصورة سحرية أو بمعجزة فذلك لا يهمنا في قليل ولا كثير . نحن نعرف فقط كيف نصيغ المسألة في صيغة مطالب نقابية وكفى . نحن مطالبون فقط بأن نهيج العواطف « التعريبية » في الشعب ، ونهاجم المتآمرين على التعريب من أولئك المتفرنسين الذين ما زالوا يحتلون كل المراكز الإدارية بين أيديهم ويعرقلون كل التعليمات التي تأتيهم من فوق خاصة بالتعريب - إذا كان هذا هو موقفنا ، فإن الوقت قد حان لندرك خطأ هذا الموقف ، إن المسألة ليست على هذا القدر من السهولة . والمعركة التي هيأنا لها الجو بالمقالات الصحفية وبالمحاضرات وبالرسائل المفتوحة ، وبالأحاديث والمناقشات ، هذه المعركة يبدو لي أننا خرجنا فيها من مرحلة ونحن على أبواب مرحلة أخرى ، طوينا صفحة المبدأ وفتحنا صفحة النقاش في مرحلة التطبيق الفعلي . والمرحلة التي نحن على أبوابها هي التي يتوقف عليها مصير المعركة كلها ، معركة التعريب برمتها ، لأن مرحلة المبدأ هي مقدمة المعركة وليست هي المعركة . والمعركة التي هي على الأبواب هي الامتحان الحقيقي الذي سيكشف عن مدى جديتنا في العمل والحماس ، ومدى نضجنا في التصور لطبيعة المعركة وأهميتها .

* * *

أعترف هنا بأن جنود العربية أو التعريب في هذه المرحلة المبدئية كانوا على تفاوت كبير من الوعي تجاه تصورهم لأهمية المعركة ، ومن التمييز الناضج بين المعركة وبين مقدمتها ، وأن الذين لم يكتبوا حرفاً واحداً أو كتبوا قليلاً وتحدثوا أقل لم يكونوا بالضرورة أقل حماساً للعربية والتعريب ، وإن كانوا أكثر شعوراً بالمسؤولية وفداحتها من غيرهم . وأنا أعرف شخصياً عدداً لا يستهان به من هؤلاء الجنود المجهولين الذين يهيئون للمعركة وسائلها التطبيقية ، وإن لم يشاركوا في التحمس لها وتهيئة الجو ، لأنهم كانوا يشعرون أن المعركة ليست في التحميس ولا في تقرير المبدأ في الأذهان بقدر ما هي في التفكير والعمل لإيجاد أسلحة المعركة وتهيئة

أسباب النجاح لها . ومع ذلك فان هذا الصنف من جنود التعريب المجهولين لم يسلموا من مأخذ واحد على الأقل ، وهو أن عدم مشاركتهم في التوعية وفي خوض المرحلة المبدئية حرم إخوانهم الآخرين الذين حصروا جهدهم في هذه المرحلة ـ حرموهم من تنبيههم إلى الاقتصاد في حماسهم لأنهم سيكونون في حاجة إليه أشد حين تدق ساعة المعركة ذاتها ، وقد دقت الآن ساعة هذه المعركة وبودنا أن يجد الجميع أنفسهم في ساحة واحدة متكاتفين ، حتى تكون المرحلة المبدئية لها ما يبررها ، ولا تكون معركة « دونكيشوتية » يتصارع فيها « الأبطال » مع الضباب .

* * *

والآن ما هي طبيعة هذه المعركة ، وطبيعة السلاح الواجب لها ؟

يعتقد كثير من الإخوان أن الإجابة على هذا السؤال ستأتي به جهة من الجهات الرسمية . وهنا تكمن نفسية الاعتماد على الغير أو على القوانين التي ستصدر في يوم من الأيام لتنفذ نفسها بنفسها لأنها تحمل في ذاتها قوة تنفيذية آلية ، وأن أي جهة من الجهات الرسمية عندما تتمخض عن قرارات وتصادق عليها الحكومة وترسل بشأنها وزارة التربية توجيهات للمفتشين ، وهؤلاء يبلغونها للمعلمين ، سيكون التعريب قد دخل التطبيق من الباب الواسع ، وتكون المعركة قد كسبت نهائياً .

وهذا هو الخطأ الخطير الذي يجب أن ننبه إليه .

إن الحكومة مهما كانت الوسائل المادية التي ستهيئها لتنفيذ هذه القرارات ، ووزارة التربية والمفتشين مهما كانت دقة التوجيهات التي يرسلون بشأنها إلى المعلمين ، إن كل ذلك مهما بلغ من كمال فإنه سيبقى بدون أثر عملي إذا لم يكن المعلم ـ معلم العربية ـ لا يستطيع أو يملك من الوسائل التثقيفية ومن التكوين الثقافي ذاته ، ما يمكنه من استعمال « آلية » هذه التعليمات وتنفيذها بطريقة ناجحة في مستوى القسم الذي يوجد فيه التلاميذ أي في ساحة المعركة الحقيقية .

أريد أن أقول بدون تحرج لاخواني المعلمين وأساتذة العربية ، أنهم يجب أن يثوروا على أنفسهم ، أعني أن يراجعوا كل الأساليب التي تعلموا بها هم العربية وأن لا يطبقوها في تعليم العربية لأبناء اليوم . وهذه الثورة لا تكون إلا برفع المستوى

الثقافي العام لا في العربية والتخلص من أساليب عصور الإنحطاط فقط ، بل وأيضاً برفع هذا المستوى الثقافي في ميادين علم النفس والتربية الحديثة وفي التاريخ العام وتاريخ الأدب وتربية الذوق الجمالي ، وأخيراً بتعلم لغة أجنبية يطلون منها على تجارب وعقليات الأمم الأخرى في عصرنا الحديث ، وعلى الثورات المتلاحقة التي تجري في العالم كل عام في هذا الميدان التربوي حتى أصبحت البشرية اليوم في هذا المجال التربوي تنقسم إلى جزئين : جزء يثور فيه كل جيل على الجيل الذي سبقه ولكنها ثورة إيجابية لا تحطم ما بناه الجيل السابق بل تتجاوزه إلى ما هو أعلى وأبعد وأعمق ، وقسم يعيش على فتات مئات الأجيال التي عاشت منذ آلاف السنين لم تهدم منه شيئاً ولم تجدد منه جداراً ولم تزد في بنايته غرفة أو طابقاً أو تفتح فيه حتى نافذة .

ولست بحاجة لأن أقول إننا مثقفي العربية ـ لا في الجزائر وحدها ـ بل في أنحاء العالم العربي ننتمي إلى هذا القسم الأخير ، وأن كل ما دخل على حياتنا المادية من آلات وحديد لم يغير شيئاً من طبيعتنا المحافظة العاجزة لأنه دخل إلينا من الخارج ولم نصنعه بأنفسنا ، أي لم نبلغ درجة الخلق في مستوانا الحضاري ، وإنما نحن نستعير مواد الحضارة من الخارج فنستعملها في التسيير الشكلي فقط . حتى حروف اللغة ـ لغتنا ـ يصنعها الخارج ويبعث بها إلينا جاهزة فنستعملها قانعين بهذا القدر من « التطور » . أما ما يرجع إلينا من خلق للتطور الحقيقي في هذا الميدان كما في أي ميدان آخر فهو لم يبدأ بعد : لم نحاول حتى تطوير شكل هذه الحروف المطبعية عما كانت عليه منذ عشرات الأجيال وآلاف السنين ، فضلاً عن محاولة تطوير قواعد هذه اللغة عما كانت عليه أو ادخال فلسفة اشتقاقية جديدة إلى هيكلها حتى يصبح أكثر ثراء وطواعية .

ويخيل إلي أن ما يوجه إلى العربية اليوم من عجز عن مسايرة التطور العلمي والفني الحديث ، هو في الواقع اتهام موجه إلينا نحن أصحاب هذه اللغة ، وأن دفاعنا عن اللغة العربية بأنها لغة العلم والتطور ، هو أيضاً دفاع عن أنفسنا نخفي وراءه عجزنا عن تطوير لغتنا ، حتى أن المناقشة الجارية بين المهاجمين والمدافعين

عن اللغة العربية ، هي مناقشة مفتعلة لا تستفيد منها اللغة العربية شيئاً ، لأن موضوع الإتهام والدفاع الحقيقي هو أصحاب هذه اللغة وليست اللغة في ذاتها . وستبقى هذه المناقشة عقيمة لا تفيد العربية في شيء إلى أن يأتي اليوم الذي يوجه فيه الإتهام صراحة إلى حاملي الثقافة العربية بأنهم عاجزون عن تطوير لغتهم ، وبأنهم هم المسؤولون عن هذا العجز الذي تتخبط فيه العربية ، عندئذ سيحس المثقف العربي أنه هو المسؤول ، وليست اللغة العربية .

ان المثقف العربي لم يتوصل إلى اليوم حتى إلى أضعف الإيمان أو أحط درجات الثورة على نفسه ، وهي أن يبدأ على الأقل بالتخلص من الحشو الذي يثقل عنق اللغة العربية بقواعد تجريدية منطقية في الاعراب أصبحت تشكل اليوم أضخم عقبة في تعليم لغتنا لأبنائنا وتستنفد منهم أثمن الأوقات وأعزها في عصر هم أحوج ما يكونون فيه إلى صرف مواهبهم وأوقاتهم في تعلم كنوز المعرفة التي تنهبها الشعوب الحية نهباً ، والتي بلغت من الاتساع والتشعب والغزارة ما لم يعرفه تاريخ البشرية كله ، وأصبحت سرعة التعلم اليوم تجعل الطفل الذي لا يتجاوز عشر سنوات في الشعوب الحية يعرفه ما لا يعرفه « العالم » الكبير في الشعوب المنحطة ، وفي عصر أصبح فيه الوقت الذي لا يستثمر في التعلم لا يعتبر وقتاً جامداً فحسب بل وقتاً يرجعك إلى الوراء أكثر فتزداد توغلاً في التأخر حين تحسب أنك واقف فقط !

* * *

خذ أي كراس من كراريس أبنائنا في اللغة فستجد تسع صفحات من عشرة هي عبارة عن إعراب للضمائر البارزة والمضمرة أو المستترة في محل رفع ومحل جزم ومحل كسر ، ويظل التلميذ يبحث عن هذه المستترات كلها أين هي ، ولماذا اختفت ، وما هي وظيفتها ؟ وإذا كانت ترغب في أن تبقى مستترة ولا تخرج إلى الوجود أو تعلن عن وجودها فلماذا نبحث عنها ونعاملها كما لو كانت موجودة وحية ، ولماذا نهتم بهذه الأشباح ؟ وما هي الفائدة العملية التي تعود علينا من معرفة هذه المستترات ؟ وما الذي يفيدني أن أعرف بأن القاضي إذا جاء فهو مرفوع ولكن

الرفع فيه مضمر في محل السكون ولا يظهر لثقله ، ولذلك استبدلنا رفع السيد القاضي بسكون ، ولكن هذا السكون هو سكون في الظاهر فقط ، أما الباطن فهو رفع ؟ وقل مثل ذلك في آلاف الأسماء والأفعال ، وأضرب حسابك كم يذهب من الوقت في هذه الفلسفة التجريدية على التلميذ الصغير ، وكم تورث له من انحراف في التفكير ، وتطبع عقله بطابع التأويلات ، والتفلسف بالظاهر والباطن في كل شيء وما يتعلمه منها من بيزنطينيات لا تقف عند قواعد اللغة وإنما هي تتسرب ـ لا شعورياً ـ إلى كل تفكيره في الحياة ، فتتكون عنده طريقة التحليل والتركيب التجريدي وينفصل عن الإهتمام بالواقع ، ويصبح حتى إذا رأى الواقع بعينيه لا يحلله كما يراه بل يحلله بعقلية الظاهر والمستتر ، وإذا رأى قاضياً حاسر الرأس ، يقول إنه لا بد أن تكون له عمامة كبيرة ولكنها مستترة لا تظهر لثقلها على رأسه ، ولعل هذا الاستتار والظهور يتسرب إلى أخلاقه وسلوكه وتصرفاته طفلاً ورجلاً فيظهر منها غير ما يستر .

وإذا ذهبنا نبحث عن هذه المتاعب العابثة في غير الإعراب فإننا سنجد منها « كنوزاً » أخرى ميتة كالجثث المبعثرة في طريق النمو العقلي والتربوي الصحيح للطفل . ويكفي أن تأخذ على ذلك هذا التقسيم العددي بين المفرد والمثنى والجمع ، ثم الجمع إلى جمع مكسور وجمع صحيح ، ثم التقسيم الجنسي لكل واحد من هذا العدد : مفرد مذكر ومفرد مؤنث ، ومثنى مذكر ومثنى مؤنث ، وجمع مذكر وجمع مؤنث وكل هذه التقسيمات الجنسية والعددية توزع على متكلم ومخاطب وغائب . وكل هذا نبدأ في تعليمه للطفل منذ السنة الثانية أو الثالثة الإبتدائية أي في عمر عقلي لا يفقه فيه شيئاً من التجريد ولا يهضم إلا الصور الحسية المحببة إلى نفسه والتي بني عليها التعليم عند الأقوام المتمدنة .

* * *

ولست أقصد هنا أن نقضي على هذه القواعد والأصول والمبادئ في تعليم اللغة ، ولكن أقصد فقط إلى التساؤل عما إذا كنا نشعر بأن هذا كثير على الطفل ، بل

وحتى على الراشد في عصرنا الحديث ، وعما إذا كنا نشعر بأن الوقت اليوم أصبح لا يرحم ، وأنه لا مفر لنا من أن نختار بين أن نعبد الماضي المنحط ونسبغ عليه قداسة مزيفة تمنعنا من تغييره ، وبين أن نعيش للستقبل ، وخاصة بالنسبة لأبنائنا ، فنوفر لهم الوقت الكافي للتسلح بالعلم الصحيح وأن اللغة بالنسبة لهذا العلم هي ـ كما يقول ابن خلدون ـ ليست مقصودة لذاتها ، وإنما هي أداة لغيرها من العلوم .

وإذا كنا قد بلغنا من الرشد والعقل والنضج إلى هذا التساؤل فكيف ينبغي أن نجيب عليه ؟ هل نستسلم لعجزنا العملي وننفق طاقتنا في الدفاع عن العربية بالحجج المنطقية والتاريخية التي لا تقدم العربية عملياً . لقد قيل إن وضع المشكلة وضعاً صحيحاً هو نفسه نصف حل لها . ونحن اليوم بين أمرين : إما أننا لا نعتبر المشكلة موجودة أصلاً ، وإما أننا نعتبر أن المشكلة مشكلة العربية نفسها وليست مشكلة أصحابها ، ومن ثم فيجب على العربية أن تحل مشكلتها بنفسها . وواضح أن كلا الموقفين غير صحيح . ومن هنا كان عجزنا عن إيجاد الحل .

والسؤال الذي يعترضنا هنا هو : هل هذه المشكلة خاصة بنا في الجزائر ، أم هي عامة بالنسبة لكل أبناء العربية في الوطن العربي . والجواب في رأيي هو نعم ولا . هي مشكلة عامة ، وخاصة في آن واحد . وكنا نود لو أن أبناء العربية ممن سبقونا إلى مواجهة هذه المشكلة بعشرات السنين ، قدواجهوها بشجاعة وحزم وهدوء أعصاب . ولكن الأمر مع الأسف لم يحدث . لقد ألفت الكتب ووضعت الدراسات والمقارنات وهي على جانب محترم من حيث المستوى العلمي كدراسات ، كما تكونت المجامع العلمية واللغوية في كل بلد عربي تقريباً ، وتشكلت مؤسسات تابعة للجامعة العربية في الموضوع ، ولكن شيئاً لم يظهر في الميدان العملي من هذه الجهود النظرية . والنتيجة التي نخرج بها من هذا الوضع ، هو أن المسألة إذن ليست مسألة علمية أو نظرية ، ولا مسألة مجامع أو مؤسسات دراسية ، وإنما هي مسألة أخلاقية عملية في الدرجة الأولى ، هي مسألة حزم وشجاعة وروح ثورية لا تقف أمام الصعوبات .

— ٢ —

وهنا نأتي إلى الجواب الخاص بالجزائر : هل ما تزال الجزائر محتفظة بروحها

الثورية التي تكتسح جبال الصعوبات ، أم بدأت تنزلق في منحدر السهولة والاستسلام أمام الشكليات ؟

إن ما نعرفه عن طبيعة الشعب الجزائري أنه كان دائماً في تاريخه يخوض معارك لا يملك سلاحها ، وكان دائماً يعوض بالسلاح المادي المفقود سلاحاً أخلاقياً من المثابرة والعناد والثقة بنفسه فيتجاوز الصعاب وينتصر . وهو اليوم يخوض معركة من أشد هذه المعارك صعوبة وتعقيداً ، لأنها ليست معركة تهديمية سهلة بل هي انشائية أكثر ، هي معركة لا يهدم فيها عدواً بل يهدم فيها جزءاً من نفسه ، ولا يثور فيها على المستعمر بل يثور على أجداده في سبيل أبنائه ، ويهدم فيها أمسه المظلم ليبعث منه غده المشرق . أو بعبارة أصح معركة يتخطى بها قرون الإنحطاط ليقبض بيده على أصالته الأولى في ميـدان اللغة كمـا فعـل باديس في الميـدان الديني . إن كل ما نتخبط فيه اليوم من أوحال القواعد اللغوية هي من صنع قرون الإنحطاط ، من صنع عقلية التعقيد المنطقي التجريدي في اللغة كما كان في الدين سواء بسواء .

هذه القواعد المنطقية التجريدية الشكلية هي التي يستطيع أبناء العربية في الجزائر الثورية أن يثوروا عليها عملياً ، يثورون على عقلية الإعراب المستتر والظاهر ، وعلى عبادة المثنى ونون النسوة التي نتقيد بها اليوم أكثر مما تتقيد بها تعابير القرآن .

وأبناء العربية الجزائريون إذا كانوا ثوريين فإنهم يستطيعون هذه الثورة دون غيرهم لسببين : الأول أننا ندخل التعريب على النطاق الشعبي لأول مرة منذ هجرة الهلاليين ، أي لا توجد عندنا تقاليد « ثقافية » راسخة تقيدنا أو تثقل أرجلنا ولا مجامع لغوية « محترمة » ولا ثقافة عربية مهيمنة ، وإنما نحن أميون على الفطرة نستطيع أن نتقبل كل جديد ونبنيه لا على الأنقاض بل على أرض جديدة كالتي اكتشفها « نيتشه » يوماً ليبني عليها فلسفة الأخلاق . إن العربية الوحيدة التي نمتلكها هي عربية الشعب في بوادينا وطبقاتنا الشعبية السليمة في هذه الطبقات نجد المفردات العربية الحقيقية التي هجرها المثقفون ذوو الاقطاعية الفكرية منذ عصور الإنحطاط وأصبحوا يترفعون عنها ، وما زلنا نحن نتابعهم في هذا الترفع أو بالأحرى التدلي ،

وفي هذه الإقطاعية اللغوية ، وكل ما تمتاز به لغتنا الفصحى اليوم عن لغة تلك الطبقات الشعبية هو القواعد الميتة التي نحفظها ولا نطبقها في الاستعمال ، في حين أنهم – هم – يتكلمون لغة عربية سليمة ولا يعرفون لها قواعد . تماماً كما كان الأمر عند أجدادهم في الجزيرة العربية أو عند الهلاليين الذين عربوا هذه الطبقات عندنا بمزج اجتماعي لم يتوصل إليه أصحاب القواعد في حلقات دروسهم ، والذين توجه الشيخ باديس يوماً إلى بقاياهم في جامع الزيتونة قائلاً : « لقد اتبعتم القواعد حتى صرتم كالقواعد » (يقصد القواعد من النساء) !

إن هذه الأرض اللغوية البكر هي إحدى الأسباب التي تهيئ لأبناء العربية في الجزائر اليوم أن يقيموا للغتهم قواعد جديدة ، يكون طابعها البساطة والوضوح والسرعة والفعالية .

أما السبب الثاني الذي يتيح لنا نحن في الجزائر القيام بهذه الثورة فهو الروح الثورية التي أعتقد أننا ما زلنا نحتفظ بشعلتها منذ أجيال طويلة في الميدان السياسي والديني . إن باديس يعتبر بحق باعث النهضة الثورية في الإصلاح الديني بالجزائر . والحركات الوطنية كانت باعثة الثورة السياسية فيها . ولم يكن لأي منهما إلا قليل من السلاح الذي تتطلبه الثورة التي قام بها إلا سلاح العقيدة الأخلاقية من إيمان بصحة الموقف وثبات على المبدأ وتضحية من أجل مستقبل الشعب . وقد كتب التاريخ لمعركتهما الانتصار رغم قلة الوسائل . ولأن سلاحهما ـ مثل سلاح الأمير عبد القادر من قبلهما ـ كان هو الرجوع إلى ذخيرة الشعب التي لا تنفد .

وفي هذه المعركة الجديدة ـ ويكفي أن نعتبرها معركة ـ لا يتوقف عليها تعريب شعبنا لغوياً وثقافياً وعلمياً فقط بل وأيضاً وبالخصوص ، تتوقف عليها نهضته الحضارية التي تمكنه من أن يقف على رجليه أمام الحضارة الأوروبية التي تغزو أطفاله وشبابه بأسلحة فكرية طاغية وأسلحة عقائدية فتاكة .

إنه لا يجوز لنا أن نخادع أنفسنا ، إننا لا نستطيع أن ندافع طويلاً على العربية بالحجة المنطقية أو العاطفية في حين تتألب عليها لغات العالم المتحضر بالحجة العملية

في أرضها ذاتها . إنه من سوء حظنا أو من حسنه ، أننا نسكن قلب العالم ، ونقف في الحدود التي تفصل بين المتحضرين والمتأخرين ، وتتصارع في ديارنا اللغات والأفكار صراعاً لا رحمة فيه . وأول ميدان لهذا الصراع هو أطفالنا وشبابنا . فأي قوة عاطفية أو منطقية يمكن أن تقنع أطفالنا وشبابنا بأن اللغة العربية أسهل تعلماً من اللغة الفرنسية أو الانكليزية وأغنى منها اشتقاقاً وأطوع منها استجابة لمتطلبات المعرفة والعلم وهم يعيشون عكس ذلك يومياً ، ويعانونه عملياً في المدرسة ؟

إن المعركة قائمة بالفعل ، ولكننا نخادع أنفسنا فقط بتجاهلها ، والكارثة أن مخادعتنا لأنفسنا انقلبت إلى موقف عاطفي صادق نؤمن به عن سذاجة لا تغتفر .

* * *

إنني لا أستبعد أن يتهمني كثير من إخواني بالإندفاع العاطفي أو بالتحامل عليهم ، وعلى نفسي طبعاً ، وبأنني أضخم المأساة أكثر مما تستحق ، أو حتى بأنني أثير زوبعة في فنجان ، أو بأنني من أعداء العربية . وقد يكون هؤلاء الاخوان عن حسن نية لأنهم قد لا يميزون بين انتقاد العربية وانتقاد حامليها ، ولأن الشخص المادي يندمج دائماً عندنا بالمشكلة الفكرية ، ولكن هذا في نظري لا يهم . المهم هو أن نشعر الآن بأنه قد حان الوقت لندرك بأن مرحلة المناداة بالتعريب من حيث المبدأ أو تهيئة الجو النفسي لتقبل هذا المبدأ من قبل الرأي العام هي مرحلة قد انتهت ، ودقت ساعة التفكير في الوسائل العملية لتطبيق هذا المبدأ ، وإعتقادي أن من أهم هذه الوسائل أو أهمها على الاطلاق ، هو مراجعة موقفنا من القواعد التي نعلم بها العربية اليوم ، وأنها لم تعد قواعد صالحة لأطفالنا وشبابنا .

وإذا كنا ما زلنا في حاجة إلى عملية تهيئة الجو النفسي في موضوع التعريب فإن ميدانه يجب أن ينتقل الآن إلى الضفة الأخرى من النهر : يجب أن نهيئ الجو النفسي عند المثقفين بالعربية ليقبلوا مبدأ هذه المراجعة في موقفنا من قواعد اللغة العربية .

ومهما كنت خيالياً أو عاطفياً ، فإنني لا أطمح لأن نقوم ابتداء من الشهر القادم أو السنة الدراسية المقبلة بإنجاز كتب مدرسية جديدة نحقق فيها هذه الثورة ، وبتكوين معلمين جدد ينجزون هذه الثورة بعصا سحرية . ولكن ما يمكن أن نطمح إليه في الوقت الحاضر هو غاية مزدوجة : أولاً أن نؤمن مبدئياً بضرورة هذه الثورة وبأنها حيوية لمستقبل لغتنا ومستقبل أطفالنا وشبابنا أي شعبنا المقبل ، ثانياً أن نبدأ منذ الآن ـ في نطاق القواعد الراهنة ـ بالتخفيف من تدريس هذه القواعد ، والاعتماد بدلاً منها على التطبيق . أقصد أن نعلم قاعدة أصولية واحدة في الأسبوع ونطبقها خمس مرات في النصوص والأناشيء والإملاءات والتمارين التطبيقية ، بدلاً من أن نعلم الأطفال خمس قواعد في الأسبوع ولا يطبقون منها إلا واحدة .

لو قرأ معلمونا ما كتبه ابن خلدون عن هذه الطريقة نفسها التي نتبعها اليوم في الإلحاح على القواعد ، لأدركوا مبلغ خطورة هذه الطريقة في ظروفنا اليوم التي تواجه فيها لغتنا صراعاً مريراً مع لغات أجنبية في أرضها .

أذكر أنني عندما كنت أدرس العربية بهذه القواعد في جامع الزيتونة كنت أجلس وراء الشيخ المدرس في حلقة الدرس وأطالع طه حسين وجبران خليل أو الجاحظ وابن المقفع . وفي نهاية السنة كنت أكتب موضوع الانشاء في ساعة أو ساعتين بسهولة كان يحسدني عليها زملائي من ضحايا الشروح وحفاظ ألفية ابن مالك . وأعترف أنني كنت أفعل ذلك بدون وعي أو قصد ، وإنما كنت أفعله انسياقاً مع نفوري العاطفي من القواعد ، ورغبتي أو ميولي للمطالعة .

أما ما نريده اليوم فهو أن نفعل ذلك عن وعي وقصد وادراك لما نفعل أو نترك . قال المربي البلجيكي الكبير « ادمون رادار » : « إن ما نسميه بالتربية المتكاملة اليوم يعود بنا مفهومه مرة أخرى إلى مفهوم « سبنسر » الذي أقر الإختيار بين الموضوعات على أساس نفعها .. ونحن على أية حال ملزمون بتنمية الموارد اللامتناهية التي تزخر بها ملكات الانسان الفكرية والأخلاقية .. إن موضوع التربية هو أن يتخذ الإنسان منها مهنة خلاقة .. فالطفل أثناء لعبه والراشد أثناء عمله والأم مع

طفلها والفنان في تخطيطه والكائن الحي ... كل أولئك يبدعون ابداعاً صادقاً ، ولكن حين يكون الطفل واعياً فان لعبه يصبح سيطرة على نفسه ، ويتحول انجاب الأطفال إلى تربية ، والعمل إلى معرفة ، والفن إلى تواصل ، ويصبح ما هو حي امتلاء للوجود . وهكذا حين نعيش مغامرة الابداع عن وعي يتجلى معنى وجود العالم ، وهذا هدف التربية الخلاقة » .

الإبداع والخلق ، هذه هي رسالة العالم المتحضر . والإبداع والخلق معناه النظر إلى المستقبل دائماً . ومعناه اعتماد كل جيل على ما يبدعه بنفسه ، لا الاعتماد دائماً على ما أبدعه أجداده منذ آلاف السنين .

إن الامتحان الحاسم للمثقفين بالعربية هو أن ينهضوا بها لا أن يدافعوا عنها . أن يبدعوا فيها الجديد لا أن يأكلوا ثمارها فقط !

ثم ما هو تعريف الثقافة والمثقف ؟ فهذا ينطبق خصوصاً على موضوع اللغة وأصحابها ؟

إن مقياس المثقف الكفء هو أن يمتلك مادة ثقافته ويسيطر عليها ، هذا معروف . ولكن لماذا ؟ هل يمتلك مادة ثقافته ليكتفي بعبادتها ، أم ليتمكن من تغييرها ، وادخال الجديد عليها مع تجدد الأزمنة والحاجة حتى تبقى حية دائماً صالحة أبداً ؟

ما الفائدة من امتلاك ثقافة اقتصادية أو طبية أو أدبية أو قانونية أو طبيعية فيزيائية ؟ هل الاقتصادي الفحل يتضلع في مادته ليحسن تسيير الإقتصاد بنفس الأساليب على مر العصور ؟ أم ليكتشف فيه باستمرار أوجه نقص كانت خافية ويعمل على سدها أو تعويضها بما هو أكمل ؟ وكذا القول في كل المواد الأخرى . فهل يكون المثقف اللغوي هو وحده الذي ينفلت من هذه القاعدة ، ويبقى غير مطالب بتغيير وتطوير مادته ؟ في حين أن تطور كل العلوم الأخرى يتوقف أو على الأقل يتطلب تطور اللغة ، وتطور اللغة لا ينفصل عن تطور قواعدها . وكما أن اللغة

وتطورها لا تنفصل عن تطور العلوم الأخرى ، فكذلك العلوم وتطورها لا تنفصل عن الحضارة وتطورها . ونحن اليوم نقف على أبواب حضارة جديدة تهددنا بالإبتلاع إن لم نهضمها نحن . ويخطئ من يظن أننا نستطيع أن نهضم حضارة ضخمة معقدة كالتي نواجهها على النطاق العالمي اليوم ، نهضمها بلغة مهما كانت مزاياها الذاتية وقابليتها للتطور إلا أن أهلها مكتفون بالاستهلاك فقط : استهلاك القواعد التي خلفها أجدادهم لهذه اللغة ، واستهلاك الانتاج العلمي الذي يخلقه أبناء الأمم الأخرى المعاصرة لهم . أليست هذه حالنا اليوم عارية من كل تزييف ؟ وكذلك يخطئ من يظن أننا سنستطيع أن نحافظ على قيمتنا الخلقية والروحية ونكتفي بأخذ العلوم والتقنيات الأجنبية المعاصرة ، نأخذها بلغة ما تزال قواعدها ترزح تحت أعباء حضارة أخرى انقرض منها كل شيء حي ، ولم يبق غير الجذوع اليابسة والقواعد الميتة . أليس هذا هو موقفنا على حقيقته ؟

هل كتب علينا دائماً أن نجمد الحي ، ونأخذ العظيم فينكمش ويصغر ؟ أخذنا الدين ثائراً متفتحاً جباراً فوضعناه في قواعد الفقه الجزئية ففقد روحه السياسية وانكمشت أبعاده الاجتماعية . وأخذنا اللغة العربية عظيمة غنية مستعدة للتفجر عن ابداعات مدهشة فقيدناها بالقواعد الجزئية الضيقة ، ففقدت عظمتها التطورية ، واحتفظت بمساحيق جمال هرم لا قوة فيه ولا خصوبة . وبعد أن كانت البلاغة فيها هي ما قل ودل (كما يفعل الانكليز اليوم) أصبحت البلاغة هي التطويل اللفظي والجمود الفكري .

هذه هي الأبعاد التي يجب أن ننظر منها إلى مشكلة العربية والتعريب عندنا ، إنها مشكلة حضارة وفكر . وهي من ثم مشكلة وجود أو لا وجود كما يقول شكسبير . ومثقف العربية وخاصة من كتب له حظه أن يكون ميدان اختصاصه اللغة وقواعدها، يجب أن لا ينظر إلى هذه المشكلة من داخلها كلغة ، أي كعالم مستقل بذاته ، بل ينظر إليها من خارجها على أساس أنها أداة لغيرها كما يقول ابن خلدون ، أو على أساس أنها حلقة في سلسلة العمل الفكري العام الذي يحوي العلوم

وميادين المعرفة على اختلافها . وميادين المعرفة اليوم خاضعة للتطور والتغير ، وتعريف المثقف ـ وفي اللغة أيضاً ـ هو مَنْ يمتلك مادته ليتصرف فيها و يخضعها لقانون التطور العام .

إننا نطلب من الفلاح الأمي أن يغير وجه الطبيعة حوله بالاخصاب والتشجير والبذر والتلقيح وتعلم الفنيات العلمية الجديدة ليستعين بها على هذا التغيير .

ومثقف العربية اليوم يعيش في لغة قاحلة جرداء ، وإن كانت تربتها من أجود التربة ، وأكثرها قابلية للاخصاب . وما يميز بين الرجلين هو أن الأرض الفلاحية نلاحظ جدبها بالعين المجردة ، وبالمقارنة فقط مع أرض أخرى أخصب منها . أما الأرض اللغوية فلا يمكن أن نلحظها بهذه السهولة . ومثقفو اللغات الأجنبية عندنا يتهمون اللغة العربية بالفقر والعجز ويطلقون عليها هذا الحكم دون أن يحللوا طبيعة تربتها ومقدار قابليتها للاخصاب ، والذي أعانهم على هذا الحكم المستهتر بالعربية هم أبناء العربية نفسها الذين يعيشون على أعشابها الميتة دون أن يخدموها فتخضر وتزهر . يمر بهم مثقف الفرنسية في أكواخهم اللغوية القزمة عارية حتى من منظر شجرة للزينة فضلاً عن الثمار العلمية فيحكم حكمه وهو عابر مستعجل . وهذا الموقف المزدوج من الإهمال والطيش هو الذي تنبع منه معركة اليوم بين المثقفين بالعربية والفرنسية عندنا . انهم ما زالوا كما وصفهم الشيخ باديس منذ أكثر من ثلاثين سنة : « هؤلاء يعتبرون الآخرين أحجاراً ، وأولئك يعتبرون هؤلاء كفاراً ... ولكن مهما نطقوا بأي لسان فهم من الجزائر وإلى الجزائر ولا تنهض الجزائر إلا بهم ولا ينهضون إلا بها . »

وما زال « طلاب العلم عندنا ثلاثة أقسام (منذ عهد باديس أيضاً) قسم طلبوا العلم من الغير فنالوه إلا أن الغير طبعهم بطبعه فهم عوض أن يأتوا به مطبوعاً بطابعنا الفطري الذي هو حبل الاتصال بين أفراد أمتنا أصبحوا متأثرين بطابع الغير . وقسم نالوا العلم ولم يحسنوا التصرف فيه لنفع مجتمعهم ووسطهم . وقسم نالوا العلم من الغير وأحسنوا التصرف فيه ونفعوا به بلادهم وقومهم فهذا الفريق هو الذي نحتاجه

اليوم وعلى يديه يكون رقي البلاد وخيرها » .

وإذا كان الصنف الأخير الذي يقصده الشيخ باديس ما يزال في طبقتنا المثقفة في حكم النادر ، فإن الصنفين الأولين هما اللذان تكاثر عددهما في فترة الاستقلال إلى اليوم ، وهما يرجعان في الواقع إلى صنف واحد وهو صنف الذين لم يحسنوا « التصرف » في ثقافتهم « لنفع مجتمعهم ووسطهم » . وموقفهم غير المسؤول يقوم على نفسية واحدة عند الطرفين هي نفسية الاستهلاك والاتكال ، أحدهما يهمل تطوير لغته ولا « يتصرف » فيها لأنه يكتفي باستهلاك ما خلفه أجداده ، والآخر أهمل لغته برمتها لأنه يكتفي باستهلاك ما في لغة الأجانب دون أن « يتصرف » فيها مجتمعه ووسطه ولغته وثقافته . الأول يتهم الثاني بأنه منقطع عن أمسه ، والثاني يتهم الأول بأنه مقطوع عن غده ، وكل منهما على صواب في الاتهام ، ولكن كلاً منهما في مأزق لا يتفطن له ، ولو اقتصر المأزق على الطرفين لهان الأمر ، إنما الكارثة تنصب نتائجها في الحقيقة على المجتمع الذي ينتمي إليه كل من المتخاصمين ، المجتمع الذي لا يستطيع أن ينهض بلغة تحجرت قواعدها ولا بلغة أجنبية عنه برمتها . ولم يتفطن الطرفان إلى أنَّ خلاصهما وخلاص مجتمعهما هو في أداء دور المثقف الحق ، وهو التعاون على تغيير وتطوير لغة المجتمع الثقافية ، وهي اللغة العربية وقواعدها ، هذا التغيير الذي لا بد منه لينصهر فيه المجتمع : المثقف بالعربية والفرنسية والمجتمع . لأن هذا الانصهار تكتمل به الأداة الحضارية والفكرية التي لا بد لنا منها في معركة الخروج من « منطقة الخطر » التي ما زلنا نتخبط فيها ثقافياً وفكرياً مهما حاولنا التغافل عنها بالتهويش الصبياني السهل .

لقد آن لأبناء العربية من أمتنا أن يبلغوا هذا الرشد الفكري ويعملوا على تحقيق رسالتهم الثقافية الحقة التي لا مفر لهم منها بدلاً من الاكتفاء بالمطالب النقابية والإجراءات الإدارية التي لن تفيد العربية شيئاً حتى ولو أفادت المنتسبين إليها ببعض المناصب أو المنافع المادية .

— ٣ —

١ – استكمالاً للجانب الإيجابي لهذا البحث ، وحتى لا يبقى سلبياً فقط ، رجعت

إلى برنامج الوزارة الخاص للتعليم الابتدائي ، كما رجعت إلى بعض كراريس التلاميذ لأقارن بين التوصيات والتطبيق ، وأخيراً حاولت ، أن أستكمل معلوماتي باجراء أحاديث مع بعض المعلمين والتلاميذ أنفسهم . وخرجت من هذه المجموعة « الأرشيفية » بمعلومات جديدة وبعوامل أيضاح لكثير من الأمور التي كنت أتصورها اجمالياً . وهي عوامل ما أشد حاجتنا إلى معرفتها ودراستها .

– فيما يتعلق ببرنامج الوزارة بوغت بشيء لم أكن أتوقعه ، وأعترف أني لم تسنح لي الفرصة لأطلع عليه قبل اليوم ، وهي أنه يعتبر في جملته مجهوداً يستحق الشكر والاعتراف لأصحابه .

ولعل القارئ الذي لا يملك هذا البرنامج يكون في حاجة إلى الاطلاع على بعض النماذج من التعليمات التي وردت فيه ، والتي وجهت إلى معلم الأقسام الابتدائية والتي يهمنا منها هنا ما يتعلق باللغة في برنامج السنتين الأولى والثانية : يخصص لها في الوقت أربع ساعات ونصف الساعة في شكل محادثة فقط . وفي هذه المحادثة « يستعمل ما كان عربياً فصيحاً ويهذب ما كان دارجاً » . والغرض من هذا الدرس هو « ربط لغة المدرسة بلغة الطفل » .

ويلح البرنامج في هذا الصدد « على المزيد من التدريب في دروس المحادثة ... إذ المحادثة ليست درس تصريف يعتني بحالات الكلمة » لذلك هي تجري « دون التزام بتطبيق حرفي وآلي لها » .

والقراءة تخصص لها خمس ساعات أسبوعية والغرض منها هو « فهم الأفكار المكتوبة » . ويلح البرنامج « على ربط المحادثة والقراءة والكتابة جنباً لجنب حتى يدرك الطفل علاقة النطق بالكتابة ..وترسيخ عادات القراءة الحسنة » .

إلى جانب المحادثة والقراءة والكتابة ، يعطي البرنامج ساعة وربع الساعة للمحفوظات التي يراعي فيها ما « ينمي الاحساس بالجمال وتربية الذوق الفني » عند الطفل « وتنمية ثروة الطفل اللغوية وتحسين أسلوبه في الحديث » . كما يلح على

ضرورة « فهم التلاميذ للقطعة المدروسة قبل تلقينها » .

وفي برنامج السنة الثالثة تتطور المحادثة إلى تعبير « تتبلور فيه شخصية الطفل » وينزع فيه إلى أن يكون « حر الرأي قادراً على الخلق والابتكار » بحيث لا بد أن تنمى فيه « الشجاعة الأدبية ... والاعتماد على النفس واستقلال الشخصية » كل ذلك مع « التسلسل في التفكير » . كما تتدرج القراءة إلى أن تكون « الواسطة التي يتمكن بها الإنسان من ولوج جميع أبواب الحياة ، والإنتفاع بها في أغراض الحياة العامة كقراءة الاعلانات واللافتات ومواعيد القطارات » الخ ..

وبينما تبقى كل من القراءة والتعبير ست ساعات في الأسبوع لا يعطي للقواعد إلا ساعة وربع الساعة أسبوعياً . ويلح هنا البرنامج على أن « دراسة القواعد ليست غاية مقصودة لذاتها ... لأن دراسة القواعد هي في الواقع دراسة عقلية مركبة تتطلب قوة الملاحظة ودقة المقارنة » والغاية منها هي « الوصول بالتلميذ إلى فهم معنى الكلام فهماً واضحاً لوظائف الكلمات الأساسية » ولهذا « ينبغي أن تتبع الطريقة الاستقرائية في تدريس القواعد وأن لا تقدم القاعدة إلا بعد استخراجها واستنباطها من النص ، مع الاكثار من التمارين التطبيقية المتنوعة لأن التطبيق هو الهدف الأساسي في تدريس القواعد » . لهذا لا بد أن « يقتصر على ما هو ضروري وهام ليحذر من الدخول في التفاصيل » .

وفي السنة الرابعة يبقى التعبير متمتعاً بساعتين والقراءة بساعتين ونصف الساعة في حين يخصص للقواعد ساعة فقط أسبوعياً ، تبقى فيها المادة نفسها « مع شيء من التوسع والتركيز على الناحية التطبيقية وتحاشي الاصطلاحات المجردة كالاعراب التقديري وغيره » .

وفي السنة الخامسة يبقى التعبير ستين دقيقة أسبوعياً يقع فيها الإلحاح على الأفكار والمعاني والعبارات والقوالب . ويبدأ في الانشاء الكتابي بالاعتماد على النصوص والتعليق عليها وتوجيه العناية إلى المجهود الفكري والنقد ، والإشارة إلى الأخطاء اللغوية الشائعة في القسم بصورة عامة .

بينما تبقى القراءة متمتعة بساعتين ونصف الساعة حتى « تصقل ذوق الطفل وتنمي ثروته اللغوية ويتوسع أفقه الفكري ويتعود الملاحظة والمناقشة من خلال نصوص جيدة من النثر والشعر » (هنا يذكر البرنامج قائمة مطولة للمواضيع التي تصلح لذلك وتؤخذ من الحياة اليومية للطفل) . كما يبدأ في تعويده على « القراءة الصامتة مع اعفاء التلاميذ من المناقشات النحوية والصرفية إلا إذا دعا إلى ذلك تدقيق المعنى » . والاكثار دائماً « من التمارين التطبيقية المتنوعة » .

هذا في حين لا يعطي للنحو والصرف إلا خمسون دقيقة أسبوعياً . لأن القواعد كما يكرر البرنامج هنا وفي كل مكان « وسيلة لا غاية . ومن الخطأ دراستها على أنها غاية مقصودة لذاتها كما كان متبعاً من قبل . لأن ما يقصد منها بالدرجة الأولى هو الفوائد العملية قبل الفوائد النظرية .. فليست القواعد ضمن هذه العناصر إلا وسيلة تعين الدارس على تقويم لسانه وقلمه بمقتضى قوانين لغوية » . بحيث يمكن تعويض القواعد التفصيلية بترسيخ القواعد الأساسية « بكثرة التمارين التطبيقية » . كما يتم ذلك « بتركيز الطريقة الاستقرائية التي تلح على الملاحظة والمقارنة واستنباط القاعدة من طرف التلاميذ .. فالتطبيق هو الثمرة المرجوة في درس القواعد » كذلك يمكن أن يستعاض عن كثرة القواعد بحفظ النصوص « التي ينبغي أن تسبق بالفهم والشرح ثم يكون الحفظ » .

تبقى المواد من حيث الأهمية في الوقت مركزة على المواد اللغوية غير القواعد (خمس ساعات ونصف الساعة) . ويبقى للقواعد ساعة وربع الساعة أسبوعياً .

٢ – هذه هي مجمل التعليمات الواردة في برنامج المرحلة الابتدائية لتعليم الطفل مادة اللغة

ويمكن أن نلخصها من حيث روحها العامة وكما يبدو من التوقيت نفسه إلى جانب التنبيهات والشروح ـ هو التخفيف من القواعد والإلحاح على التطبيق .

ولا أدري إذا كان في الأخوة المشاركين في هذا العمل من اطلع على نظرية ابن خلدون في هذا الموضوع . ولكن الذي ألفت نظري فيه أنه ينتهي إلى نفس النتيجة

التي انتهى إليها الفيلسوف المغربي في هذا الموضوع ، وإن كان هو قد توسع في التعليل والتحليل الذي قاده إلى هذه النتيجة . وكنت أود لو أن البرنامج قد استمد من تحليله ما يزيده اقناعاً وقوة . إذ أن إبن خلدون يبني تحليله على مبدأ أساسي وواضح ، وهو أن اللغة يصلح تعلمها بالوسط الاجتماعي أكثر مما يصلح بالقواعد . و بما أن الوسط الاجتماعي الذي كان سليماً عند العرب قبل الإسلام قد تغير بعده بسبب دخول مجتمعات أخرى غير عربية في المجتمع العربي ، فإنه يجب أن نستعيض عن ذلك المجتمع العربي السليم بمجتمع عربي نصطنعه اصطناعاً ، وذلك بالاكثار من تحفيظ الطفل من كلام العرب السليم حتى يعيش في « جو لغوي » عربي كما لو كان يعيش ـ ولو إلى حد ما ـ في مجتمع عربي سليم النطق . ولا تكون القواعد إلا استنتاجاً من خلال هذا الحفظ « من هنا وهناك » كما يقول ابن خلدون .

إن البرنامج حذر المعلم من كثرة تدريس القواعد ولكنه لم يقترح عليه بدلاً من القواعد « جواً كلياً » .

وفي اعتقادي أن هذا سبب من عدة أسباب جعلت المعلم لا ينفذ قليلاً ولا كثيراً من التعليمات القيمة الواردة في البرنامج . يضاف إلى هذا سبب آخر هو أن أغلب المعلمين على ما يبدو قد تعلموا هم أنفسهم العربية بطريقة القواعد لا بطريقة التطبيق ، إذا جاز أن نسمي تعلم القواعد تعلماً للغة نفسها . أما السبب الثالث فهو ضعف المعلم وتدني مستواه التكويني وقلة بضاعته من الثقافة العامة التي تشع بصورة تلقائية على مجموع شخصيته الفكرية .

ولكي يلمس القارئ بنفسه مدى اتساع الهوة بين ما جاء في البرنامج وما يطبقه المعلم في تدريسه لمواد اللغة ، أورد له بعض الأمثلة من كراريس تلميذ في السنة النهائية من التعليم الإبتدائي اخترتها من بين عدة كراريس لتلميذ متوسط العلامات والدرجة في قسمه :

فيما يتعلق بالمحفوظات لم يتلق هذا التلميذ وزملاؤه منذ أول السنة الدراسية حتى منتصف شهر ماي إلا سبع محفوظات . كل محفوظة متبوعة بشرح للمفردات فقط

لا غير ! ونفس التلميذ تلقى في نفس المدة (٣٢) اثنين وثلاثين حصة من القواعد المشفوعة بالاعراب . وهذه صورة من الاعراب الذي جاء بعد حصة قاعدة « إن وأخواتها » مأخوذة من « ليت الشباب يعود » : يعود فعل مضارع مرفوع بالضمة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو ، والجملة في محل رفع خبر ليت .

وهذا نموذج من القواعد لنفس الطفل : أدوات الشرط الجازمة لفعلين اثنا عشر أدوات (كذا) وهي : ان ، ان ما ، من ، مهما ، متى ، ايانْ ، أينما ، أنى ، حيثما كيفما ، أي .

ويتبع هذه القاعدة مثل واحد هو الآتي : من يحترمك تحترمه . ثم يأتي الاعراب : من : أداة شرط وجزم مبني على السكون . يحترمك فعل مضارع ، فعل شرط مجزوم بمن وعلامة جزمه (كذا) السكون ، وفاعله ضمير مستتر تقديره هو والكاف ضمير متصل في (البقية بياض) .

اعراب آخر : أن : أداة نصب . تخدعني : فعل مضارع منصوب بأن ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت . والنون للوقاية . والياء ضمير متصل مبني على السكون في محل نصب مفعول به .

وهكذا كل الأعمال المتعلقة بالمواد اللغوية لا تخرج عن جملة واحدة متبوعة بنحو عشرة أسطر أو أكثر أو أقل من الاعراب .

نلاحظ بسهولة أن الفرق بين توصيات البرنامج وما يطبق في القسم ليس فرقاً في الواقع ، وإنما هو العكس تماماً : البرنامج يلح على التطبيق في المحفوظات والمحادثة والاملاء ، والتركيب ، والتعبير ، والانشاء ... ويوصى بالتخفيف من القواعد والاعراب ، ويلح بالخصوص على تحاشي ما سماه الاعراب « التقديري» والاقتصار على الاعراب الوظيفي ، أي ما يؤدي وظيفة ظاهرة في الكلمة .

٣ – إلى أي سبب يرجع هذا الفرق بين النظرية والتطبيق ؟ لا أستطيع أن أدعي الاطلاع على كل الظروف التي تحيط بمعلمنا الابتدائي حتى أحصي الأسباب

عن روية وتثبت . ولكن مما لا شك فيه أن هناك ظاهرة عامة لدى كل المتعلمين عندنا سواء كانوا معلمين أو موظفين في الإدارات ، أعني كل الاطارات المتوسطة ، تتمثل في ضعف مستواهم الثقافي العام ، وقلة تجاربهم العملية ، وخصوصاً عدم حرصهم على الزيادة من التكون الذاتي ، والاعتماد على النفس بتخصيص حصص يومية للمطالعة . أغلبهم يعيشون سنوات وسنوات على البضاعة الأولى التي تحصلوا عليها قبل الحصول على الوظيف . أما بعد الحصول عليه فهناك يقف حمار الشيخ . وهنا يجب أن نعمم بقدر ما نقدر دون أن نقع في المبالغة أي يقف حمار الشيخ بالعربية والفرنسية ، كما يقف حمار الطبيب والمحامي وحتى قسم كبير من المدرسين في التعليم الثانوي والعالي ممن يفرض عليهم عملهم اليومي نفسه ، المطالعة والتكوين الذاتي باستمرار .

هذا سبب رئيسي في نظري ، يضاف إليه سبب آخر هو أشبه بالعذر منه بالسبب ، وهو كثرة « المستهلكين » : التلاميذ عند المعلم ، والمرضى عند الطبيب والمتخاصمين عند المحامي ، وطالبي الأوراق عند الموظف ، كل هؤلاء الاطارات يواجهون عدداً من المطالب يفوق الوقت الذي يمكن أن يخصصوه للمطالعة أو التكون الذاتي والاستمرار فيه بشكل منتظم . ولكن هناك سبب آخر ينقص من قيمة هذا السبب الثاني ، وهو الكسل العقلي ، وانعدام النقد الذاتي الذي يشعر المثقف بالحاجة إلى التكوين الفكري المتصل . ويكفي أن تلاحظ الأحياء والمحلات التي يتردد عليها المثقفون فلا تجد إلا جماعات جماعات تقضي الساعات الطويلة في الأحاديث المملة والنكات الباردة ، ولا تعثر ، حتى في القليل النادر على من يطالع كتاباً وهو جالس بمفرده في مقهى ، أو في مطعم أو في القطار ، كما تشاهد ذلك بشكل عادي في المجتمعات المتقدمة .

هذه أسباب لا أشك في وجودها وتأثيرها السيئ على مستوى المعلم والصحافي وكل الإطارات عندنا في البلاد . وهناك أسباب أخرى لا أستطيع أن اعممها بصورة مؤكدة ، ولكن اتصورها بسهولة.أتصور مثلاً أنه لا يكاد يوجد من بين معلمي

العربية ، ونحن نخوض معركة التعريب ، من تيقظ فكره للبحث في هذه القضية بحثاً ، أي يطلع على ما كتب عن العربية من كتب ، وما اقترح بشأن اصلاح قواعدها من حلول ، سواء من جانب المستشرقين أو اخواننا الشرقيين الذين سبقونا إلى مواجهة هذا المشكل . ولا يكاد يوجد بين معلمينا من شعر أثناء تعليمه لتلاميذنا بالصعوبات التي يعانونها في تقبل مادته ، فيتساءل عما إذا لم تكن هناك وسيلة للتخفيف عليهم من هذا العذاب الذي ما أنزل الله به من سلطان . بل هو ، كما يبدو من الأمثلة التي أوردتها ، يكتفي بقضاء ساعته المطالب بها في القسم يدرس كيفما اتفق ، أي شيء يحلو له أكثر من غيره . بل هناك من المعلمات خصوصاً من يقضين أكثر وقتهن لا في الدرس بل في الحديث مع زميلة لها من قسم مجاور ، بعد أن توكل كل منهما القسم إلى احدى التلميذات تحرسه .

نعم هذا ما يحدث ايضاً عند الممرضات في المستشفى والعمال في المزرعة أو المصنع : المهم هو قضاء الساعات المطالبين بها ، وليس هو مضمون ما يجري في هذه الساعات . ونعم أيضاً هذا ما يحدث في كل المجتمعات المتخلفة ثقافياً وخلقياً أكثر من تخلفها المادي الذي هو نتيجة لتخلفها الفكري ، ولكن بالنسبة للمعلم خصوصاً يبدو لي أن هذا لا يجوز ، إذا جاز للصحافي أو الموظف .

٤ – وهنا أرجع إلى العيب الأساسي في برنامج الوزارة : من يقرأ البرنامج وما بلغه من مستوى رفيع في الأفكار والتوجيه والاتقان والجد (حتى في الطباعة لم أعثر على غلطة مطبعية واحدة فيه عكس ما يجري في مطابعنا عادة حتى المدرسية منها) ، هذا الاتقان والجد والمستوى الرفيع يدل مع الأسف على أن الذين كتبوا البرنامج لا يعرفون مستوى الذين سيوكل إليهم تطبيقه .

صحيح ان البرنامج لم يكتب لهذه « الطرحة » من المعلمين الحاليين بقدر ما كتب لمعلمين آخرين سيأتون من بعدهم ويكونون أكثر قدرة على تطبيقه من المعلمين الحاليين ، وصحيح أيضاً أن هذا ما يحدث الآن فعلاً ، وأن كثيراً من المعلمين الذين ما زالوا في طور الاعداد حالياً ، هم أرفع مستوى من الذين يزاولونه

منذ سنوات ، كما تأكدت من ذلك من خلال أسئلة وجهتها لطائفة من المعلمين والمعلمات والتلاميذ معاً .

ولكن كان ينبغي أن لا يغفل البرنامج أمر المعلمين الحاليين الذين يلقنون معلوماتهم الضعيفة لما لا يقل عن مليونين من أطفالنا في الوقت الحاضر ، وكان ينبغي أن يبسط تعليماته أكثر ويقلل من طموحه ، ويتوسع في شروحه ، ويعتمد لا الاقناع والتوجيه فقط بل على تكوين حقيقي يساهم به البرنامج المذكور في زيادة تثقيف المعلم في مادته . وأن يلح بالخصوص على النتائج التي ينبغي أن يتوصل إليها المعلم بما يملك من وسائل محدودة . والنتائج هي أن يخرج التلميذ بأقل عدد ممكن من القواعد وأكثر عدد ممكن من القطع المحفوظة المفهومة ، وأن يخرج التلميذ من ذلك مالكاً لمستوى أدنى من القدرة على التعبير والفهم والتذوق نتيجة لممارسة النصوص فهماً وحفظاً وتذوقاً .

أخذت كراس تلميذ آخر في المرحلة النهائية من الابتدائي هو أيضاً ، وطلبت إليه أن يقرأ منه قطعاً ، مجرد قراءة ، فوجدته عاجزاً عن قراءتها قراءة خالية من التهجي ، فضلاً عن فهم ما يقرأ . لقد كان يقرأ ألغازاً لأول مرة في حياته ، وعندما أسأله عما يقرأ ، لا يجيب بشيء . وأستدرجه إلى الجواب بالشروع مكانه في الاجابة ، فلا يغني ذلك فيه شيئاً . وأمام هذه التجربه لا تتمالك إلا أن تتساءل ما فائدة تدريس هذه القواعد واضاعة مئات من الساعات سنوياً إذا كانت هذه هي النتيجة التي يخرج بها الطفل من هذا المجهود كله ؟ وهذا أيضاً فضلاً عن أن تكون له أدنى قدرة على استخدام هذه القواعد في انشائه أو قراءته أو محادثته أو تعبيره إذا افترضنا أنه ، هذا التلميذ أو غيره ، كان له حد متوسط من المعلومات عن القواعد النظرية في ذاتها .

٥ – انني أعلم أنني أغضب الكثير من معلمينا بهذا التشريح القاسي . ولكن ليسمح لي أخواني بأن أقول لهم : إن نقدنا الذاتي لأنفسنا – نحن عائلة المعلمين – هو ·

شرف لنا ودليل قوة واخلاص . بدليل أننا لا نجد الأطباء مثلاً أو المحامين أو الموظفين الإداريين يكتبون عن نقائص عملهم ويشرحونها كما نفعل نحن المعلمين . فالمعلم هو وحده الذي لا ينتظر غيره أن يعلمه شيئاً . وقضية مدرستنا ليست قضية آنية تتعلق بجيل يسير نحو الانقراض ، بل هي قضية المستقبل ، قضية جيل سيتكون منه مجتمع الغد في بلادنا . وهذا الجيل إذا اخفقنا في اعداده لحياته الصعبة المعقدة ، وإذا تركنا في بنائه فجوات علمية أو خلقية فمعنى ذلك أننا حكمنا منذ الآن على مجتمع الغد بالضعف والتعرض للانتكاس والهزات الخطيرة .

وأنا أعتقد فوق ذلك أن المعلم الجزائري يتحلى بسمات الرجولة في أرقى صورها . وهي التواضع والاعتراف بالحق والشجاعة الأدبية في معرفة الحقائق مهما كانت مرة أليمة .

وأعتقد أيضاً أن القول بأن المعلم الجزائري في ظروفنا الانتقالية التي نجتازها هو معلم تكون تكويناً سريعاً لم يمتلك معه ناصية الثقافة العامة ولا السيطرة على اللغة حتى يستطيع التصرف فيها بالتبسيط لتلاميذه . وصحيح أيضاً أننا نحن الذين سبقناهم إلى هذه المهنة قد قصرنا في حق تكوينهم وتوجيههم وافادتهم بما تحصلنا عليه من تجارب قبلهم . وصحيح أخيراً أننا جميعاً مهما كان مستوى التعليم الذي نزاوله ـ نواجه مهام عسيرة لم نهيأ لها ، ومصاعب هائلة ليس لنا سابق عهد بها . ولكن الصحيح أيضاً ـ كما قال روسو ـ أن الألم العظيم هو الذي يخلق العظماء . ونحن ننتمي إلى شعب عظيم لم يتعلم العظمة إلا من الآلام العظمى . ألم يقل لنا المتنبي منذ عشرة قرون :

وتعظـم في عـين الصـغير صغـارها   وتصغـر في عـين العظيم العظـائم

— ٤ —

عندما بدأت في هذه السلسلة من المقالات المتعلقة بقضية العربية والتعريب والاعراب أو بالأحرى عندما كتبت المقال الأول منها ، لم أكن أتوقع أنني سأضطر

إلى متابعته بمقالات أخرى . كما كنت أعتقد من ناحية أخرى أن أي موضوع داخل في صلب الثقافة العامة ، لا بد أن يثير مواضيع أخرى مشابهة له .. وأن من يهمهم أمره أكثر مني بطبيعة مهنتهم أو اختصاصهم العلمي سيتولون دراسته بتركيز أكثر وسعة في الأفق أرحب ، واطلاع على دخائله وحقائقه أعمق . وكنت أتوقع أيضاً أنني سأتعرض لمناقشة حادة ـ مرحباً سلفاً ـ بحدتها لأنها ـ على ما كنت أتصور ـ ستدفع بكثير من « لغويينا » إلى دراسته في مظانه وجمع الوثائق عنه والعناية به ، وإن كل ذلك سيؤدي في النهاية إلى اثراء مناقشة هذا الموضوع والارتفاع به إلى مستوى أهميته الحيوية في مرحلة تطورنا الراهن في الميادين الأخرى الاجتماعية والاقتصادية .

وكنت ـ أخيراً ـ معتقداً عن اخلاص ، وكما قلت في المقال الأول من هذه السلسلة ، أننا سندخل الآن مرحلة جديدة من معالجة قضية التعريب نتناول فيها الجزء العملي بالبحث ، ونخرج نهائياً من المرحلة الدعائية أو المبدئية التي أخذ نقاشها من جهودنا عدة سنوات .

وبناء على كل هذه التوقعات رحت أجمع كل ما وقعت عليه يدي من بحوث حول هذا الموضوع بالرغم من أنه خارج عن نطاق اختصاصي ، ويكاد يأخذ مني وقتاً أنا في أشد الحاجة إلى تكريسه للعناية بقضايا أخرى .

وقد خرجت من هذه الوثائق بفكرة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء : جزء يتعلق باللغة العربية في وضعيتها الحالية إزاء معترك الثقافات واللغات العالمية . وجزء يتعلق بوضعيتها في المشرق العربي الذي بلغ في عنايته وبحوثه بموضوع اللغة العربية مرحلة المجامع اللغوية وترجمة المصطلحات العلمية . وجزء ثالث يتعلق بمنطقة المغرب العربي التي دخلت هذه المعركة منذ سنوات قليلة فقط نتيجة لاصطدامها بممارسة تعليم أبنائها لغتهم الوطنية لأول مرة في تاريخها الحديث بوسائل بشرية قليلة وكفاءات علمية أقل .

ومن الصعب أن أحصر هنا هذه الوثائق بالتفصيل ، ولكنني أكتفي بالإشارة إلى أهمها لأشرك جمهور القراء عندنا في تكوين هذه الفكرة ، حتى نحصر معالم

الموضوع كما يطرح في ظروفنا الراهنة ، ونضع أيدينا جميعاً على النقط الحساسة منه في كل جزء من هذه الأجزاء الثلاثة .

١ — فيما يتعلق بالجزء الأول : تجتاز اللغة العربية امتحاناً ـ لا أقول قاسياً ـ ولكنه عظيم الأهمية بالنسبة لمستقبلها على الصعيد العالمي ، وقد تلقيت في هذا الصدد تقريزاً من صديقي الأخ العربي دماغ العتروس سفيرنا السابق في أندونيسيا تحصل عليه كما يقول : « من حسن الحظ ، وضعته نخبة من الأساتذة المهتمين بلغة الضاد وعلومها من أعضاء مجمع اللغة العربية وغيرهم ، وهو عبارة عن تفنيد للتعللات التي تريد التذرع بها منظمة اليونيسكو لابعاد اللغة العربية من هذه الهيئة الدولية بعد اقرارها لغة عمل ـ ادعاء من بعض «خبرائها» ، أنها غير عملية . ونظراً لغيرتكم المعروفة على لغتنا القومية ، أرجو أن تجدوا في هذه الدراسة المركزة الهادفة مزيداً من الوسائل لزجر كل نابح عليها » .

والدراسة قيمة حقاً وتنم عن مجهود ضخم قام به واضعوها ، وحصروا فيها حججاً علمية بأسلوب مقارن مع لغات أخرى سواء كانت تتعلق بالاشتقاق أو الاختصار أو الوضوح والدقة . والدراسة طويلة تستغرق (٢٣) صفحة من القطع الكبير . وتركز على نقط رئيسية ثلاث هي : طبيعة اللغة العربية وخاصيات بنيتها . ومشكلة الطباعة والحروف . وأخيراً مشكلة الترجمة والمترجمين من وإلى اللغة العربية . والدراسة إلى ذلك مزودة بالتواريخ والوثائق وأمثلة من المفردات العربية والأجنبية وخاصة الانجليزية والفرنسية ، كما تستشهد بفقرات كاملة من هذه اللغات الثلاث مأخوذة من مواثيق دولية ، ومن معاجم علمية واجتماعية وإدارية . ومتعرضة إلى ما تستغرقه اللغة الانجليزية واللغة العربية من عدد في الكلمات لتأدية المعنى الواحد ، وما تستغرقه من حيِّز على الورق . وبهذه الأمثلة نقيم الدليل على « أن البيان العربي يبلغ بمائة لفظة معاني لا يبلغها البيان الانجليزي بمائة وعشرين لفظة » وتنتهي هذه الدراسة كما يلي : « وأخيراً ، فلعل هذه الدراسة القصيرة التي جمعت بين البحث الاكاديمي والدراسة المقارنة والتطبيق العملي تقدم الدليل الموضوعي على أن اللغة العربية لغة

ذات كلمة موجزة البنية وجملة مختصرة التركيب ، وكتابة قصيرة الحروف ، وعلى أن لها من الخصائص في صيغها الاشتقاقية ، وفي استخدام الضمائر ، واتساع أساليب التعبير ، ما يفسح المجال للاختصار على نحو قد لا يتسنى لغيرها من اللغات ، وعلى أنها ان لم تكن لغة اختزال حقيقي ، فهي لغة ايجاز فعلي ، وعلى أنها ان لم تفق غيرها من اللغات في الوفاء بالتعبير الموجز السريع ، فلا أقل من أنها تقف معها على قدم المساواة ، وعلى أنها أصلح ما تكون لغة للترجمة بوجه عام والترجمة الفورية بوجه خاص ، يشهد بذلك ويدل عليه خبرة المؤتمرات الكثيرة التي عقدت في افريقيا وآسيا واستخدمت فيها اللغة العربية لغة عمل فكانت لا تستغرق وقتاً أطول من الوقت الذي تستغرقه الترجمة إلى الانجليزية أو الفرنسية ، وهذا كله طبيعي جداً بالنسبة إلى لغة لا تزال الحياة تتناولها منذ مئات السنين بالاستعمال للتعبير عن مطالبها العادية اليومية حديثاً وحواراً وخطاباً ، وعن أغراضها العملية زراعة ، وتجارة ، وصناعة وسياسة وحكماً ، وعن حاجاتها الفكرية بحثاً وعلماً وفلسفة ، وعن نشاطاتها الوجدانية ديناً وفناً . وهكذا نستطيع أن نرفع الصوت عن يقين وبرهان ، بأن اللغة العربية من أصلح اللغات لأداء مهمة العمل في منظمة اليونيسكو وسائر المنظمات الدولية » .

واستشهادنا بهذه الدراسة ليس معناه أننا نوافق على ما جاء فيها . إذ لا ننسى أنها دراسة دفاع قبل كل شيء على كيان اللغة العربية ومنزلتها الدولية . ووضعية كهذه تجعل المدافع يجند كل الحسنات ولا يتعرض إلى المساوئ أو النقائص ، وهي ليست كوضعية من يبحث عن النقائص لمعالجتها أو من يسمح لنفسه بالنقد الذاتي

في حين أن اللغة العربية تعتبر بحق من أرقى اللغات ولكن يجب أ لا ننسى أن كمال اللغة العربية يكاد يكون كمالاً ذاتياً . فنحن لا نعرف حتى تطورها من مرحلتها البدائية الأولى إلى ما أصبحت عليه في العصر الجاهلي . ولا نعرف مدى التفاعل بينها في مراحلها الأولى وبين المستوى الحضاري للمجتمع الذي نشأت فيه . وكل ما نعرفه أنها المرحلة التاريخية التي عرفناها فيها كانت أرفع من مستوى مجتمعنا الحضاري وهي ظاهرة لا نكاد نجد لها تفسيراً في علم الاجتماع ، وكل ما نعرفه أيضاً هو أن

القرآن الكريم قد خرج باللغة من مرحلة الشعر إلى مرحلة النثر ، ومن مستوى العاطفة إلى مستوى العقل ، ومن مستوى التعبير عن الحياة الفردية البسيطة إلى مستوى التعبير عن الحياة الاجتماعية ومؤسساتها المعقدة . فتهيأت بذلك لحمل رسالة حضارية احتلت مكانة ممتازة من تطور الفكر البشري . وكانت في هذه المرحلة كما يقول أغست كونت ، تمثل الرقي الإنساني عندما كانت الحضارات الأخرى من حولها تمثل الانحطاط والجمود .

ولكن إلى جانب هذا يجب أن نعترف أيضاً بأن اللغة العربية بعد هذه المرحلة الحضارية لم تعرف تطوراً آخر حقيقياً يخرج بها إلى مرحلة جديدة كل الجدة بل هي ظلت إلى اليوم ، في هيكلها العام وبنيتها وخصائصها ، كما عرفناها في العصر العباسي ، باستثناء مرحلة جمود خانق مرت به في عصر الانحطاط ، وخرجت منه في عصر النهضة العربية الحديثة عائدة إلى ما كانت عليه قبله من حيث المرونة وتنوع المفردات ووفرة الاشتقاق إلى آخره .. ولكنها لم تقفز إلى المستوى الذي تعرفه اللغات الأوروبية الراقية في العصر الحديث . وهذا أمر طبيعي ولا يمكن أن يكون إلا كذلك . فلا يعقل أن تكون اللغة راقية وشعبها متأخراً ، ولا يمكن أن تزخر بأسماء واشتقاقات وخصائص حياة معقدة متطورة في مجتمع أمي لم يبلغ شيئاً من هذا المستوى الحضاري .

وهذه النقطة البديهية الهامة جداً هي التي ننساها عندما نتحدث عادة عن اللغة العربية بلغة الدفاع العاطفي . إذ نتحدث عنها كما لو كانت منفصلة عنا ، ونقبل بهذا المنطق البعيد عن روح العلم : وهو أننا أمة متخلفة ولكن لغتنا ليست كذلك . وهذا المنطق أدى بنا إلى معالجة غير سليمة لوضعية لغتنا في مرحلتنا الراهنة . وهو أننا نبذل جهوداً كبيرة ومشكورة في رفع مستوى حياتنا السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية ، ولكننا بالنسبة للغة نعاملها فعلاً كما لو كانت لا تحتاج لمثل تلك الجهود . وكل ما نفعله ازاءها هو عمل عادي جداً ، ولا نفكر في أنها مثل كل أجزاء حياتنا الأخرى في حاجة إلى اعادة نظر في أساليبها وتراكيبها وخاصة طرق تدريسها بطريقة ثورية حقيقية تقفز بها إلى ما نطمح إليه من مكانة بين الأمم ، وما

نريد أن يكون لها هي من مكانة بين لغات العالم الراقية . إننا ما نزال إلى اليوم على تقليد أجدادنا في النظر إلى اللغة العربية ازاء اللغات القديمة التي عايشتها في عصر نهضتها فكانت لغتنا تفوقها ، كاللغة الفارسية والرومانية القديمة والهندية وحتى اليونانية .

وما زلنا نجر أذيال التفاخر على تلك اللغات فنسحبها على لغات اليوم التي بلغ أهلها مستوى من الرقي الحضاري يفصلنا عنه تأخر عدة قرون . صحيح أن لغتنا العربية اليوم هي أرقى منا كما كانت أرقى من مجتمعها في العصر الجاهلي . ومبلغ الفرق بين لغتنا العربية اليوم ولغات العالم المتحضر أقل بكثير منه بين مستوانا الحضاري ومستوى الدول المتحضرة . ولكن هذا التفاوت مع ذلك يبقى نسبياً ، وتبقى لغتنا أكثر التصاقاً بأوضاعنا الحضارية . بل أكاد أقول أننا نحن الذين قعدنا بهذه اللغة العجيبة عن التطور والرقي نظراً لاستعدادها للتطور ، واستعدادنا نحن للابقاء عليها كما هي . إننا نحن الذين أصبنا اللغة بالقعود عن التطور ، وكل ما يوجه اليوم من تهم عن حق أو عن باطل ، إلى اللغة العربية ، إنما يوجه مباشرة إلى أبنائها العاجزين . ان اللغة العربية لو كانت لغة أمة أخرى من الأمم النشيطة المتحررة من من التزمت لكان لها شأن آخر ، بل ولكانت لهم أسرع قطار ينقلهم إلى العالم المتحضر .

فليكف إذن كل هؤلاء الذين يدافعون عن عجزهم بالدفاع عن العربية ، ان هذه المخادعة قد طالت أكثر مما يجب ، وكادت تتحول إلى كارثة نفسية وحضارية تجعلنا نقتنع بما نحن فيه من أسمال وفقر ونحن نظن ـ بسبب هذا التخدير ـ أننا على خير لا يشاركنا فيه أحد !

أما الجزء الثاني لوضعية اللغة العربية : فيتعلق بالمشرق العربي الذي لم ينسلخ يوماً عن لغته ، ولم يصب بمحق الشخصية الثقافية الذي عرفناه في المغرب العربي وخاصة في الجزائر . ويجب أن نعترف هنا بأن اخواننا في المشرق ، بفضل هذه الوضعية الطبيعية التي ظلت سائدة عندهم قد مكنتهم من أن يسيروا في طريق طبيعي : يدرسون لغتهم ويتكلمونها ويعملون بها في إداراتهم وفي مختلف أجزاء نشاطاتهم

اليومية ، بالرغم من المضايقات التي تعرضت لها اللغة العربية في بلادهم في عهد الاستعمار البريطاني والفرنسي ، ولكنها مضايقات لا تعد شيئاً بالنسبة للمحنة الماحقة التي عرفتها هذه اللغة في منطقة المغرب في العهد الاستعماري ، والتي جاءت بعد فترة ركود عثماني مظلم ثقافياً ، وبعيد المدى زمنياً .

ووضعية المعالجات اللغوية في المشرق اليوم تعتبر طبيعية بالنسبة لتقدمه في هذا الميدان ، فهو لا يعرف صعوبات تدريس في التعليم الابتدائي أو الثانوي ، ولا في الإدارات ولا على صعيد الحياة الاجتماعية أو الثقافية عامة . وإنما يكاد ينحصر الجهد العلاجي في مستوى تدريس العلوم بالجامعات ، وفي مستوى العلوم التقنية الحديثة والبحث العلمي . وفي هذا المجال نجد كثيراً من البحوث والملتقيات داخل المجامع اللغوية وخارجها . وهي جهود تواصلت بعد الحرب العالمية الأولى إلى اليوم ، وتركزت بصورة خاصة على مادة الترجمة العلمية لمفردات التقنية . ونجد اليوم حصيلة هامة من هذه الجهود ، وإن كان يعترضها بعض العوائق وفي مقدمتها توحيد المصطلحات المترجمة في مختلف أنحاء الوطن العربي . ففي كل مؤتمر علمي أو لغوي تعرض مجموعة من المصطلحات في العلوم الكيميائية والطبيعية والبيولوجية والنبات والحيوان والحشرات والرياضيات تبلغ عشرات الآلاف من المصطلحات . كما أن اللجنة الثقافية للجامعة العربية والمكتب الدائم للتنسيق في الرباط تقوم من ناحيتها بجهود كبيرة في نفس الميدان . وفي نفس الميدان أيضاً نجد القوات المسلحة تصدر معجماً يضم ما لا يقل عن خمسة وثلاثين ألف مصطلح في الرياضيات والطبيعة . والكهرباء واللاكترون والطيران والبحرية والهندسة . وأصدرت الجامعة العربية معجماً عسكرياً موحداً للبلاد العربية يضم نحو ثمانين ألف مصطلح في العلوم العسكرية وفي الطب والطبيعة والهندسة والرياضيات الخ ..

هذا هو المستوى الذي ينشط فيه اخواننا في المشرق خاصاً باللغة العربية ، وهو يعطينا فكرة عن أن مجال الاهتمام هناك غيره هنا في المغرب ، وأن كلمة التعريب نفسها عندما يكتبها اخواننا في المشرق يعنون بها هذا المجال العلمي المعين ذا المستوى المعين ، وأننا عندما نكتبها نحن هنا نعني مستوى أقل بكثير ، ولكن أكثر الحاحاً

في نفس الوقت .

وهنا ندخل الجزء الثالث من مشكلة معالجة اللغة العربية ، وهو الجزء الخاص ببلاد المغرب العربي ، وهو أيضاً الجزء الذي حاولنا أن نركز عليه في هذه المجموعة المتواضعة من الابحاث ، والذي تعالجه أبحاث مماثلة في تونس وفي المغرب .

ملف الجامعة

ان الشباب والفراغ والجدة (*) مفسدة للمرء أي مفسدة

قد يكون من التبسيط الخطير أن نرد القضايا الكبرى إلى هذه الأبعاد الصغيرة أو نحاول حل المشاكل الاجتماعية أو الثقافية ببيت من الشعر أو حكم فلسفية أو موعظة دينية .

ومع ذلك فان هناك خطراً آخر في الطرف المقابل وهو تعقيد نظرتنا إلى هذه القضايا بدلاً من تبسيطها ، ومحاولة التكلف في التعميق حتى تغيب المشكلة في ضباب من التصنع والتزييف ، وخاصة عندما تتعلق بمجتمعات متخلفة ... تصدر المشاكل فيها غالباً عن ذهنية ساذجة واندفاعات عاطفية وعقد نفسية لا أساس لها من الواقعية والجد .

والمشكلة التي نعنيها اليوم بهذا الكلام هي : هل هناك مشكلة حقيقية يعانيها الطلبة عندنا ؟ سنعود إلى الإجابة على هذا السؤال فيما بعد .

إن الشباب الأمريكي يعاني مشكلة حقيقية هي أن يموت « جيفة » في الفياتنام

---

١ – كتب هذا البحث قبل الاصلاح الجامعي المعمول به في الوقت الحاضر .

أو يموت أقاربه أو تموت سمعة بلاده بعد أن تمرغ في أوحال العدوان والعجز والغطرسة والضعف في آن واحد .

وشباب تشيكوسلوفاكيا يعاني أزمة نمو يتطور بها ازدهار بلاده الاقتصادي والاجتماعي فيطمح بطبيعة البشر إلى ما فوق ذلك وهو الحرية الفكرية .

والشباب الياباني لم يعد يريد أن يسمع أو يرى في بلاده شيئاً يذكره بالذرة وبالقوة الذرية ــ بعد هيروشيما ــ وبالدولة التي جربت فيه أول قنبلة ذرية .

إن شباب هذه البلدان على اختلافها ساخطون قليلاً أو كثيراً ثائرون إلى حد قريب أو بعيد ، ثوريون حقاً أو باطلاً .

أما الشباب الفرنسي فممزق بتمزق مجتمعه تتقاسمه الأحزاب وتنهشه التيارات ، كما كان دائماً في تاريخ هذه البلاد منذ الثورة الفرنسية إلى اليوم ، مما جعل اوغوست كونت يفضل مجتمع القرون الوسطى أو مجتمعات الشرق الراكدة ولكنها متماسكة ، على ما يراه في مجتمعه من تنافر وأهواء شاردة ، فاجتمعت على شباب فرنسا عوامل تاريخية أضيف إليها طبيعة الثقافة اللاتينية وما تزخر به من بيزنطينيات وتعشق للحرية التي لا تختلف عندهم كثيراً عن الفوضى .

وأضيف إلى كل ذلك أخيراً فراغ سياسي وفقدان للمثل العليا وتكالب على الملاذ وخلط بين متعة الفكر ومتعة الشهوة وفلسفة ابيقورية منحطة تجمع بين التشاؤم والانحلال والبحث عن اللذة واليأس من ثمرة الكفاح . كل ذلك يتحكم عن وعي أو عن غير وعي في تصرفاته الفردية أو الاجتماعية ، وفي حياته العائلية والسياسية على السواء ، فأي نوع من أنواع هذا الشباب نشبه به شباب الجزائر ؟ .

إن وضع هذا السؤال نفسه هو وضع محزن . فبلادنا بطبيعة مستواها الحضاري والثقافي لا تنتمي إلى هذه البلاد كلها . ومن ثم فهي لا تعاني شيئاً من مشكلاتها ، بل تعاني طرازاً آخر من المشاكل هو مشكل البلاد المتخلفة الفقيرة مادياً وعقلياً وخلقياً .

ومع ذلك فإن شبابنا (وأعني طلابنا بالخصوص) ـ وهذه هي مشكلتهم الأولى ـ لا يشعرون أو يعون ، هذه البديهية الأولى . فهم في أغلب الأحيان وفي أكثر تصرفاتهم العملية وتكوينهم العاطفي وبنياتهم العقلية منقطعون عن مجتمعهم الحقيقي ، طامحون إلى مجتمع خيالي يتبنون مشاكله ويعالجونها بأسلوبه لأنهم يكذبون ما يرون ويصدقون ما يسمعون . لا يؤثر فيهم محيطهم الاجتماعي الذي انقطعوا عنه في بناية الجامعة وشوارع العاصمة ، ولا يتأثرون بتراثهم الثقافي الذي انقطعوا عنـه في مؤلفـات الأجانب وتفكير أساتذتهم « المتعاونين » معنا لكي يزيدوا هذه القطيعـة استحكامـاً . ولم تبق في أذهانهم من ملامح الوطن حتى تلك الصورة الساذجة الواضحة التي كانت تحملها أجيال ما قبل الثورة بفضل وجود العدو شاهراً سلاحه مكشراً عن أنيابه في كل منعطف من البلاد وفي كل واجهة من الحياة . فبقوا كالسمك يسبح في غير ماء .

فهل هذا الشباب جدير باللوم والمؤاخذة ، أم بالشفقة والعطف ؟

هذا أيضاً سؤال في غير محله ؟ إذ أن المسألة مسألة تحليل رياضي أو كيمياوي لمعطيات معينة : ما هي أسبابها ، وما هو علاجها أو حلها ؟ ولا علاقة للتحليل باللوم أو بأية عاطفة أخرى ، وليس الانفعال أو السخط على الطلبة أو الاشفاق عليهم هو الذي يمكننا من التحليل الواضح والحل الصحيح :

قلنا ان طبيعة مشاكل شبابنا الحقيقية تختلف عن طبيعة مشاكل البلاد المتطورة كلها سواء منها الاشتراكي أو الرأسمالي ، وان شبابنا لا يعي هذه البديهية الأولى . وإذن فالهدف الأول الذي ينبغي أن نحققه هو دمج شبابنا في محيطهم الاجتماعي حتى يكونوا جزءاً حقيقياً من بلادهم لا جزءاً مصطنعاً من بلاد أخرى أو حضارة أخرى أو عالم غريب عن عالمهم . وهذا الدمج الاجتماعي أو السياسي يكون بواسطة الحزب والجيش الوطني .

وفي الوقت الحاضر ما زال ـ أو على الأقل حتى ساعة كتابة هذا المقال ـ ما نزال في محاولة اعادة تنظيم الحزب . وقد أعلن رئيس مجلس الثورة والحكومة

أن عملية إعادة تنظيم جيش التحرير وتحويله إلى الجيش الوطني الشعبي كانت عملية صعبة جداً ولكنها مع ذلك تحققت بنجاح . ونحن لا يسعنا إلا أن نغتبط بهذا النجاح ونصفق له . ولكن ما هو السبب في تأخر مثل هذا النجاح بالنسبة للحزب ؟ ان الفروق كثيرة ولا سبيل إلى تعدادها هنا ، ولكن في مقدمة هذه الفروق أن الجيش بطبيعته يعتمد على الطاعة والامتثال والأوامر الواضحة والحزم في التصرف ووضوح الهدف . وكل هذا لا وجود له في الحزب فهل يجب أن يوجد ؟

إننا نجيب دون تردد : نعم . هذا ما يجب أن يوجد في الحزب أيضاً . ومع ذلك فهناك فرق أساسي بين الجيش والحزب ، وهو أن الجيش لا مجال فيه للمناقشة السياسية ، أما الحزب فأساسه الأول هوهذه المناقشة السياسية ذاتها ، ولعل هذا الفرق الهام هو من الصعوبات التي تقوم في طريق الحزب . ونحن نشاهد اليوم وضعاً غير طبيعي في موقفنا من الحزب أو في سلوك الحزب والمواطنين : وهو أن حق المناقشة السياسية لا يعطى عادة في بلاد الحزب الواحد إلاللمناضلين العاملين داخله . أما من كان خارج الحزب فلا حق له في هذه المناقشة . وما نجده عندنا هو أن من يوجد داخل الحزب لا يناقش ولا ينقد . ومن يوجد خارجه هو الذي يعطي لنفسه حق المناقشة والنقد سواء بالحق أو بالباطل.وكان الوضع الطبيعي يقتضي العكس : من يكون داخل الحزب يجب أن يناقش وينقد ، ولكن يجب أيضـاً أن يقترح ويقدم الحلول ويبرهن على أنه يناقش وينقد ويحلل ويقترح للزيادة من رفع البناية إلى أعلى . أما من يكون خارجه ـ وهذا أيضاً من تقاليد البلاد ذات الحزب الواحد ـ فإنه يقضى على حقه في المناقشة والنقد وعلى حقه في الاهتمام بالأمور العامة اطلاقاً . وإنما هو شخص يعيش لنفسه ولعائلته ولا يعيش لمجتمعه أو بلاده . وهذا الضبط والتعديل هو الذي يجمع ويفرق في آن واحد بين الحزب والجيش .

وإذن فدمج الطلبة في الحزب على هذا الأساس ضروري لتمكينهم من صرف جهودهم المثالية وأحلامهم الثورية في اطار من النظام المثمر . ولكن أهم فائدة في هذا الدمج تكمن في ميدان آخر ، وهو أن دمجهم في الحزب سيكون في الحقيقة دمجاً لهم في المجتمع ، في محيطهم الطبيعي ، وفي مشاكل هذا المحيط الحقيقية ،

التي لا بد أن تؤثر على تصورهم الصادق لأوضاع بلادهم ، ومن ثم على طريقة معالجتهم لهذه الأوضاع بما لهم من كسب فكري ، ومن قدرة ذهنية ، ويصبح نشاطهم الاجتماعي والسياسي نابعاً من طبيعة محيطهم ، وذلك هو أعلى درجات التكوين بمعناه العقلي والسياسي معاً .

ان الحزب يعتبر من الوجهة النظرية أهم قوة منظمة تحضن كل فئات الجماهير ولا بد أن يجد فيها الطلاب مكانهم إلى جانب المؤسسات الجماهيرية الأخرى التي تتكون منها أركان الحزب الكبرى .

ومع الحزب توجد قوة أخرى منظمة ويجب أن لا يخرج منها الشباب والطلاب ، أو يجب أن تحرم هي أيضاً منهم ، وهي قوة الجيش . فهنا يجد الطلاب وسيلة من نوع آخر ليندمجوا في مجتمعهم عندما يحيون مادياً وتنظيمياً وعلمياً مع أبناء الشعب الآخرين مدة عامين أو نحواً من ذلك يتخرجون بعدها مستكملين رجولتهم الجسمية والاجتماعية بعد أن يكونوا قد استكملوا تكوينهم الفكري والاجتماعي في الحزب وفي الجامعة .

ولكن هل هذا هو ما يحتاجه الطلبة ليخرجوا من مشاكلهم المفتعلة والصحيحة؟ الآن فقط نصل إلى الجواب عن السؤال الذي افتتحنا به هذا المقال : والمسؤول عن هذا الجواب أخيراً ليس هو الحزب ولا الجيش بل هو وزارة التربية أو الجامعة نفسها والقائمون عليها مباشرة .. أو بكلمة واحدة الناحية التعليمية من المشكلة ، وليست الناحية التنظيمية السياسية ، أو الاجتماعية .

ان طلابنا منذ الاستقلال يعيشون من الناحية التعليمية في الفراغ والشباب والجدة فكان لهم هذا الثالوث مفسدة أي مفسدة .

فالوزارة ترى أن الجامعة تتمتع بذاتيتها وشخصيتها واستقلالها في الادارة والبرامج وانتخاب العمداء وتعيين الأساتذة إلى آخره ، وأنها ــ أي الجامعة ــ هي المسؤولة عن اصلاح نفسها بنفسها ، أو في الثورة على نفسها ان شاءت أو في الجمود والقعود ان

استحلت ذلك ورأته أنسب لرسالتها .

والقائمون على الجامعة من ناحيتهم يرون أن الرسالة الأولى للجامعة هي أن تحافظ على مستواها الذي كانت عليه دائماً ، وأن لا يمسها التدهور الذي يمس التعليم في الأقطار الحديثة الاستقلال . واذن فإن الجهود ، إذا بقيت جهود فضلت عن التسيير الإداري ومشاكل الامتحانات التي لا تنقطع والاجتماعات الروتينية المرهقة - فإن هذه الجهود يجب أن تنصرف إلى الحراسة المشددة حتى لا يتدحرج المستوى « الراقي » للجامعة ويتدلى إلى الانحطاط . فلا شهادة تعطى إلا وفق المقاييس المعهودة ، ولا شهادة في الخارج تقبل إلا إذا كانت وفق تلك المقاييس نفسها . أما تغيير الاتجاه ومواد الدراسة والبحث عن الجديد خارج هذا الاطار ، فهم يتصورونه ليس من اختصاصهم ولا يدخل في نطاق رسالتهم . وإذا كانت هناك اتصالات بين الجامعة والوزارة فهي أيضاً خاضعة لهذه المقاييس والروتين . وان حدث ذلك فالى تعليمات منقطعة لا يصحبها تتبع ولا حرص . وتمضي السنوات ويتكاثر عدد الطلبة فيغمر عددهم المتزايد مصالح الوزارة والجامعة معاً بالمشاكل اليومية أو المادية : السكن ، المطعم ، الكتب ، المخابر ، المنح إلى آخره ... أما مهمة التوجيه أو بالأحرى رسالة الثورة وكيف يجب أن تدخل الجامعة فقد نسيه الجميع : الأساتذه والطلاب والمسيرون في الجامعة والوزارة جميعاً . أو بالأحرى رسالة الثورة هذه ما تزال في نطاق الأحاديث الشفهية أو إن تعدت ذلك فإلى المشاريع الفردية التي يتعب فيها البعض ولا يكترث بها البعض الآخر . ولا يمضي عليها وقت قصير حتى تطوى - والكثير منها يستحق كل العناية - في خضم الروتينيات اليومية . والقضية - لحد كتابة هذه الأسطر أصبحت تكتسي أهمية وطنية كبرى ولم تعد مؤسسة ذات طابع خاص ، أو تابعة لقطاع معين من أجهزة الدولة دون الأجهزة الأخرى .

والثورة التي ينبغي أن تدخل الجامعة تقوم - زيادة على دمجها الاجتماعي والسياسي في محيط البلاد بواسطة الحزب والخدمة الوطنية أو التجنيد - تقوم على أساس من نفس المبدأ وهو الدمج في المحيط الوطني عن طريق الدراسة أي المواد التي تدرس والكتب التي يرجع إليها واللغة التي يتم بها التدريس .

وهذه الصورة عن هذا الدمج الثقافي في المحيط الوطني : فكلية الطب يجب أن تدرس التراث الطبي العربي ووسائل العلاج الشعبية وتتطور بها من مستوى التقاليد البالية إلى التجربة العلمية الصحيحة . وكلية الحقوق يجب أن تدرس تقاليدنا التي يعيش عليها مجتمعنا وتبني عليها ـ أو على ضوئها ـ قوانينها الاجتماعية المقبلة ، ولا تكتفي مثلها مثل كلية الطب ، بدراسة المواد الأجنبية وتطبيقها على مجتمع لا يفهم منها شيئاً ، ولا هي نابعة من تاريخه الماضي أو أوضاعه الراهنة .

وكلية الآداب يجب أن تجعل في رأس قائمة موادها الدراسية تراثنا الفكري والعقائدي (في قسم الفلسفة) وأدبنا العربي الحديث والقديم وأدبنا الشعبي (في قسم اللغة) وتاريخنا الحضاري وخاصة منه تحليل حركاتنا السياسية في عصر نهضتنا الراهنة (في قسم التاريخ) إلى آخره ...

أي أن الجامعة لكي تصبح جزائرية يجب أن لا تكتفي بجزائريتها الجغرافية وبكونها قائمة في أهم شارع من شوارع عاصمة الجزائر . بل يجب أن تعمد إلى كيانها العلمي نفسه « فتجزئره » وتبنيه من جديد ، وعندئذ فلن يكون لدينا طلبة ولا أساتذة منحرفون يعيشون في جامعة الجزائر بوجودهم المادي ، وفي عوالم أخرى بوجودهم العقلي والثقافي . إذا كان الحديث قد كثر عن التعريب في الجامعة ، فان هذا التعريب إذا اقتصر على اللغة وحدها ، وبقيت المواد أجنبية غير عربية ولا جزائرية فان هذا التعريب سيكون سطحياً ولا يؤتى بثمرة تذكر . ان التعريب الصحيح هو تعريب المواد الدراسية والمضمون العلمي مع تعريب الأداة اللغوية التي تعبر عنه .

إن الثورة إذا دخلت الجامعة من هذا الطريق فانها ـ بدون مبالغة ـ ستتجند لخدمة الوطن . والتجنيد يتطلب جهوداً غير عادية ، وأعمالاً ضخمة لا تعرف الراحة ولا التمهل .

وفي هذا السياق نجد أن طلابنا « يتمتعون » بفراغ يحسدهم عليه كل زملائهم في العالم الثالث وكل العوالم الأخرى . ان برنامجهم الدراسي الذي يقومون به في شهر لا يستغرق أكثر من أسبوع في أغلب بلاد العالم الأخرى . والفراغ الذي ترك لهم

بحجة أن أغلبهم موظفون لا يتمكنون من متابعة ساعتين أو ثلاث في اليوم ، أصبح (هذا الفراغ) عند البعض الآخر وسيلة من وسائل اللهو أو اضاعة الوقت في غير الجهد الدراسي المنظم . واذن فان أول عناصر الثورة التعليمية ، بعد المواد الوطنية ، هي تعمير الفراغ بالحصص الدراسية حتى لا تقل عن العشرين حصة أسبوعية مكان العشرين حصة شهرية في الوقت الحاضر . ان المادة العلمية التي يخرج بها الطالب من التوقيت الحالي لا تمكنه من التوغل أو التعمق فيما يدرس ، وإنما هو لا يتجاوز العبور الخفيف لأمهات المسائل المطروحة . كما أن حرصنا على تخريج أكبر عدد ممكن من الاطارات في كل عام قد ساعد على « تخفيف » البضاعة العلمية التي يتخرج بها الطالب ، في حين كان ينبغي أن نجمع بين كثافة المادة وقصر المدة وذلك بتعمير وقت الطالب ، أي يومه وليله ، بالعمل الذي يحاسب عليه بانتظام ، وبالتضييق إلى أقصى حد من ساحة هذا الفراغ الزمني الخطير الذي يعيشه الطالب ، يصحبه فراغ في البضاعة العلمية وفراغ في التكوين الوطني والسياسي والخلقي جميعاً .

بقيت قضية أخرى لها علاقة قوية بهذا الجانب العلمي للجامعة ، وهو الاسراع في أقرب وقت ممكن في تكوين الأساتذة الجزائريين والاستغناء بهم عن الأساتذة الأجانب وأقصد الأجانب غير العرب طبعاً . فكيف يكون هذا التكوين ؟

كنت أتحدث مع أحد طلاب الحقوق عن سبب اضراب وقع في كليتهم فقال لي : يجب أن تطلعوا على ما يقوله الأساتذة الأجانب لطلابنا في قاعات المحاضرات . ان ما يقولونه هو عبارة عن تهييج حقيقي لأحط غرائز التحلل الوطني والتفسخ الاجتماعي . وإن هذا التسمم قد بلغ الآن درجة أثارت الطلبة حتى ضد أهم مكسب وطني جديد حصلت عليه الثورة لحد الآن في ميدان الشباب وهو مكسب الخدمة الوطنية .

فقلت : وكيف لا يوجد في كليتكم إلى اليوم أساتذة جزائريون ؟ فقال لي : السبب هو أن كل متخرج من كلية الحقوق عندما تكون له بضاعة علمية حقيقية وفطنة فكرية يفيد بها ويستفيد بسرعة تختطفه الشركات الوطنية وتقدم له مرتباً

شهرياً يتجاوز ثلاثة أضعاف ما يحصل عليه وهو أستاذ في الكلية . ويبقى المجال بذلك فارغاً للمتعاونين الأجانب الذين يمارسون أنواع الافساد على طلابنا » .

وأنا أضيف هنا أن مرتب الأساتذة الأجانب بصفتهم متعاونين يرتفع هو الآخر ضعفي المرتب الذي يعطى للأساتذة الجزائريين . أي أن ميزانية الدولة عندما تخسر أستاذاً جزائرياً من الجامعة وتعوضه بأستاذ أجنبي لا تكسب شيئاً جديداً ، بل تخسر مرتين . مرة في دفع الأجر مضاعفاً للاطار الجزائري عندما يهجر التعليم إلى الشركة الوطنية ، ومرة في دفع نفس الأجرة المضاعفة إلى الأستاذ الأجنبي . ولكن الأخطر في هذه الخسارة المالية هي الخسارة الوطنية والسياسية ، وهي افساد جيل أو جيلين أو أكثر من ذلك على يد الأساتذة الأجانب ، وتخريج أجيال من المنحرفين لا يصلحون اليوم طلاباً ولا يصلحون غداً اطارات للوطن .

والوسيلة لسد هذا الانحراف الذي تنجر عنه انحرافات أخطر ، هو أن لا يشعر الأستاذ الجزائري ـ مهما كانت الأعذار ـ أنه أقل قيمة في الجامعة منه في أي ميدان آخر . انه في الشركة الوطنية يسيِّر آلات . أما في الجامعة فهو يكوِّن أدمغة ، ان للأستاذ الجزائري الحق كل الحق في أن لا يعتبر أقل من أي اطار في البلاد . بل ان حاجة البلاد إلى الاطارات التي يصنعها الأستاذ الجامعي يجب أن تجعلنا نخصص له تشجيعات خاصة كما هو الشأن في البلاد الاشتراكية في العالم . يجب أن نشجع الطالب المتخرج بامتياز بأن ندفع له منحة شهرين مضاعفة ونطلب منه أن يستكمل شهادته العليا في ظرف عامين أو ثلاثة على أبعد تقدير . ونشجع الأستاذ الممارس لمهنتة بأن ندفع له منحاً سنوية على قدر انتاجه وبحوثه التي قام بها أثناء السنة . وأن نؤلف لجنة منتخبة من الأساتذة أنفسهم لاسناد هذه المنح على أساس الانتاج الذي يستحق التشجيع . وكل هذا بالاضافة إلى التسوية في المرتبات عند التساوي في الشهادات من جميع القطاعات الأخرى في البلاد سواء كانت شركات وطنية أو اقتصادية أو علمية . ان العالم اليوم سواء في المناطق الاشتراكية أو الرأسمالية لم تعد تسيره القوات السياسية أو الأحزاب أو التكتلات النقابية أو غيرها بقدر ما يسيره العلماء والخبراء . هذا هو قانون العالم الحديث ولن نستطيع له تغييراً .

ان هذه الحلول ، مهما بدت غالية الثمن بالنسبة لميزانية الوطن يجب أن نعتبرها ضرورية وزهيدة الثمن لأن المضار التي ستحصل لنا من الأساتذة الأجانب لن تتوقف عند حد . انها بالأمس كانت فكرية محتشمة ، واليوم تطورت سياسية سافرة ، وغداً ستصبح خلقية رهيبة . ويكفي أن نتصور فقط ما يجري في أوساط الشباب في أوروبا من المفاسد الخلقية لكي نشعر بجسامة الخطر الذي يتهدد شبابنا ! ومع ذلك فهل تعد هذه الاقتراحات والحلول هي كل شيء لتكون لنا جامعة مثالية وطنية ؟ كلا

إن هناك شروطاً أخرى لا بد منها ، وهذه الشروط يمكن أن نجملها في نقطتين : الأولى تتعلق بسلطة علمية . والثانية بسلطة سياسية . السلطة العلمية ، سواء الوزير نفسه أو مدير الجامعة أو أي شخص أو منظمة تكون لها سلطة مادية ومعنوية كافية تتبع سير الجامعة بعناية وحرص وحزم ، في كل أجزائها وتفاصيلها ، تعقد الاجتماعات مباشرة مع الأساتذة ومع الطلاب ومع المديرين ورؤساء الأقسام وتتناقش معهم في المواد الدراسية . وفي أسلوب التدريس وأحسن طرقه ، والاستفادة من التجارب الجارية أو الراهنة عندنا وعند غيرنا ، واجراء الرقابة الواعية وتشريك كل من يمسهم الأمر في التسيير وتحمل المسؤولية مع تحديد مكانة كل واحد ودوره في هذا التسيير ، واشعاره بأن ذلك لا يملى عليه املاء بل يشارك فيه هو بنفسه على قدر جهده وذكائه ومردوده . وفي هذه الاجتماعات تسوى المنازعات بسرعة ويوضع حد لنفسية الاهمال وعدم المبالاة ولنفسية المنفعة الفردية وتخريب جهود الآخرين ، والتخلص من الروتين التقليدي ، والاقبال على المشاكل بجرأة والتهجم عليها تهجماً كما يقول الغزالي . وكل ذلك في الاطار التعليمي البحت .

السلطة الثانية السياسية ، هي بطبيعة الحال سلطة الحزب أو المنظمة الطلابية المنتخبة والمسؤولة . وأول شروط هذه السلطة إذا كانت طلابية أن لا تجعل نفسها مؤسسة مهنية يتخصص فيها طلاب معينون يهملون دروسهم ويعتنون فقط بشؤون الطلاب ، وإنما يجب أن تضيق ساحة نشاطها إلى أقصى حد ممكن حتى يمكن أن لا يشارك في تسييرها إلا الأكفاء المخلصون ، وحتى لا يفر منها الطلبة المجتهدون

كما يفعلون عادة لأنهم يتصورون أن نشاطهم داخل المؤسسة يأخذ الكثير من وقتهم ويكون ذلك على حساب دراستهم . وأخيراً لكي لا يحتكر المؤسسة طلبة معينون يتخذونها مهنة لهم على حساب الدراسة ويستعملونها لغايات غير طلابية أو حتى للوصول إلى أغراض ومرامي شخصية أو منافع خاصة .

كما أن دور الحزب هنا يكون في غاية الدقة والأهمية ، فهو من ناحية يجب أن لا يجعل الطلبة يشعرون بأن المشرفين عليهم من الحزب هم عناصر لا يفهمون مشاكلهم ولا يقدرون مستواهم العقلي ، فيفرضون عليهم كل شيء فرضاً بدعوى أن ذلك أوامر من الحزب لا تقبل المناقشة . ومن ناحية أخرى وفي نفس الوقت يجب أن يشعر الطلاب بأنهم عناصر مفيدة تعتمد عليهم حتى وهم طلاب . فتنظم لهم أوقات من العمل خارج الجامعة وتنظم لهم رحلات داخل البلاد ، والعيش أياماً مع أفراد الشعب في مزارعه ومصانعه ، ويطلعون عليه كيف يعيش حياته اليومية وكيف يمارس عاداته في الخصومات والزواج والعبادات وتربية الأطفال والحيوان ، كيف يعالج بؤسه ويعيش جهالته وأميته ، حتى تدخل الحياة الوطنية بكل جزئياتها في فكر الطالب وتصبح عنصراً من ثقافته يفكر فيها وهو يطالع الكتب ويمارس الامتحانات ويناقش الأساتذة في قاعة الدرس ، وهي منقوشة في مخيلته .

ان هذا هو ما أتصوره التكوين الوطني للطالب الجزائري . فإذا عمر وقته في الجامعة بالمواد الوطنية الجزائرية والعربية ، وعمر وقته خارج الجامعة بالثقافة العملية في صميم الشعب ، عندئذ سيكون الطالب جزءاً حقيقياً من الشعب ولكنه جزء ايجابي يؤثر ويعدل ويعمل على تكييف ظروف الشعب واخضاعها لحاجاته وأهدافه . وتلك هي رسالة المثقف في النهاية .

ان كل هذه القضايا يجري فيها النقاش الشفهي طولاً وعرضاً بين الطلاب وبين الأساتذة . وذلك دليل على أن الجزائر أصبحت تعي مشاكلها وتفكر في حلها حلا صحيحاً .

والمناقشة الشفهية والخطب لا يمكن أن تبقى إلى الأبد كذلك . انها لا بد أن

تدخل يوماً ـ وشيئاً فشيئاً ـ مجال التطبيق . وقد بدأ التطبيق نفسه في الخدمة الوطنية مستفيداً من تجارب الخطأ والصواب . وهذا التطبيق تعترضه اليوم ـ كما تعترض التعريب والاتجاهات الاشتراكية العامة في البلاد ـ معارضات متنوعة سلبية وفعلية ، وفيها ما هو عن حسن نية أو خبثها ، ولكنها في الحالتين لا يمكن إلا أن تفتح أعين الشعب وتعينه على تمحيص المشاكل الحقيقية والمشاكل المزيفة ، فلا تضيع جهودنا في المزيف ونهمل الحقيقي .

ان كل هذا العمل الذي نقبل عليه يتطلب شعوراً بالمسؤولية من جانب الطلاب ومن جانب الأساتذة . وقد بدأ هذا الشعور يتكون لديهم بفضل الاهتمام المتزايد الذي تبديه سلطة البلاد السياسية بهذا الجانب الحيوي من قضايا الوطن . ولكن المضي في طريق النجاح إلى النهاية يتطلب سياسة عملية ، أعني تخطيطاً مدروساً ، وتعييناً للمسؤولية وتحديداً لها ، وتتبعاً لسير هذه الخطة ومحاسبة على تطبيقها ، محاسبة دورية مسترسلة يتولاها مسؤول أعلى وتتفرع هذه المسؤولية في درجات السلم بكل تحديد ووضوح . ويكون الشعار المطبق في هذه المتابعة هو الجزاء والمحاسبة : المحاسبة على السلوك وعلى الانتاج . والمحاسبة معناها العقاب الصارم ، والتشجيع النزيه . التشجيع على الانتاج والنجاح بالنسبة للممتازين من الطلاب ومن الأساتذة والاقلاع نهائياً عن السياسة الحالية المهملة للقيم والتي تسوي بين الناجح والفاشل والصالح والطالح والمنتج والكسول ، والشاعر بمسؤوليته ومن لا يشعر بها. إن هذه السياسة ان جاز أن نسميها كذلك يجب أن يوضع لها حد . اننا ندعو الناس إلى أهداف غالية الثمن ، وهي وإن كانت في صالحهم وفي صالح الوطن إلا أنهم لا يستطيعون أن يحققوها بدافع الضمير وحده أو الشعور الوطني أو الأخلاقي .

وأخيراً نقطة لا بد منها للنجاح ، وهي ان هذه السياسة ـ سياسة المحاسبة ـ التي ندعو إليها يجب أن لا تقتصر على قطاع الجامعة والشباب وحدهم . ان الجامعة في النهاية ستكون قطعة من الوطن ولن تبقى جزيرة في بحر من الفراغ . سياسة المحاسبة هذه يجب أن تطبق في كل قطاعات الوطن كما تطبق في الجيش . وهذا هو الفرق

بين الديموقراطية البورجوازية التي ننده بها ونسلكها وبين الديموقراطيات الثورية التي ندعو إليها ولا نطبقها .

قال ابن خلدون ان المجتمعات ترغب في الخير ، ولكنها لا تتبعه إلا إذا أكرهت عليه . ولسنا نعرف شخصاً عرّفنا بمساوئنا ومحاسننا كما عرفنا ابن خلدون .

المشكلة الحقيقية

مشكلة الطلبة عندنا ليست مشكلة وحيدة في العالم ، فهي قائمة عند أجوارنا في تونس والمغرب من العالم الثالث ، وهي قائمة في تشيكوسلوفاكيا وبولونيا من العالم الاشتراكي ، وهي قائمة في ايطاليا وألمانيا وأسبانيا وأميركا وفرنسا وبلجيكا من العالم الرأسمالي . بعبارة أخرى هي مشكلة الأجيال الصاعدة مع الأجيال القائمة مهما كانت النظم السياسية والاجتماعية التي يواجهها هؤلاء الطلبة في بلدانهم ، أو تواجهها هذه الأقطار مع طلبة العلم فيها .

ومما لا شك فيه أن كل بلد تأخذ فيه هذه المشكلة طابعاً خاصاً وتعتمل فيها أسباب معينة قريبة وبعيدة ، وترنو من ورائه الحركة إلى هدف يختلف كثيراً أو قليلاً عن أهداف الحركات الأخرى .

ونحن في الجزائر لا نشذ عن القاعدة العامة ، ولكن المشكلة عندنا تأخذ طابعاً خاصاً جداً . ذلك أول ما نلاحظه هو أن المشكلة عندنا ليست مشكلة الطلبة بقدر ما هي مشكلة الجامعة ، بل هي ليست مشكلة الجامعة بقدر ما هي مشكلة الوضع الثقافي في بلادنا ، إن لم تمتد إلى الوضع الذهني العام وما يزدحم فيه من متناقضات . ومن ثم كانت المشكلة معقدة ذات رؤوس متعددة وعروق بعيدة في أغوار التاريخ .

هي أولاً مشكلة الجامعة ، لأن الجامعة عندنا ليست ، أو هي لم تصبح بعد ، جامعة جزائرية قومية ، انها ما تزال جامعة أجنبية في روحها وقوانينها ومواد دراستها ومثلها الأعلى الذي ترنو إلى تحقيقه ، وفي بعدها عن حقيقة الشعب الذي تعيش فيه . انها جامعة أوربية متقدمة راقية خيالية غير واقعية ، منقطعة انقطاعاً تاماً عن جامعة بلادها وواقعها الحضاري . هي جامعة أغلب أساتذتها من الفرنسيين وممن تكونوا بعقلية فرنسية ، مثلهم الأعلى الوحيد الذي يعرفونه هو تطوير الدراسة في الجامعات الفرنسية الأخرى ، وهي المواد العلمية والثقافية العامة التي كانت تدرس عندنا في العهد الفرنسي وما زالت . وعندما يجري البحث في أساليب تطويرها من الناحية العلمية أو الإدارية ، يجري هذا البحث على أساس المقارنة بما هو موجود ، أو ما هو مقترح في فرنسا .

ولهذه الظاهرة نتائج ليست كلها سلبية ، فمن نتائجها الايجابية أنها تضع أمامها مثلاً أعلى ليس مأخوذاً من وضعية القرون الوسطى الراكدة عندنا ، وليست مقتبسة من أوضاع العالم المتخلف في عصرنا ، وإنما نحن فيها طموحون جريئون لا نقتنع بالسهل المنبسط وإنما نروم الصعب الممتنع المتمثل في الواقع الأوربي .

ولكن الناحية السلبية من هذه النتائج ، هي أننا نتوهم بأننا لسنا من العالم المتخلف فعلاً ، ولا نحن في حاجة إلى مراعاة وضعنا الحضاري العام الذي ما زال يتسم بطابع القرون الوسطى . ان طموحنا انقلب إلى غرور ، وأحلامنا أصبحت واقعاً ، ولكنه واقع مزيف ، فانقطعنا عن ماضينا وحاضرنا في نفس الوقت ، وبقينا معلقين بين الأرض والسماء وعجزنا عن تأدية رسالتنا نحو الوطن ونحو مثلنا الشعبية وتاريخنا جميعاً . إن أغلب دراستنا تتسم بطابع التعقيد والغموض والغلو في الاختصاص على الطريقة الفرنسية دون مراعاة لوضع طلبتنا الذين لم يعودوا فرنسيين كما كانوا في العهد الاستعماري ، وإنما أصبحوا من أبناء الشعب الجزائري المتخلف ، ومن ثم لم نعد نفيدهم ببضاعة علمية أو ثقافية واضحة مبسطة تتمشى مع امكانياتهم الذهنية التي لم يهيئها وسط عائلي أو اجتماعي أو حتى دراسي ثانوي لتحمل أعباء ثقافة جامعية على الطريقة الفرنسية المعقدة الشديدة التخصص . وقد بلغ بنا التشبث بالمثل الأعلى

الفرنسي إلى درجة أصبحنا معها نفضل العيش في عالم من الذهنيات لمجرد كونها تربطنا بالواقع الفرنسي البعيد أكثر مما تربطنا بالواقع الجزائري القريب .

على أن تشبثنا بالواقع الفرنسي لا يرجع إلى كونه فرنسياً ، بل لأنه يمثل في نظرنا واقع العالم الراقي ، ولأنه أقرب الينا من غيره بفضل عامل اللغة .

هذا من ناحية مشكلة الجامعة وسنعود اليها . أما مشكلة الوضع الثقافي الشاذ في بلادنا فهو يتمثل في الاطارات العليا والمتوسطة التي تسير البلاد في مكاتب الوزارات والادارات المنبثة في كل أنحاء البلاد وفي مختلف ميادينها ومتنوع مستوياتها كل هذه الاطارات ـ باستثناء قلة قليلة منها في وزارة التربية والأوقاف والمساجد والمدارس الابتدائية ـ هي من صنع أوربي أو فرنسي لا تفكر في أسلوب عمل اداري إلا من خلال القوالب الفرنسية ، ولا تسن قانوناً أو تتخذَ اجراء إلا بالاعتماد على نص فرنسي أو بالبحث « كيف يفعل الفرنسيون في هذه المشكلة ؟ » كل ذلك يفكرونه بذهنية فرنسية ويعبرون عنه بلغة فرنسية ، ويدفعونه إلى الشعب بلغة وروح فرنسية ناسين تماماً أنهم لم يعودوا موظفين في ادارة فرنسية تحكم فيهم من فوق ، وإنما هم أصبحوا يعملون في اطار دولة جزائرية تخلصت من ربقة السيطرة الفرنسية وأصبح ميدان عملها ليس هو اخضاع الشعب وارهاقه ، بل توجيهه وتربيته وتكوينه وإعانته .

وهذه الظاهرة أيضاً ليست كل نتائجها سلبية . فمن نواحيها الايجابية هي المحافظة على مستوى راق في حياتنا الإدارية والقانونية ، بحيث تعتبر بلادنا من هذه الناحية ملحقة بالعالم المتقدم أكثر من ارتباطها بالعالم المتخلف . ولكن هل هذا الرقي في القوانين والرسوم والأوراق يعكس بأمانة وصدق رقي شعبنا في واقعه الاجتماعي والحضاري ؟ ان البعد بين واقعنا الإداري وواقعنا الشعبي لا يجادل فيه أحد . إن واقعنا الإداري واقع أوربي في القرن العشرين ، وواقعنا الشعبي واقع منحط لم يخرج عن القرون الوسطى إلا قليلاً وفي ميادين محصورة لا تتجاوز الميدان السياسي . ولكن اطاراتنا لا تكاد تشعر بشيء من هذا التناقض والاختلال وهي كاطارات الجامعة

عندنا لا ترنو إلا إلى المقارنة بين وضعها ومستواها ، ووضع الاطارات الأوربية ومستواها ، ولا تقارن لحظة بين مجتمعها الذي تعيش فيه والمجتمع الأوربي الذي تتطلع إلى اطاراته وتتشبه بها . ان اطاراتنا من هذه الناحية سمكة تعيش في غير مائها . كنت يوماً أتحدث مع واحد من هذه الاطارات الكثيرة ، لا أستطيع أن أتهمه في وطنيته الماضية أو الحاضرة ، ولا في اخلاصه لقضية الشعب الذي ضحى من أجله بالكثير . فقال لي : « إن اطاراتنا الجزائرية أرقى بكثير من هذه الإطارات التي نستوردها من الخارج ، وخاصة في ميدان التعليم والطب والإدارة العامة والحقوق . وليس لأن هذه الدولة أو تلك تفوقنا في بعض الميادين ، هو الذي يجعلنا في حاجة إليها في كل الميادين » .

بعبارة أخرى هذه الإطارات عندنا نفكر باخلاص عن طريق المقارنة بين وضعها هي منعزلة عن وضعية الشعب ، وبين وضع الاطارات الأوربية الراقية ملتصقة ـ هذه ـ بشعبها ، دون أن تلاحظ هذه الجزئية الخطيرة .

لقد حاولت أن أفهم محدثي بأن اطاراتنا قد تكون أرقى . ولكن هذه هي الكارثة ، أو على الأقل المشكلة : الإطارات التي نستعيرها إذا كانت أقل قيمة فنية من اطاراتنا فهي بسبب ذلك أقرب إلى مستوى شعبها ، وبذلك استطاعت أن تخدمه وترقيه ، ثم إن شعبها أقرب إليها من حيث المستوى الحضاري فاستطاع أن يستفيد منها ويأخذ عنها . في حين أن الأمر عندنا يتميز من ناحية « برقي » الاطارات ومن ناحية أخرى بانحطاط المستوى المدني أو الحضاري للمجتمع . فكانت القطيعة وكانت الكارثة . ونحن راضون بهذا الوضع بل نفتخر به لأننا في مقارنتنا نهمل « المحتوى » ونحتفظ بالإطار الذي يحيط به أي بالإطار الفارغ الذي لا يؤثر في محتواه ولا يتأثر به .

شيء من التفصيل أو بعض الأمثلة : خذ مصوراً أو رساماً ، تستطيع مقارنة لوحاته الزيتية بأي لوحات تجدها في معارض باريس أو لندن أو براغ . ولكن لا تهمل المستهلك ، هل يوجد عندنا الجمهور الذي يتحسس هذا الفن أو يشعر أنه

يعبر عن حاجة نفسية أو فنية من حاجاته ويحس بالتلاحم معه ، على نحو ما يقع بين الرسام الأوربي ومجتمعه ؟ ان المصور عندنا لا يشعر بهذا الفرق . ان المهم عنده هو أن لا يقل قيمة فنية و « موضة » عصرية عن الفنان الأوربي ، وما وراء ذلك لا يهمه . لهذا فهو لا يعتني بالرسم الواقعي الذي يصور فقر مجتمعه وعري سمائه ، وقحط أرضه ، ولا يصور الوجه الممتقع والاسمال البالية ونظرة الاستسلام للقضاء والقدر التي تملأ وجوه مجتمعنا .

لي قريب من هذا الطراز من الرسامين أقام عدة معارض في أوربا ونال فيها نجاحاً عظيماً . طلبت منه مرة ـ في إحدى زياراته القليلة لنا ـ أن يرسم لي وجه فلاح في أرض قاحلة فلم يستطيع أن يعطي عن فكرة الرسم عشرة في المائة . فطلبت إليه أن يصور لي موجة البحر الزرقاء وهي متمردة عاتية ترتطم بالصخر فلم يستطع ـ بعد ثلاثة أيام من المحاولة ـ أن يعبر عن حركة الموج . وكان إلى ذلك يعرض علي قصاصات من أقوال الصحف الأوربية في معارضه ويشرح لي الرسوم الرمزية التي أعجب بها الجمهور الأوربي لأنني لا أفهمها فضلاً عن أن يفهمها الجمهور عندنا .

إلى أي حد نستطيع أن نسمي هذه العناصر من المثقفين أنها اطارات للوطن تخدم ذوقه الفني وتكوّن عاطفته الجمالية ؟

وقل مثل ذلك في الطبيب الذي يدرس آخر تطورات هذا العلاج أو ذاك ، وهو مستعد لأن يلقي لك في ذلك محاضرة قيمة ولكن لا يفهمها أحد لأن الناس في مجتمعه ما زالوا يجهلون المبادى الأولية للصحة العامة ، ولا يعرفون مبلغ ما يحتاجه الجسم من الأغذية ، ولم يرتقوا بعد إلى الاهتمام بآخر ما توصل إليه الطب الحديث من زرع للقلب أو الرئة .

بل قل مثل ذلك في الاذاعة والتليفزيون التي تهتم بعرض هذه المواضيع الراقية والتي لا يكاد يستفيد منها أحد ، ولا تشعر بالحاجة إلى تعليم الناس البسطاء المبادئ الأولية للصحة والوقاء والتغذية ، لأن اطاراتنا في هذه المؤسسة الوطنية تقيس هي أيضاً مبلغ رقي المؤسسة بما تعرضه مثيلاتها في أوربا لا بما تستطيع هي افادته لمجتمعها

الخاص بما لديها من وسائل . خذ مثلاً آخر من الاطارات التي تسن لنا قوانين الضرائب وما تفرضه على الشعب من أوراق معقدة لا يستطيع أن يضطلع بتعميرها إلا اختصاصيون لا وجود لهم في بلادنا . لماذا ؟ لأن هذه الاطارات ـ وهي تسن القوانين ـ لا تضع أمامها حالة الشعب الأمي بل تضع أمامها القوانين الأوربية وتنقلها بكل سهولة وعدم اكتراث .

بعض النتائج لهذا الوضع الغريب : ان أصبح للشعب وسائله الخاصة في التسلية ، وفي العلاج وفي التقاليد والعادات وفي المفاهيم والتصرف والعمل والسعي . وراح من نسميهم باطارات الأمة يعيشون بمعزل عنها في كل شيء .

فللشعب أدبه وخرافاته ووسائل أخباره ، ولباسه ومظاهر زينته وأفراحه ، وللإطارات شيء آخر من كل ذلك يختلف تماماً عما عند الشعب . هما أمتان أو مجتمعان أحدهما « راق » لا يفصله عن أوربا غير الوضع الجغرافي ، والآخر « متخلف » يعيش مع اطاراته في الزمن المادي لا في الزمن الحضاري أو العمر العقلي .

ودور الجامعة هو أن تكون مخبراً تحلل فيه هذه الأوضاع الاجتماعية التي تعيش فيها البلاد . أي أن تدرس تاريخ هذه البلاد على حقيقته وتدرس وضعها الجغرافي الإنساني ، وتدرس تقاليدها وعاداتها وتراثها المعنوي والمادي ، وتقيم احصائيات علمية لكل ما فيها من عناصر ايجابية وسلبية ، وتكون هي مصدر المعرفة الصحيحة لكل المعلومات المتعلقة بحياة البلاد . ويكي تقوم الجامعة بهذه المهمة يجب أن تبدأ بثورة فكرية تقطع بها صلتها بالماضي الاستعماري الذي كان يحجبها عن الوطن وتقيم معالم عهد جديد تجعل فيه نصب عينها هدفاً أولاً يجب أن هي مصدر المعرفة الصحيحة لكل المعلومات المتعلقة بحياة البلاد . ولكي تقوم الجامعة بهذه المهمة يجب أن تبدأ بثورة فكرية تقطع بها صلتها بالماضي الاستعماري الذي كان يحجبها عن الوطن وتقيم معالم عهد جديد تجعل فيه نصب عينها هدفاً أولاً يجب أن يتحقق قبل غيره ، وهو اكتشاف حقيقتنا ومعرفة أنفسنا وبلادنا وحضارتها ـ مهما

كانت هزيلة ـ وبناء صرح معرفة جديد تستغل وسائل العلم الحديث لمعرفة التراث القديم وسن الطريق الأصيل لمستقبل جديد على أساسه . بعبارة مختصرة رسالة الجامعة الطبيعية هي وظيفة العلم الحقيقي ، وظيفة التحليل والتركيب : تحليل أوضاعنا وتركيبها من جديد .

إننا كما عدنا إلى الأصل الصحيح ـ أي إلى واقع الشعب ـ في المجالس البلدية فأعطتنا أضواء كاشفة أنارت لنا طريق العمل في الميدان الإداري والحكومي ، كذلك أعتقد أن العودة إلى هذا الأصل في ميدان علاقة الحزب والمنظمات الوطنية بالجماهير الشعبية هي التي تبدد سحب الحياة المصطنعة التي تعيشها هذه المنظمات مع الشعب . وأعتقد أيضاً أن هذه العودة لا بد منها في الحياة الثقافية وكل مؤسساتها ـ وفي مقدمتها مؤسسة الجامعة ، والإذاعة والتليفزيون ، والمسرح ، والفنون التصويرية ، والأدبية الناشئة في بلادنا ، وأن تجند كل هذه الأجهزة لاجتياز الفواصل المصطنعة التي تقف بينها وبين واقع الشعب ، وتندمج بمشاكل الوطن وتعالج متناقضاته ، وفي الجامعة بالخصوص يبدو لي أنه لا مفر لنا من أن نولي لهذه القضايا من البحث والتحليل والدرس ما نوليه للمواد الأجنبية أو ما كان يسميه العرب بالعلوم الدخيلة . ان هناك عدم توازن واضح لا يبرره شيء ـ في الجامعة ـ بين عنايتنا وحرصنا الشديد على كل ما هوأجنبي ، وبين أهمالنا لكل ما هو وطني وقومي وشعبي . وأعتقد أن هذا الاختلال في التوازن له دخل كبير فيما تعانيه الحياة الثقافية عامة من شرور وشذوذ وعقم . اننا لا نريد أن ننزل إلى أرضنا حرصاً منا على أن نبقى في سماء الآخرين . اننا نفضل فتات الأجنبي لأنه جاهز على أن نخدم أرضنا البكر ونطلع منها غرسنا وثمارنا لأن الغرس يتطلب منا عملاً وجهداً . اننا نفضل أن نسير في شوارع غيرنا لأنها معبدة ومريحة ، على أن نكتشف مجاهل أنفسنا واحراش أرضنا ومشاكل شعبنا . وهذا الموقف منا ـ ويجب أن نعترف بكل شجاعة ـ أبعد ما يكون عن الروح العلمية التي ندعيها ، وأبعد ما يكون عن الاشتراكية التي ننادي بها ، وعن الثورية التي نتبجح بها .

إن نفسية السهولة هذه هي التي طغت على الجامعة فجعلت المدرسين يبذلون

أقل جهد في العناية بطلابهم ، وأقل من القليل في العناية ببحث تراثهم الوطني . ومن ناحية أخرى هي التي جعلت الطلاب مهيئين ـ كالأطفال ـ لكل من يبتسم لهم من الأجانب ويدعوهم لحفلة ساهرة فينقادون لإشاراته المغناطيسية ويتخلون عن كل قيمهم الوطنية ومثلهم الشعبية الأصيلة .

هذا هو مشكل الجامعة الحقيقي في جذوره وأعماقه . وذلك هو طريق علاجه الطويل الذي لا مفر منه .

الوجه الآخر للمشكلة

تحدثت ـ بمناسبة مشكل الجامعة ـ عن انقطاع اطارات البلاد عن واقعها الشعبي ، ومن بينها ، أو في صميمها اطارات الجامعة ، وخرجت بنتيجة أن هذا الإنقطاع الذهني والحضاري العميق ترجع إليه كل الأسباب الطافية السطحية التي تغذي مشكلاتنا الثقافية .

ومن حسن الصدف أن ظهرت بعد مشكل الجامعة قضايا جديدة ، سأرجع إليها بعد قليل أتاحت لنا النظر في الوجه الآخر من هذه المشكلة الذهنية . الوجه الأول ، كما رأينا هو أن الإطارات التي تسير البلاد في الإدارات والحزب والمنظمات الشعبية ، باستثناء قلة قليلة في وزارة أو وزارتين لا تكتفي فقط باستعمال الفرنسية كأداة للتخاطب مع شعب لا يفهم هذه اللغة ، بل لا تقرأ حساباً لأمية الشعب العقلية وتأخره الذهني في كل ما تسنه له من القوانين أو تعامله به من شكليات . وان نتيجة هذا الإنقطاع صيرت الإطارات تعيش في عالم ، والشعب في عالم آخر ، لا يجمع بينهما إلا اطار الزمن المادي والمكان الجغرافي . ومن هنا سننطلق لدراسة الوجه الآخر للمشكلة : وهو أن وليس من قبيل الصدفة أن نجد العناصر ذات

التكوين الشعبي والطـابع الوطني ، هي العناصر الأكثر التصاقاً بواقع أمتهـا . وأعني بهم طلاب الأقسام العربية الناشئة في الجامعة ، وأعني أيضاً المدرسين للمواد العربية فيها أو في الثانويات ، وأعني أيضاً كل من له علاقة لغوية أو سياسية أو اجتماعية بالواقع القومي أو الواقع الوطني أو الشعبي وأعني به الواقع الجزائري .

هذا النوع الثاني من اطارات البلاد يتسم أولاً ، أو ما يزال كذلك ، بطابع الندرة والقلة إذا قيس بالعدد الكبير من اطارات النوع الأول . ومن ثم فان المسؤولية الملقاة عليه في هذا الانقطاع لا تحمل طابع الكارثة الذي يحمله النوع الأول . ولكنه في مقابل ذلك يحمل مسؤولية أثقل لأنه مدعو إلى التكاثر في المستقبل ، ولأنه بالخصوص مدعو لأن يتولى مهمة تكوين الإطارات الطبيعية ذات الطابع الوطني الشعبي في المستقبل ، ولأن الإسراع بتكوين هذه الإطارات من حيث الزمن ، والنجاح في تكوينها من حيث النوع والصلاح والانسجام مع واقعنا الشعبي ، كل ذلك يتوقف على اطارات اليوم ، وعليهم وحدهم ، مهما أكثرنا اليوم من الضجة في المطالبة بالتعريب كما لو كان المكلفون بالتعريب ، أناساً آخرين غيرنا ، وأعني بالتعريب هنا معناه الواسع وهو تكوين الإطارات المعربة للمستقبل .

هذه هي مهمة الإطارات المعربة ، ولا أدري إلى أي حد هم يشعرون بفداحة وزنها على كواهلهم ، ولا أدري إذا كانوا يشعرون بها بوضوح وهم يؤدونها في المدارس ، والصحافة والتأليف والمسرح والإذاعة والتليفزيون والجامعة ، أم أنهم يضطلعون بها بشكل آلي روتيني لا يحاسبون أنفسهم بأنفسهم عن مبلغ نجاحهم أو فشلهم فيه . هذه مسألة ضمير وحيوية ذهن واخلاص أخلاقي ، والزمن هو وحده الكفيل بأن يعطينا الجواب النهائي على السؤال .

ومع ذلك فان هذا التأجيل للجواب لا يجيز لنا أن لا نحاسب أنفسنا منذ اليوم على النتائج التي تحصلنا عليها حتى الآن ، والتي تصلح أن تكون علامة على قيمة الجواب النهائي .

ولا ننسى أن مقياس الحساب مع أنفسنا هو نفسه الذي حاسبنا به اطارات النوع

الأول ، وهو مدى صلاحيتنا لافادة الشعب ، أي الانسجام مع وضعيته الذهنية وسائل تلاقينا معه فيها ، وهي اللغة في المدرسة والصحافة والمسرح والكتاب والإذاعة إلى آخره . أو بعبارة أخرى : إذا كانت اطارات هذا النوع منفصلة عن الشعب في روحها وفي الأداة الذهنية للترابط معه وهي اللغة ، فهل معنى ذلك أن اطارات النوع الثاني أحسن حظاً في هذا المجال ؟ أم أنهم هم أيضاً ، ولو بشكل آخر ، لا يكونون انفصالاً عن الشعب ذهنياً ولغوياً ، عن اطارات النوع الأول ؟

بعض الأمثلة : ١ ـ دعيت إلى القاء محاضرة في قسنطينة ، كان موضوعها ذا صلة بالفلسفة الاجتماعية ، بذلت في تحبيرها أكثر من أسبوعين وعند الالقاء حاولت قبل كل شيء أن أبسط للمستمعين معنى الفلسفة والمشاكل الفلسفية ، كما لو كانت أعتذر عن الخوض في موضوع فلسفي أمام جمهور لم يتعود عليه ، أو أن شيئت كما لو كنت أحاول أن أجرئهم على الاقبال على هذا النوع من المشاكل ، وأن لا يهابوها ، وضربت لهم أمثلة على جهود « وليام جيمس » في أميركا ، والمناضلين الماركسيين الذين بسطوا المواضيع الفلسفية الاجتماعية لطوائف كثيرة من الطبقات الشعبية وكيف نجحوا في ذلك ، وتبين أن جمهور المستمعين في هذين البلدين ، روسيا وأميركا ، يستجيب وينتفع إلى أقصى حد من هذه المواضيع . ولكني لاحظت أني عندما أتحدث مباشرة وبلغة تلقائية ، أعني بلغة مرتجلة ، تتجه إلي الأنظار ويسود السكوت ، ويطغى التتبع والاهتمام على القاعة الغاصة . وعندما أرجع إلى أوراقي لأقرأ منها نصاً استشهد به قراءة ، سرعان ما يتلاشى الانتباه ويتراخى التتبع . وبعد محاولتين أو ثلاث ، اقلعت عن القراءة نهائياً ، وصرت حتى عندما أحتاج للاستشهاد بنص أكتفي بفكرته ، وأعبر عنه باللهجة التلقائية المبسطة التي لا تتقيد بالاعراب . وكانت النتيجة أن ضحيت بسيبويه وبالاعراب ، مقابل أفكار شعرت أن مستمعي فهموها أحسن وتجاوبوا معها بحماس أكثر .

٢ – وهذه بنت في السنة الرابعة من التعليم الابتدائي ، تتناول درساً في التربية الوطنية جاء فية ما يلي : « المواطنون هم الجماعة التي تسكن وطناً واحداً ، وتخضع لنظام واحد في المعيشة والسياسة ، فأنت مواطنة في وحدة بشرية هي الأمة » . أما

مستواها في اللغة فتأخذه من التمرين الآتي : « أشرقت : فعل ماضي ، الشمس مفعول به » ويكتب لها المعلم أو المعلمة تصحيحاً للخطأ ما يلي : « الشمس فاعل مرفوع بالضمة » . وتأتي البنت لتسألني : « ما معنى المواطنة وما معنى الأمة ؟ وما معنى السياسة والوحدة البشرية » ؟ ويجرني الشرح إلى ذكر كلمة « الدولة » فتقول لي : « ما معنى الدولة ؟ » . وبعد ساعة من الشرح انصرفت عني وهي لا تتصور عشرين في المائة من معاني كل هذه الكلمات والمفاهيم . ان عمرها العقلي نفسه لم ينضج لادراك المفاهيم المجردة . وهذا ما لم يدركه المعلم أو المعلمة . وهو أن الطفل الصغير في التعليم الابتدائي لا يجوز أن تعطى له إلا الكلمات المحسوسة .

٣ – وقع حادث ثقافي نادر عندنا ، وأثار ضجة كبيرة ، وهو تمثيل مسرحية « الجنة المحاصرة » أو المطوقة التي لم يحضرها من مثلت لأجلهم على ما يظهر ، وهم المثقفون بالعربية ، وهذا يذكرني – عرضاً – بالحفلة الخيرية التي تخصص لنوع معين من المتفرجين ، أو جماعة قليلة ، بل أقلية ، من الناس لا يدخلون في الجمهور الأكبر الذي تمثل له المسرحية باللغة « الطبيعية » الأصيلة للرواية ، وهي اللغة الفرنسية . والضجة التي ثارت تتعلق بعدم حضور المتفرجين بالعربية لعدم اهتمامهم ، ولأنهم ينادون بالتعريب ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً لتنشيط التعريب أو تشجيعه .

والذي يبدو لي أن هذه الحادثة لا ينبغي أن نعالجها منعزلة عن بقية الظواهر التي أتيت بأمثلة عنها أعلاه . مشكلة هذه المسرحية ليست الأولى ، ولا الوحيدة في عالم التمثيل العربي . لقد جرت منذ عشرات السنين في مصر وسوريا وتونس وأقطار أخرى عربية . وأثارت مناقشات طويلة في الصحافة عن صلاحية الفصحى للمسرح ، أم أن العامية أصلح منها ، باعتبار أن خشبة المسرح هي مسرح الحياة بصورة مضيقة . واللغة التي تعبر عن حوادث الناس في الحياة هي اللغة العامية لا الفصحى ، وثار المناصرون للفصحى يتهمون « العاميين » بنقص في شعورهم القومي وتنكرهم « لأجمل لغة في العالم » ، ولكن رجال المسرح ثم السينما من بعد لاذوا بالسكوت عن المناقشة واكتفوا فقط بتمثيل مسرحياتهم وأفلامهم بالعامية ورضي دعاة الفصحى

بهذا الحل : وهو أن تموت العربية في المسرح والسينما عملياً ، وتتغلب عليها العامية كما تغلبت عليها في مسرح الحياة ، ولكن على شرط واحد فقط ، وهو أن نفعل ذلك ولا نقوله . وأسدل الستار عن المناقشة . وراح المناصرون للفصحى يستمتعون بالعامية في المسرح والسينما كما يستمتع غيرهم من عباد الله دون أن يثيروا القضية من جديد ، لأنهم كانوا يتضايقون من الفصحى على المسرح كما يتضايق منها عباد الله الآخرون .

المشكلة إذن ليس فيها جديد ، إلا عنصر واحد ، وهو أنها وقعت عندنا في الجزائر متأخرة ببضع عشرات من السنين عن وقوعها في الأقطار العربية الأخرى التي تجاوزت اليوم هذه المشكلة ولم تعد تثير عندهم نقاشاً . أعني أن رجال المسرح عندنا لو كانوا ملمين بهذه المعلومات التاريخية لما أتعبوا أنفسهم في تمثيل « الجنة الحاصرة » باللغة الفصحى ، ثم هم لو مثلوها بالعامية لما كان لها هذا الطابع « الخيري » لجماعة الفقراء في الثقافة وهم أصحاب العربية ، ولقدموها للشعب كله الشعب الذي لم يفكر فيه أحد عندما مثلت هذه المسرحية بالفرنسية ، ولا عندما مثلت بالعربية . وهنا نصل إلى المشكلة العميقة : مشكلة العلاقة بين الشعب والمثقفين عامة ، أو مشكلة الإنتاج الثقافي والجمهور ، أو القطيعة الذهنية الشاملة بين الإطارات كلها العربية والفرنسية ، من جهة والجمهورأوالشعب من جهة ثانية .

لا يمكننا هنا أن ندخل في نقاش طويل عن مفهوم الشعبية في الإنتاج الثقافي : هل معناه أن نتحدث عن الشعب في انتاج رفيع ، ونحن نعرف أن هذا النوع من الإنتاج قد يبقى قراؤه أو مستمعوه أو المتفرجون عليه من طبقة مثقفة راقية الثقافة ويبقى الشعب محروماً منه ، وهذا الطراز يصدق على انتاج بالزاك ودستوفسكي وجوركي والجاحظ وتوفيق الحكيم ، أم يكون معناه أن ننزل بالمستوى الفني حتى يصبح في متناول الطبقات الشعبية ، ولو لم يعالج مشاكل هذه الطبقات من أنواع الخرافات والأساطير التي تزخر بها الآداب الشعبية في العالم كله ؟ ..

أعتقد أننا هنا نستطيع أن نستغني عن هذا النقاش ، ونبقى في الاطار الذى

رسمناه لأنفسنا بالأمثلة التي أتينا بها أعلاه : أي نستطيع أن نتناول أي موضوع ، ولو فلسفي ، ونبسطه للجمهور ونحببه إليه ونثير حماسه نحوه ، هذا هو المهم ، إننا عندما نثير قضية اللغة ومستواها هل يكون فصيحاً أم عامياً إنما نغفل عن الغاية ونهتم بالوسيلة ، اللغة وسيلة ، والأفكار أو التكوين أو التربية والتوجيه والتغذية العقلية والعاطفية الجمالية هي الهدف . وحسب هذا المقياس ، يجب أن أضحى بالتعابير الشعرية التي جاء بها نيتشه في الفلسفة وأبسطها في لغة تلقائية قد تكون عامية خالصة ، وقد تكون مزيجاً من العامية والفصحى . المهم هو أن أثير اهتمام السامع وأدخل إلى عقله شيئاً جديداً يتناسب على الأقل مع الوقت الذي ضحى به ليستمع إلي ، وأشجعه على أن يعود مرة أخرى إلى الاستماع وثالثة ورابعة .

وفي مثال المعلم مع تلميذته يمكن أن نطبق نفس المبدأ : وهو أن أبحث قبل كل شيء عن افادة الطفل ، وإثارة حماسه وترضية فضوله ، وبناء على ذلك أتجنب كل الأفكار وكل الكلمات ـ خصوصاً ـ التي لا توحي إلى ذهنه بصورة حسية مشوقة أو هامة . وبدل من أن أحدثه عن مفهوم المواطن والدولة والعائلة والوحدة البشرية ، والخير والشر والظلم والعدالة ، ونحو هذه المفاهيم المجردة التي نصحنا أفلاطون منذ أكثر من عشرين قرناً بأن لا نعلمها للطالب إلا بعد سن الثلاثين ، بدلاً من ذلك يجب أن أشخص له في صور مادية أفكاراً بسيطة تبدأ بالأم والأخوة والأصدقاء في المدرسة التي تمثل وحدة بشرية دون أن أتلفظ بالوحدة البشرية . وأتحدث له عن الفار ومفاسده ، والقط ومحاسنه ، دون أن أتلفظ بالخير والشر ، وأحدثه عن قساوة الذئب وشراسة طباعه ، ووداعة الضأن وسلامة طباعه ، دون أن أتلفظ بالعدل والظلم . إن هذا ما تحققه أفلام الأطفال وكتبهم وقصصهم ، وقد أصبحت هذه الطريقة منتشرة يصادفها المعلم في كل مكان فكيف لا يطبقها في معاملته لأطفاله ؟

وفي مثال المسرحية ، بدلاً من أن ينطق الممثل بالكلمات العربية بلهجة متكلفة مجهدة مزعجة ، مغرقة في الفصاحة كان يمكنه أن يحفظ دوره بالفصحى ، ولكن عند الإلقاء كان يستطيع ، مثل المحاضر أو المعلم ، أن يلقيها بلغة بسيطة لا تتقيد بالإعراب ولا تذكر الكلمات البعيدة عما يسمعه الشعب في حياته العادية ، ويصبح

المتفرج يعاني الشعور بالقيام بواجب لا شعور المستمع الملتذ بما يسمع ويرى ، إنه يصبح أقرب إلى المصلي في المسجد يستمع لخطبة الجمعة لا يفهم منها شيئاً بل لأنها جزء من الصلاة فقط ، والفرق بين الحالين هو أن الثاني له على الأقل شعور الأجر ، أما الأول فقد خسر الشعور بالمتعة ، والشعور بالأجر معاً . وهناك مثال آخر لم أشر إليه سابقاً ، ولكنه يندرج في السلسلة ، وهم اخواننا المذيعون الذين ينقلون الأدب القديم وأقوال الحكماء وأبيات الشعر ، ويلقونها أمام الميكروفون على مسامع الملايين من الأميين الذين لا يفهمون منها القليل ولا الكثير ، بل أعتقد أنها بعيدة حتى عن فهم من يقرؤونها أنفسهم ، بدلاً من أن يعطوا المعنى ويبلغوه إلى السامع بلغة عادية تلقائية مشوقة .

إن كل هذه الأصناف من المثقفين أو المنتجين يستطيعون ما لا يستطيعه الكاتب. أي أن العربيـــة تستطع لحد الآن ، وإلى أن تكون لنـــا الجرأة عـــلى تعديلهـــا أن تمكننا من التصرف فيها إلقاء فقط لا كتابة وقد استطاع اخواننا في الشرق أن أن يستغلوا هذه الإمكانية فيها إلى أقصى حد ، حتى محاضرات الجامعة تلقى بلغة ليست عامية وليست فصيحة أو هي عامية فصيحة معاً ، يستبسيغها العامي ، ولا ينفر منها المثقف . وإذا لاحظنا أن الجمهور في المشرق أقرب في لهجته ومفرداته اللغوية من الفصحى ولاحظنا من جهة أخرى أن الجمهور في المغرب أبعد في لهجته ومفرداته اللغوية من الفصحى ، تبين لنا أن هذه الطريقة نحن في حاجة إليها أكثر من المشرق . إلا أن تشددنا المالكي في الفقه يصاحبنا مثله في اللغة : نفضل أن لا نجرح النحاة في قبورهم ونقدس الاعراب ونتبجح في التراكيب غير الشائعة والمفردات الميتة ، كل ذلك على حساب افادة السامع بفكرة (يؤثث) بها – كما يقول التعبير الفرنسي – منزله العقلي الفارغ ، أو توجيه عاطفي يغني به ذوقه الجمالي البدائي . وأعتقد أن هذا الشذوذ عندنا راجع إلى عدم تمكننا من اللغة العربية نفسها ، وإلى جدتها علينا في الاستعمال على نطاق شعبي واسع ، في التعليم والمحاضرات والإذاعة والمسرح .

ولكن المشكلة على ما هي عليه لحد الآن بهذه الصورة صيرت الإطارات

العربية لا تختلف كثيراً عن الإطارات المتكونة بالفرنسية ، من حيث النتيجة أو الإفادة وهي عدم انسجامها مع الواقع الشعبي ، وعدم استفادة الشعب من امكانياتها الثقافية أو ما تعلمته في الكتب ، فصارت لا تعبر عن الشعب ولا تستوحي منه . الإتصال بين الطرفين منعدم في الاتجاهين ، لا نأخذ منه ولا نعطيه ، وعلى هذا يكون صديقي الأستاذ عبد المجيد مزيان على حق عندما رفع المداح الشعبي فوق منزلة الأديب الفصيح باعتباره متساوقاً مع المستوى الذهني للشعب في كلا الإتجاهين ، وإن كان هذا المستوى متعطلاً عن التقدم ، جامداً ، ولا ينطبق عليه قانون التطور ، مثله مثل كل الثروة الضخمة من الفنون الشعبية التي تعيش في متحف متحرك .

هذا هو الوجه الآخر من المشكلة ، مشكلة قطيعة الإطارات المثقفة عن جمهور الشعب ، سواء كانت اطارات عربية أو غيرها . ان الشعب يعيش غريباً عنا ، ونحن غرباء عنه ، وكلنا نحرص على المحافظة على المستوى الفكري أو الفني أو اللغوي على الخصوص ، ولو كان ذلك بثمن باهظ ، هو القطيعة الذهنية الشاملة بين أبناء وطن واحد . هو التضحية بالغاية في سبيل المحافظة على الوسيلة .

لقد قلت إن الإطارات المتكونة بالفرنسية ، وصلتها بالشعب بأنهما أمتان أو مجتمعان أحدهما « راق » لا يفصله عن أوربا غير الوضع الجغرافي ، والآخر « متخلف » يعيش مع اطاراته في الزمن المادي لا في الزمن الحضاري أو العمر العقلي .

فهل يكون الحكم على الإطارات العربية في هذه الزاوية مختلفاً كثيراً ؟ نعم . إنها أكثر التصاقاً بالشعب ولكن من حيث التخلف خصوصاً : أن الإطارات العربية هي أيضاً متخلفة بنوع آخر من التخلف ، وهو ليس اتقانها للغة الفصحى إلى درجة فصلتها عن الشعب ، بل هو عدم تمكنها من اللغة تمكناً يجعلها قادرة على التصرف في هذه اللغة بما يتلاءم مع أوضاعنا الجديدة التي تتطلب منا أن تصير العربية صالحة للاستعمال ، لا لقلة من الشعب كما كان الأمر في القرون الوسطى ، بل للأكثرية التي تتطلبها حاجة الجماهير في القرن العشرين . اننا ، أحببنا أم كرهنا ، نحن

الاقطاعيون الحقيقيون ، الذين يعيشون بامتيازات لا يريدون اشراك غيرهم فيها ، لأن هذا الاشراك يتطلب جهداً وتعباً وتحولاً عن الانسياق السهل مع ما وجدناه جاهزاً منذ الأجداد الأولين.

المعرفة والشعب

في ظرف بضعة أسابيع صدرت ثلاثة مراسيم متتالية يتعلق الأول باجبارية معرفة اللغة العربية بالنسبة للموظفين ابتداء من عام ١٩٧١ ، والثاني باجبارية الخدمة الوطنية أو المدنية ، والثالث باصلاح التعليم العالي .

ولا أدري إذا كان يوجد في ذهن المشرعين لهذه القرارات بهذا الشكل المتتالي منطق وحدة وترابط بينها ، أم أن الصدفة وحدها هي التي شاءت ذلك ، أم أن منطق التطور هو الذي يملي علينا تصرفاتنا دون أن نقصد نحن منه ترابطاً معيناً . ولكن الذي أدريه هو أن المؤرخ عندما يرجع لهذه القرارات في يوم من الأيام ويضعها في اطارها الزمني ، فإنه لا بد أن يهتدي ليس فقط إلى ترابط متين بينها ، بل سيجد بينها وحدة عضوية واضحة ومتكاملة :

— ١ —

إن الخط الذي تتلاقى فيه هذه العمليات الثلاث هو الشعب ، وهي لا تكون متكاملة وذات وحدة عضوية إلا في نطاق الشعب ، أعني الجماهير البعيدة ، أو

بالأحرى ، التي ظلت بعيدة عن عالم الثقافة وغذائها لا منذ العهد الاستعماري فقط ، بل منذ عهود الإنحطاط بكل أنواعه ، والاقطاعية بكل أشكالها ، والاستبداد بكل صوره .

لقد فهمت هذه الجماهير بسرعة وبصورة تلقائية أن تكليف الموظفين بمعرفة لغتهم الوطنية إنما الغرض منه تحقيق الانسجام المفقود بين هذه الجماهير وبين اطارات الدولة ، وأدركت أنها ستجد نفسها لأول مرة على لقاء طبيعي جنباً إلى جنب مع تلك الاطارات في الخط الأول لخوض معركة حقيقية وليست وهمية ، معركة تحقق لها المواطنة الصحيحة ، وتقضي نهائياً على تلك الفواصل النفسية المفتعلة التي ظلت تحجب عنها دائماً فهم حقوقها وواجباتها .

أما من ناحية الاطارات التي يتعلق بها الأمر فقد أدركت منه شيئاً آخر : وهو أن مسألة اللغة العربية كانت لحد الآن مسجلة في الدستور على أنها رسمية ، وكذلك في ميثاق الحزب أيضاً ، وأن ذلك لم يغير شيئاً من وضع هذه اللغة ، إذ بقيت طيلة سنوات رسمية على الورق ، وغير موجودة على أرض الواقع . أما في قرار ٢٦ أفريل ١٩٦٨ ، فان شيئاً جديداً قد غير هذا الوضع ، وهو أولاً : تحديد المدة التي يبدأ فيها العمل بهذا القرار ، وثانياً : ربط معرفة اللغة بالحصول على الوظيف أو الترقية في سلمه . ويمكن أن نسمي هذا العنصر الجديد بالروح العملية التي يمكننا معها الآن فقط أن نأمل أملاً جدياً في اعادة بطاقة المواطنة إلى لغتنا في أرضها – كما سماها أحد الأصدقاء الكتاب – والقضاء على نظام غربتها واغترابها . ومع ذلك فهل حلت المشكلة ؟ هذا ما سنعود إليه بعد حين .

– ٢ –

فيما يتصل بالخدمة الوطنية : بالرغم من أن تفاصيل التطبيق في هذه القضية ما تزال – لحد كتابة هذه الأسطر تحت قيد البحث ، فان مبدأها أيضاً لا نتصور له مسرحاً آخر للنشاط غير المسرح الشعبي . ان شبابنا في الوقت الحاضر ينقسم – قسمين رئيسيين – بنوع من التقسيم : الأول قسم يزاول تعلمه في المعاهد والكليات

أو في الوظيف والخدمات العامة . وقسم آخر عاطل بطال عقيم يجول الشوارع في المدن والقرى أو الفيافي القفرة في البوادي يضيع عمره في القلق والفساد والتعفن . وكلا القسمين يلتقيان في عدم التكوين السياسي والاهمال الاجتماعي وفي البحث عن الملذات كل قدر مستطاعه وما تيسر له من حلالها وحرامها . أي أنهما يلتقيان بالخصوص في الفراغ الذهني وانعدام مثل أعلى سياسي أو اجتماعي أو ثقافي يجندون فيه طاقتهم ويوجهون إليه حماسهم ويجدون فيه مصباً لمطامحهم .

وعندما يتوفر لهم الآن ـ بواسطة الخدمة الوطنية ـ مجال الاطلاع على أوضاعهم الحقيقية يكتشفون فيه مستواهم وقيمتهم ، فان تلك الطاقة المهدمة المفسدة ستتحول إلى طاقة بناء منتجة لنفسها ولمحيطها ولمستقبل أصحابها . ولكن كيف يكون ذلك ؟ هذا أيضاً ما سنعود إليه بعد حين .

ـ ٣ ـ

وأخيراً فيما يتصل باصلاح التعليم العالي لا أجدني مضطراً لاطالة التفصيل مرة أخرى في هذا الموضوع الذي أتاحت لنا مناسبات سابقة أن أفضنا حوله القول ، ولكن يمكن أن نكتفي هنا بتحليل لمبدئه الرئيسي ، وهو ينقسم بايجاز إلى نوعين : الأول قسم يجري باللغة الفرنسية في جميع الكليات باستثناء كلية الآداب ، وقسم آخر باللغة العربية في بعض الأقسام الناشئة من هذه الكلية . ولكن القسمين معاً يجريان بصورة تقليدية للماضي الاستعماري عندنا أو للحاضر الذي يجري في الأقطار العربية الشقيقة ، ولا أحد منها ـ لا في كلية الآداب ولا في الكليات الأخرى والمعاهد العالية ـ قد مسته نفحة من ريح التجديد والخلق والتوجه إلى دراسة الثروة الوطنية المادية أو البشرية ، إلى درجة أنك تستطيع أن تضع جامعتنا في أي مكان آخر من العالم فانها لن تجد نفسها أكثر غربة فيه عما هي هنا في الجزائر . انها تدرس كل شيء إلا ما يتصل بالمحيط الذي توجد فيه . وكل اصلاح مقترح لهذه الجامعة لا يقوم على مبدأ أساسي هو بحث الثروة الوطنية المادية والبشرية فانه قد يرتقي بالجامعة من كل الحيثيات التي نتخيلها ولكنه سيبقيها غريبة عن محيطها ، أو

سيبقيها عاجزة عن تخريج اطارات صالحة لتطور هذا المحيط . وسندخل الآن إلى موضوع هذا البحث وهو كيف يتم كل ذلك وكيف يكون أساسه الشعب ؟

– ٤ –

أعتقد أننا أفرطنا ، أو على الأقل ، أدينا الدور الأول في قضية التعريب كاملاً ، وهو دور الصخب العاطفي والجدل اللفظي والمناقشات المشحونة بالاتهامات والانفعال البدائي ، ولا اقول إن هذا الدور كان سلبياً كله فقد مكننا من تجنيد طاقتنا العاطفية التي لا بد منها لكل عمل انساني . ولكن الخطر الذي يجب أن نحترس منه هو أن نتعوده ويصبح غاية في ذاته ، ويصبح كل من هو صالح للعمل في هذا الميدان يشعر بأنه أدى واجبه كاملاً عندما يصيح أكثر من الآخر . وهو خطر يصبح شبيهاً بمعالجتنا لقضية فلسطين يتحول فيها « العمل » بمرور الزمن إلى « الكلمة » .

والطور الثاني الذي ينبغي أن ندخله فوراً ونخرج به من الطور الأول في قضية التعريب والعربية هو طور العمل . والعمل كما يقول الذرائعيون هو قبل كل شيء التفكير المنظم الواضح الذي يرتب مراحل العمل ويعين وسائله . والذي أراه في هذا الصدد هو أن نقسم العمل في هذا الميدان إلى قسمين متميزين وإن كانا متكاملين : الأول يتعلق بنشر اللغة وتعليمها وتعميمها في جميع الأوساط والمجالات والثاني هو البحث عن طريقة نيسر بها اللغة على الشعب وأبناء الشعب إلى أقصى حد تتحمله لغتنا من التيسير والاختصار والخفة والطواعية والحيوية .

وفيما يتصل بالعمل على نشر اللغة العربية في البلاد فان كل الاخوان الذين تيسر لهم أن يظهروا حماسهم لقضية التعريب ، وغيرهم ممن لم يكتبوا أو يحاضروا في الموضوع ولكنهم لا يقلون عن اخوانهم ايماناً بهذه القضية واخلاصاً لها ، يجب أن يدخلوا إلى أذهانهم قبل كل شيء أن التعريب في بلاد كبلادنا هو معركة يجب أن يقوموا بها هم لا غيرهم ، وهذا يعني أنه يجب علينا أن « ننظم » أنفسنا في وحدات أو تشكيلات تكون بمثابة الخلايا الحية التي تبث دماً جديداً في كياننا اللغوي . ومفهوم الخلايا في علم الحياة هو الحركة الدائمة ، لأن توقفها يعني موتها . هذه

التشكيلات والوحدات تنبث في أقرب محيطاتها من العائلة إلى الحي إلى المزرعة والمعمل والإدارة ، والمقهى والمسجد . ينظم كل عضو فيها ساعتين على الأقل من يومه في تعليم غيره . وأعتقد أن الجو الآن أصبح مناسباً لأن يقبل الناس على التعلم ، ولم يعد كما كان منذ ثلاث أو أربع سنوات عندما حاولنا أن ننظم دروساً لمقاومة الأمية وطلب إلى المتطوعين أن يسجلوا أسماءهم وعناوينهم في البلديات التابعين لها حتى يمكن استدعاءهم عندما تتم الترتيبات . وأذكر أني سجلت نفسي وبقيت أنتظر الدعوة إلى اليوم ! ان الناس لم يكونوا يشعرون بالحاجة المادية إلى تعلم لغتهم أو رفع الأمية عن أنفسهم .

هذا ما يجب أن نقوم به نحن كجنود في معركة التعريب . أما أسلحة المعركة : المحلات والأدوات وتنظيم أوقات الدرس فاعتقد أنه لا بد أن تشارك في تهيئتها معنا جميع السلطات التي يمسها الأمر بصورة مباشرة ، وهي وزارات التربية ، والداخلية ، والشؤون الاجتماعية ، وإدارة الوظيف العمومي والحزب والنقابات واتحادات المنظمات الجماهيرية إلى آخره ...

أعتقد أن مباشرة هذا العمل لن تكون فائدته مقتصرة على تعليم جماهيرنا الشعبية لغتها فقط . بل انها ستجعلنا نحن كمعلمين نضع أيدينا على مشاكل جديدة كنا نظن أنها ليست مشاكل لأننا لم نمارسها في الأوساط الشعبية ، وهي أن لغتنا ككل لغة حية يجب أن لا تبقى قواعدها وأسلوب تدريسها كما كانت منذ أن خلقت هذه القواعد . وسنلمس أيضاً أن لغتنا بالإضافة إلى قلة وسائلنا البشرية في تعليمها وإلى غربتها في بلادنا منذ أكثر من قرن تعودت فيه الأجيال المتلاحقة على اهمال لغتها واستبدالها بلغة أجنبية « تأتي بالخبز » ، بالإضافة إلى كل ذلك سنلمس عند التطبيق وخاصة عند الموظفين والمثقفين باللغة الفرنسية ، ان لغتنا تجد منافساً خطيراً ساعدته الظروف التاريخية والسياسية والثقافية على أن يكون مستجيباً أكثر من لغتنا ، وفي محيطنا على الأقل ، لمقتضيات الحياة اليومية الملحة التي تتصرف في حياة الناس ، وأعني بهذا المنافس الخطير اللغة الفرنسية طبعاً . وأن أقل ما يتطلبه منا اخلاصنا للعربية هو أن لا نبقيها في حالة « متخلف » أمام المنافس

المتطور . وستفطن أيضاً إلى أن وضعنا من هذه الوجهة يختلف عن وضع الأقطار العربية الأخرى التي ظلت فيها اللغة العربية بالرغم من كل شيء موجودة قائمة بالذات ، وعندما حصلت هذه البلاد على استقلالها وجدت اطارات تعرف لغتها ، ولم يبق لها إلا أن تقرر « رسمية » هذه اللغة مكان لغة المحتل السابق . ان الأقطار العربية والأقطار المتخلفة الأخرى في آسيا لم ينقطع فيها أبداً حبل لغتها التي يربطها بماضيها وبشعبها كما قطع عندنا في الجزائر . وهذا ما يجعل قضية التعريب عندنا قضية معركة شعبية وليست فقط قضية تقرير « رسمية » هذه اللغة حتى تصبح رسمية بالفعل . أضف إلى هذا أن طبيعة كفاحنا في الجزائر وأسلوب نضالنا كان دائماً يكتسي طابع المعارك الشعبية ، حتى أصبح اليوم كل شيء عندنا لا يشارك فيه الشعب بالتجند والحماس لا يكتب له أي نجاح .

وهنا أصل إلى النوع الثاني من العمل في قضية التعريب ، وهو تيسير اللغة وجعلها في متناول الشعب . وبهذا الصدد أذكر أنه ضمتنا جلسة مناقشة وعمل مع الدكتورة بنت الشاطئ في إحدى قاعات كلية الآداب عند زيارتها للجزائر أخيراً . فطرحت عليها السؤال التالي :

« لقد تحدثت ، يا دكتورة ، عن اللغة العربية وأننا لا نعرف أسرارها لأننا ضعنا في قواعدها . ونحن هنا في الجزائر نجتاز مرحلة صعبة في هذه القضية ، ولا حديث لنا إلا عن العربية والتعريب ، ولكن هناك مشكلتان رئيسيتان تقفان في وجهنا : أولاهما أننا هنا نؤمن بأن لا شيء يتم لنا في أي معركة من المعارك إذا لم تشارك فيه الجماهير الشعبية ، ولكي نجند الشعب لبناء الوطن في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية لا نستطيع أن نجنده على أميته ، بل لا بد من تثقيفه وتوعيته ، والأداة اللغوية التي نريد أن نثقفه بها هي اللغة العربية طبعاً ، وكنا نود أن لو كانت لغتنا أقل تعقيداً في قواعدها مما هي عليه حتى نستطيع أن ننشرها في جماهيرنا ومدارسنا بسرعة أكثر وفعالية أنفع . والصعوبة الثانية هي قلة امكانياتنا البشرية ، وأقصد بها في هذا المجال بالخصوص أننا لا نجد اطارات تستطيع أن تتفرغ لتيسير

قواعد اللغة واختصارها والتأليف فيها ، بحيث أن كل واحد منا يحاول أن ينشط في هذا الميدان إلا يجد نفسه موزعاً مشتتاً بينه وبين عدة ميادين أخرى فلا يتمكن من من القيام بها جميعاً ، ولا الاتيان بخلق جديد في أحدها ، وهذا ما جعلنا نكثر من « الحديث » عن ضرورة التعريب ، ولكننا لا « نفعل » شيئاً يذكر لتحقيقه . وسؤالي اليك هو أنكم في المشرق لا تعانون مشكلة التنافس بين العربية ولغة أجنبية من ناحية ، ومن ناحية أخرى تتوفرون على اطارات كثيرة ، والحمد لله ، تستطيع أن تتفرغ للبحث والاتيان بجديد في مجال اللغة ، ولكنكم من ناحية أخرى توجدون في مثل وضعنا من حيث ضرورة تعميم العربية في الجماهير الشعبية لتتمكنوا من تجنيدها في معركة التطور ، فهل يوجد في المشرق الشقيق ، وخاصة في مصر شعور بهذه المشكلة ، وهل توجد مؤسسة بحوث تعمل في هذا الميدان ؟ » .

فأجابتني الدكتورة بنت الشاطئ على هذا السؤال بما ملخصه : « فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة ، لا أعتقد ، أو على الأقل لا أعلم ما إذا كانت توجد عندنا مؤسسة خاصة بالبحوث في هذا الميدان ، وإذا كان هناك من يفكر في هذه المشكلة ، فقد يكونون أفراداً ، لم يظهر أثر معين لجهودهم . ورأيي الخاص في هذه القضية هو أن كثيراً جداً من القواعد يمكن حذفها أو اختصارها دون أن يمس ذلك فهمنا أو تدوقنا للعربية الصحيحة . وأما فيما يتصل بمشكل التعريب عندكم ، فقد حدثني أحد الأساتذة الشرقيين ، أن لغتكم تحتوي على أكبر عدد من المفردات والتراكيب الفصحى ، ربما أكثر مما تشتمل عليه أي لهجة أخرى في أي بلد آخر من البلاد العربية . فلماذا لا تتبنون هذه المفردات والتراكيب وتدخلوها في اللغة الفصحى ؟ ان هذه المفردات والتراكيب لا يجوز أن نعتبرها « تنجست » لأن العامة استعملوها ، ان مشكلتنا الحقيقية في هذا الموضوع هو جهل مثقفينا أن لغة شعبهم هي اللغة العربية الحقيقية » .

فقلت للدكتورة بنت الشاطئ : « اني أعرف بعض الأصدقاء عندنا ممن حاولوا تأليف كتب في اللغة للمدارس الابتدائية كل المفردات فيها من الاستعمال الشعبي ، ولكنها كلها عربية فصيحة . هؤلاء الأصدقاء تتوزعهم أعمال أخرى بيداغوجية

أو إدارية ولم يتمكنوا من انهاء محاولتهم التي بدؤوها منذ سنوات . ثم هناك مشكلة الاعراب مثلاً ، التي تأخذ وقتاً طويلاً من عمر الطفل دون فائدة تذكر . فكيف العمل فيها ؟ » .

فقالت : هنا أيضاً نجد من قواعد الاعراب التي يمكن حذفها أكثر مما يجب ابقاؤه دون أن نمس شيئاً من اللغة العربية وتذوقها » . وضربت بعض الأمثلة . ثم قالت : « انني تحدثت مرة في هذا الموضوع بمحضر شيوخ محترمين فرموني بالكفر . وقد رددت على منتقدي بأنني لم أسمعه قط يتحدث أو يدرس إلا باللغة غير المعربة ، ومع ذلك فانني أؤمن بأنه رجل مؤمن صادق ، وأن مكانته في الجنة لا شك فيها ! » .

وما أريد أن أخرج إليه هنا من هذا الحديث هو أن اخواننا في المشرق لم يشعروا بعد ، أو هم ليس لهم ما يدعوهم إلى الشعور بالحاجة الملحة إلى تنظيم مؤسسة من الأساتذة والباحثين المختصين ليدرسوا هذا الموضوع رغم أهميته في توحيد لغة المثقفين ولغة الشعب ، وبقوا مكتفين مثلنا بما جرت به العادة منذ قرون طويلة ، وهو أن الشعب يتكلم العربية بدون قواعد ، والمثقفين يستعملون القواعد أكثر مما يستعملون اللغة ، مع ما انجر ، وما ينجر عن هذا الفصل اللغوي من فصل في الحياة الفكرية والذهنية والاجتماعية في مختلف ميادينها .

إن هذا الدور أيضاً ينبغي أن تحققه الجزائر بروحها الثورية رغم قلة امكانياتها في هذا الميدان ، لأننا ، وأعيد هذا مرة أخرى ، لا نستطيع أن ننجح في أي معركة اذا لم نكن فيها جنباً إلى جنب مع الجماهير الشعبية ، فلا بد إذن من أن نقيم مؤسسة مهما كان عدد أفرادها قلائل ومحدودين ، ولو لم يكونوا أعضاء في المجامع اللغوية التي يزخر بها المشرق الشقيق دون فائدة ، وأن نعزو إليها الشروع في اعداد هذه الثورة التي نفتح بها معاقل الأرستقراطية اللغوية على مصراعيها ونحرر لغتنا من التعفن والجمود وندفعها في طريق الحياة تصارع مشاكلها وتثبت قدرتها . ونحن نؤمن بأنها ستثبت هذه القدرة بشكل لا يتوقعه أحد ، لأن العجز أو القدرة ليس في اللغة بل في الذين يستعملونها . قال أحد المفكرين : « ليست قيمة الدين في مبادئه ، بل

في الشعب الذي يعتنقه » . وهذا ما يقال عن اللغات أيضاً . ان لغتنا كانت بسيطة ويجب أن ترجع إلى بساطتها ، والانحرافات التي دخلت على ديننا في مختلف عصور الانحطاط فعقدته وذهبت بروحه ، قد دخل منها في اللغة فعقدها وأبقاها هيكلاً عظمياً فقد الروح واللحم والدم !

ولكي ننتصر في هذه المعركة المقدسة يجب قبل كل شيء أن نحدد مسؤوليتنا فيها ، نحن المثقفين بالعربية ، وأن نكون نحن قادتها ونحن المسؤولين عن فشلها أو نجاحها ، ولكي نحقق لها النجاح يجب أن نخرج فوراً من هذه المعارك التي أوشكت أن تتحول إلى معارك دونكيشوتية ، ونحول طاقاتنا إلى البحث الجدي والعمل المنظم يجب أن نعالج الأمر بأساليب جديدة نثور بها على أنفسنا وعلى أساليبنا ، ونعطي لطاقتنا محتوى جدياً ومجدياً ، ونعتمد على أنفسنا قبل كل شيء . أما ما يعود إلى الحكومة والحزب من نصيب في هذه المعركة فأتعرض له في الخاتمة .

— ٥ —

موضوع الخدمة الوطنية فلا أستطيع أن أتعرض له هنا إلا من الزاوية الثقافية . وأفهم من هذا الموضوع قبل كل شيء أنه موضوع الشباب . ولست أدري ما هي مخططات منظمات الشباب ومخططات الحزب ، وما إذا كانت لهما مخططات على الاطلاق . ولكن الذي أفهمه في هذا الميدان هو أن شبابنا يتمتع بحيوية هائلة ، وأن حيويته إذا لم يستعملها في الخير والانتاج والعمل ، فإنه سيستعملها في الشر والفساد والكساد . أما أن يبقى مكتوف اليد واللسان فهذا ما ليس في طبعه . وأجد في موضوع الخدمة الوطنية قبل كل شيء متنفساً تنطلق منه طاقته نحو الخير والانتاج والعمل . ولكن هذا يتطلب فهماً وتنظيماً .

الفهم أولاً : ماذا يجب على شبابنا أن يفهم ؟ أو ماذا يجب أن نفهمه ، وخاصة في الجامعة والمعاهد العلمية ؟ يجب أن يفهم قبل كل شيء من هو ؟ ما معنى جزائريته ما معنى عروبته ؟ ما معنى أنه ينتمي إلى العالم الثالث لا إلى العالم الأول أو الثاني ؟ لقد اكتشفت في محاضرات الثكنات أن شبابنا لا يضع

لنفسه هذه الأسئلة ، ولا يجد من يعينه أو يوجهه إلى طرحها . لقد كان شباب ما قبل الثورة يعرف شيئاً واحداً ، وهو أنه لكي يكون جزائرياً وعربياً ووطنياً إلى آخره ... يجب أن يكون ضد فرنسا : أن يمقتها ويمقت استعمارها وأسلوب حياتها وثقافتها ولغتها ، وأن يحب بلاده ووطنه وقومه ومقومات شخصيته . وكان التعبير على هذا الحب وذلك الكره يتمثل في معارضة كل شيء وتحطيم كل شيء والتحيل على عدم أداء الواجب والحرص على التخريب فقط . وجاءت الثورة فكانت هذه الاستعدادات التحطيمية هي القوة المعنوية التي لم تستطع القوة المادية الفرنسية أن تقضي عليها ، فانتصرت . ثم جاء الاستقلال يتطلب مفهوماً جديداً للوطنية . ولكن هذا المفهوم الجديد لم نعالجه حتى الآن . وأعتقد أن مفهومه اليوم يتمثل في هذه الخدمة الوطنية ، أعني في خدمة الشعب . ان محبة الوطن كانت تعني دفع العدو عنه . أما اليوم فهي تعني محبة الشعب الذي يعيش في هذا الوطن . كانت محبة الوطن تعني التضحية بحياتك في سبيله . أما اليوم فهي تعني التضحية « بشيء » من مصلحتك في سبيل مصلحة الشعب الذي يعيش في هذا الوطن ، وكانت محبة الشعب تعني أن تدفع عنه عدوه . أما اليوم فهي تعني أن تهتم به : أن تعلمه وتداويه وتقضي مصالحه الإدارية . وكانت التوعية تعني أن تحمسه ضد العدو . أما اليوم فهي تعني توعيته بواجباته وحقوقه . كان تضامنك معه يعني أن تعيش معه في السجن حتى تخرج واياه من ظلماته ، أما اليوم فهو يعني أن تصبر معه في سجن تخلفه العقلي وتعينه على تحطيم سلاسل الانحطاط التي تكبله .

التنظيم : هذا المفهوم الجديد للوطنية كيف ننظمه ، كيف نطبقه ؟ قبل كل شيء يتبين أن هـذا العمل هو عمل ذهني ومعنوي ، وأداته الخاصة هي اللغة . فإذا كنا اليوم نريد أن نثقف الشعب ونعينه عـلى التوعية والتكوين فان ذلك لن يتأتى لنا إلا بمعرفة لغته هو ، التي هي لغتنا ولكننا نجهلها . إن شبابنا الجامعي عندما يتوزع على المزارع والمؤسسات ويتصل بالعمال والفلاحين سيكتشف كم هو غريب عن هذا الشعب ، وأنه أشبه بالخبراء الأجانب منه بالأبناء الطبيعيين لشعبه . ولذلك أجد من المتناقضات العجيبة في تصرفات شبابنا المثقف أن ينادي بالاشتراكية

أي بالعناية بالجماهير ـ ماذياً وفكرياً ـ ولا يتفطن للقطيعة الهائلة التي تفصل بينه وبين هذه الجماهير ، وكان المنطق يقضي بأن يكون شبابنا المثقف أحرص الناس على التعريب وأكثرهم مطالبة بأن تمكنهم الحكومة من تعلم لغة شعبهم حتى يستطيعوا خدمته ، وحتى لا يكونوا « طبقة » من المحظوظين ثقافياً ، وبالتالي مادياً ، في شعب محروم من النعمتين معاً .

ان موقف شبابنا الجامعي في المناداة بالاشتراكية دون أن يستعدوا لتحقيقها في الشعب بمجهودهم ، يشبه موقف المثقفين بالعربية الذين ينادون بالتعريب دون أن يعملوا شيئاً لتحقيقه بأنفسهم . أن المثقف بالعربية لم يهئ شيئاً لتعليم الموظف لغته العربية . والمثقف بالفرنسية لم يفكر في تعلم اللغة التي يستعملها في تعليم العامل والفلاح كيف يسيِّر مؤسسته ويضبط حساباته . ان كل ما نحسنه جميعاً هو أن « نطالب » ، هذا يطالب بالاشتراكية وذاك يطالب بالتعريب ، ثم يقف الجميع عند هذا الحد من « الواجب » كما لو كنا سنعتمد في هذه الميادين على خبراء في التعريب من المستشرقين الهولانديين وخبراء في الاشتراكية من أوزبكستان !

اننا إذا عدلنا مفاهيمنا للوطنية والواجب نحو العربية هذا التعديل ، نستطيع أن ننظم جهودنا ، في التعريب وفي الخدمة الوطنية معاً ، تنظيماً متكاملاً يتولى بموجبه المثقفون بالفرنسية تكوين العمال والفلاحين ، والمثقفون بالعربية تعليم العربية للموظفين والطلاب والجماهير الشعبية ، ويكون ذلك تحت تنسيق الحزب الذي يستطيع أن يجعل من هذا الهدف المزدوج محور رسالته في مجتمعنا الراهن بعد أن ظل يبحث عن مهمة يبلور فيها رسالته الوطنية منذ الاستقلال إلى اليوم دون جدوى .. فيجند كل المثقفين ليجعلوا من هذه الرسالـة عملاً يومياً يفرغون فيه كـل حماسهم ليكون حماساً خلاقاً ، ونكون ثورة حقيقية في ميدان التكوين والتوعية معاً ، قد تصبح به الجزائر مرة أخرى منطلقاً جديداً لبقية البلاد العربية الشقيقة .

أصل الآن إلى النقطة الثانية من هذا العمل الذي يكمل بعضه بعضاً ، وهي نقطة اصلاح التعليم العالي .

إن ميزة التعليم العالي الأساسية بالنسبة للثانوي والابتدائي هو أنه ليس ترديداً وتلقيناً بقدر ما هو بحث دائم عن شيء جديد : الأستاذ يبحث ، والطالب يتدرب على البحث ، والبحث يكوَن في أشياء لم يسبق للمراجع والكتب أن عالجتها ، وإنما الكتب والمراجع تعين فقط على بحثها . وبهذا المفهوم للتعليم العالي يكون رائداً يعبد طريقاً جديدة في مجاهل وغابات يهئ بها للأجيال المتجددة اتجاهاً جديداً نحو الكشف دائماً عن المجهول ، وهذا ينطبق على الآداب والفلسفة والحقوق والعلوم والنظم الإدارية ، وهو الذي يخلق المخترعين والمكتشفين في كل هذه الميادين العلمية

هذا المفهوم في اصلاح التعليم العالي أيضاً هو الذي يجب في نظري أن يقام عليه اصلاح التعليم العالي عندنا . ولكنه وحده لا يكفي . ان البحث واكتشاف المجهول يجب أن يسلط قبل كل شيء على المحيط الذي نعيش فيه ، المحيط الطبيعي والمحيط البشري ، وبعد ذلك ، أو إلى جانب ذلك يهتم أيضاً بالمحيط الأوسع .

فماذا يعني هذا في ميدان علاقة الجامعة بالشعب ، وكيف يندرج في المخطط المتكامل الذي نعالجه ؟ سنأخذ أمثلة من بعض الكليات :

في كلية الآداب ، وفي القسم العربي بالذات ندرس كل المواد المتعلقة باللغة والآداب العربيين ، ولكن لا شيء ، أو ليس هناك شيء يذكر يتعلق بالأدب العربي وملامحه الخاصة أو التي ليست خاصة في الجزائر ، أليس من الغريب أن لا ندرس عقلية شعبنا الأدبية وقصصه وأشعاره ومستوى خياله الفني في آثاره سواء كانت فصيحة أو عامية ونقيِّم ما في هذه الآثار من خصائص نفسية أو انعكاس الأحداث التاريخية عليها . ولماذا هذا الاهمال ؟ نعم انه ليس مقصوداً ، ولكن لمجرد أن من سبقونا في الجامِعة لم يهتموا به احتقاراً للشعب نفسه ، ولأن من سبقونا في غير جامعتنا لم يهتموا به ــ باستثناء ابن خلدون ــ احتقاراً لقيمته الفنية . ولما كان التعليم الجامعي ليس تلقيناً لما عولج في الكتب ، وإنما هو اكتشاف لما أهمل ، فان ثروة شعبنا الأدبية ، مهما كانت قيمتها هزيلة أو سمينة ، يجب أن تبحث وتحلل عناصرها وترتب أبوابها وتستخرج خصائصها ان كانت لها خصائص ، وتوضع في ميزان

النقد الأدبي والفني والتاريخي ، ويعمل على استغلال ما هو رفيع فيها ، وهو كثير . وقل مثل ذلك في مدرسة الفنون الجميلة بالنسبة لفنوننا الشعبية المختلفة والمتنوعة .

وفي قسم الفلسفة ، وفي القسم العربي بالذات ـ ندرس مختلف أبواب الفلسفة ، ونتطرق لما تتضمنه من أساطير عند اليونان أو قدماء الصينيين والهنود ، ولا نبحث عقلية شعبنا وما خلفته فيه أحقاب التاريخ المتتالية من أساطير وعقائد باطلة وغير باطلة ولا نبحث أساليبه في التربية والأخلاق والعلاقات الاجتماعية ولا نحلل ما في ذهنه من تصورات دينية وما في تقاليده الموروثة من رواسب مستحكمة كأن هذا الشعب لا يعنينا حتى بقدر ما تعنينا حياة البدائيين في زيلاندة الجديدة أو البيرو . وهنا أيضاً نحن لا نفعل ذلك عن قصد ، بل لأن هذه الميادين لم يطرقها الفرنسيون في الجامعة قبلنا ولم يهتم بها منهم إلا قلة من الاختصاصيين على نطاق فردي معزول .

وفي كلية الحقوق تبحث أنواع الاقتصاد ونظمه المختلفة والقوانين الدولية والقضائية ، والأنظمة التجارية إلى آخره .. وتهتم بما أقيم في الجزائر ، من مؤسسات مستحدثة منذ عهد الاستقلال . ولكن لا شيء عن الأنظمة السياسية والشعبية في بلادنا عبر التاريخ ، باستثناء القانون الاسلامي بصورة اجمالية جداً ، ولا عن المؤسسات القضائية أو شبهها مما عاش عليه شعبنا وما يزال ، ومما يسمى بالجماعة للفصل في الخصومات ، ولا عن المشاكل الاجتماعية أو الاقتصادية التي تطبع مجتمعنا إلى اليوم بطابع بارز في البادية والأرياف ، بحيث يتخرج حامل الليسانس في الحقوق وهو يعرف عن أوضاع العالم أكثر مما يعرف عن أوضاع بلاده ، ويتخرج المحامي أو القاضي وهو لا يحمل في ذهنه أية صورة عن بنية مجتمعه العائلية أو القبلية ولا حتى عن مشاكل الزواج في هذه العائلة كيف تنشأ ، ولا يدرس مثلاً ظاهرة الطلاق التي صيرت أطفالنا الأيتام من آبائهم الأحياء ، أكثر من الأيتام من آبائهم الأموات .

وفي كلية الطب ، يدرس التشريح والجراثيم والأدوية وما توصل العالم المتمدن

إلى اكتشافه في هذا الميدان أو ذاك ، ولكن لا شيء عن أمراض مناخنا الخاصة ، ولا عن الأمراض المستفحلة في مجتمعنا أكثر من غيرها ولا عن أسباب هذه الظاهرة وكشفها ، وخصوصاً لا شيء عن المعالجات التي يستعملها شعبنا لأمراضه ، ولا عناية بتحليل الأدوية التي يمارسها وما فيها من أوجه الصحة والخطأ ، وهنا يتخرج الطبيب من الكلية ، وهو ينظر إلى أمراضنا وأدويتها بنفس العين التي ينظر بها طبيب فرنسي أو بولوني .

إن اصلاح التعليم العالي على هذه الأسس الوطنية الشعبية لا أدري هل يجب أن يقتنع به الأساتذة أولاً ثم يعرض على السلطات المعنية ، أم يجب العكس . ولكن ما أؤمن به شخصياً هو ان الجامعة ستبقى أجنبية عن الشعب وغريبة في الجزائر إذا لم تدخل هذه الثورة في مفهوم رسالتها الثقافية .

نعم ، ان هناك صعوبة أساسية تقف في وجهنا ، وهي أن الأساتذة الجزائريين الذين نطلب منهم الانكباب على دراسة أوضاع بلادهم ما زالوا يعتبرون قلة بالنسبة للأساتذة المتعاونين سواء من المشرق الشقيق أو من أوربا ، بحيث أنك عندما تطلب من أستاذ معار من الشرق أو الغرب أن يدرس للطلاب مشاكل المجتمع الجزائري القانونية أو الأدبية أو العقلية والعقائدية أو الصحة ، يجابهك بهذا الجواب ، وهو أن هذا الميدان لا يدخل في مشمولات اختصاصه ، وأنه لا بد له من دراسته أولاً قبل تدريسه . وهذه الحجة لا نستطيع إلا أن « نبلعها » شئنا أم أبينا ، ولكن عندما يستعملها الأساتذة الجزائريون فقد نعذرهم إلى حين ،أي نمهلهم وقتاً محدوداً يدرسون فيه هذه المشاكل ويبحثونها . ثم يعمدون إلى تشريك الطلاب معهم في بحثها ودراستها حتى تصبح مع مرور الوقت برامج حية وتأخذ مكانها الذي تستحقه في ساعات البرامج ومواضيع الاطروحات أو الأعمال الدراسية .

وهنا أيضاً تعترضنا صعوبة أخرى ، وهي قلة المراجع والمصادر ، ان تاريخنا لم يكتب منه إلا الجانب السياسي ، أما الاجتماعي والتراث الثقافي فيكاد يكون معدوماً . ومع ذلك فانه يوجد عندنا على الأقل مصدر هو عبارة عن منجم لا تنضب

ثروته ويصح أن يكون لنا جميعاً نواة تنطلق منه بحوثنا ، وهو ابن خلدون إذا عرفنا كيف نتخذ منه معلمنا الأكبر مكان أرسطو في دراسة مجتمعنا . وإلى جانب ابن خلدون يوجد الشعب نفسه : بدرس كل مظاهر حياته . ان هناك أمتين اليوم تبحثان ابن خلدون بصفة ملفتة للأنظار : وهما فرنسا وإسرائيل ، أما نحن - أقصد في المشرق والمغرب - فيظهر أننا سننتظر حتى تترجم لنا هذه الدراسات والرسائل والأطروحات لكي نبحث عن أنفسنا فيها من خلال نظرة اليهود إلينا ، لأننا تعودنا على الجاهز من كل شيء ، وأكل الغلة ، بعد أن « يقشرها » لنا الآخرون ويضعوا لنا فيها من السموم ما شاؤوا !.

- ٧ -

آتي الآن إلى الخلاصة وأخصصها لمسؤولية المسؤولين :

قلت ان هذه الميادين الثلاثة : التعريب ، والخدمة الوطنية الاجبارية ، واصلاح التعليم العالي تنخرط كلها في سلك واحد هو الشعب وثروته المادية والمعنوية التي ما تزال مهملة . وانخراط هذه الميادين الثلاثة في سلك واحد يجعلها لا تتعلق بوزارة واحدة أو مؤسسة بعينها ، لا الرئاسة ولا التربية ولا الحزب كل بمفرده ، بل ولا الأفراد بمعزل عن السلطة أو السلطة بمعزل عن الأفراد .

لا شك في أننا يجب أن نعتمد على الاخلاص والإيمان وكل القيم الوطنية والأخلاقية في هذه المعركة الهائلة ، ولكن هل تكفي هذه القيم وحدها كمحرك ودافع عند الجميع ؟ ان من قوانين ابن خلدون في تحليله لنفسيتنا البشرية ان المجتمع قبل تسلم زمام الحكم بيده تسيره في المعركة مثل أخلاقية مجردة ، ولكنه بعد أن يمسك بزمام الأمر في يده تتحول دوافعه من المثل الأخلاقية إلى المصالح المادية . وقد رأينا نحن ذلك وما زلنا نعيش هذا القانون في مشكلة التعريب ، كان المثقفون بالفرنسية أنفسهم يتحمسون للعربية ويحنون إلى سماعها ويحملون لها الاحترام ويأسفون صادقين على جهلهم لها . ولكنهم بعد الاستقلال أصبحوا يجدونها لا تستحق

ذلك الاحترام ولا يأسفون على عدم تعلمها لأنهم يستطيعون أن يعيشوا بدونها أحسن من الذين يعيشون بها .

وكنا قبل الاستقلال نتطوع بأعمال وتضحيات لا نتطوع بجزء في المائة منها اليوم دون أجرة أو مقابل . انه قانون بشري لا أدري إذا كان قد تفطن إليه أحد قبل ابن خلدون أو بعده ، ولكن الذي يهمنا منه اليوم هو أن قضية التعريب اليوم ، واليوم فقط ، بعد ربطه بالوظيف أصبح قابلاً للتحقيق . ولكن هذا القانون يترتب عليه قانون آخر يسنده ، وهو العمل على تنفيذه . اننا أصدرنا قوانين تأميم الأراضي والمصانع وأوكلناها إلى العمال ومديريهم ولجان التسيير واكتفينا بالاعتماد على الضمير والقيم الخلقية التي نظن أنها ظلت حية كما كانت زمن المعركة المسلحة أو قبلها . ولكن تبين بعد فوات وقت ثمين جداً أن ذلك الدافع الوطني قد انتهت مهمته إلا عند قلة قليلة جداً ، وأنه لا بد من المراقبة والمحاسبة والعقاب أو المكافأة ، والترغيب والترهيب . وهذا ما سنجده حتماً في قضية التعريب إذا لم ندعمها منذ البداية باجراءات المراقبة والمحاسبة الدائمة والترغيب والترهيب ، ان هناك درجات في سلم السلطة . والمحاسبة يجب أن تجري من أعلى الدرجات إلى أسفلها : شرعت لك قانوناً وأعطيتك وسائل تنفيذه ، ماذا نفذ وماذا بقي ، وما هي العوائق والصعوبات ؟ هذه المحاسبة يجب أن تتم في اجتماعات دورية منتظمة لا تتخلف مهما كانت الأعذار .

إن قضية التعريب فرصة للمثقفين بالعربية لكي يحققوا بها أحلامهم في رفع شأن لغتهم في بلادها ، والخدمة الوطنية فرصة للشباب المتحمس للاشتراكية يكونون فيها جماهير شعبهم تكويناً علمياً وسليماً . ولكن السلطة لا يجوز لها بحال أن تعتمد على هذه الدوافع وحدها لتحقق التعريب والخدمة الوطنية واصلاح التعليم في البلاد ، بل يجب أن توفر الوسائل من ناحية وتحاسب الجميع عن خدمة الواجب من ناحية أخرى . وبذلك يسير الجميع في قافلة واحدة بقطع النظر عمن يسير بدوافع وطنية أو مصلحية. لأن المهم هو أن يسير القطار ! ان هناك مبدأين يجب أن يكونا واضحين في ذهن كل أحد : الأول هو العمل بعقلية علمية واضحة ،

والثاني أن ميدان العمل هو الشعب وثروته المادية أو المعنوية .

ان العلم والشعب عندما يلتقيان هما السالب والموجب في كهرباء الثورة .

الثقافة وطريقها إلى الشعب

منذ عام بالضبط ١٩٦٨ انعقد المؤتمر الثقافي الأول في بلادنا . وبالرغم من أنه أول حدث من نوعه فقد نسيناه بسرعة ونسينا كل الدروس التي كان ينبغي أن نستخلصها منه . وهذا النسيان يكاد يشكل أبرز ظاهرة لطفولتنا : نتحمس للمشروع في أوله ونفرغ في هذا الحماس الأول كل شحنة طاقتنا . ولا يكاد يمضي عنا وينتهي حتى يتحول حماسنا له إلى رغبة في التخلص منه . ويتحول جماله الذي جلبنا إليه بحدة إلى قبح ينفرنا من ذكرياته . يقول مثل شعبي عندنا « كالعروس : عز في أسبوع ومذلة في بقية العمر » . فهل يليق بنا كمثقفين أن نعامل ابننا البكر بهذه المعاملة ؟ وهل يجوز أن نترك تصرفاتنا على هذه البدائية القبيحة ؟ وهل يكون اهتمامنا اليوم بما وقع في هذا المؤتمر منذ عام من قبيل الاجترار ؟ انني أعتقد العكس. ان أحداثاً من هذا القبيل لا يفوت فيها حق الكلام بفوات وقتها ، وليس كل كلام يقال عنها في أوانه صالحاً مفيداً ، بل كدت أقول إن التروي بشأنها أحسن من الاستعجال ، خاصة وأن المآخذ التي وجهت للملتقى كانت كثيرة ولكن يأتي على رأسها جميعاً كونه أقيم في جو من الاستعجال وعدم الاعداد كان هو المصدر

الخصب لكل ما زخر به الملتقى من سطحية في البحث وفوضى في العمل وغموض رؤى في الهدف الذي أقيم من أجله .

ولكن بعد التروي يتبين أن الملتقى لم ينطو على المآخذ والنقائص وحدها ، بل كانت له محاسن لم تظهر بوضوح في الزوابع التي أطاحت بثماره قبل أن تنضج ، ولعل من العدل ـ وحتى يكون التقييم صحيحاً ومفيداً ـ أن نسارع إلى تسجيل بعض هذه المحاسن قبل أن نسترسل في ضبط قائمة المساوئ .

أولاً : فكرة عقد الملتقى نفسه تعتبر كسباً للثقافة في الجزائر لا يستهان به ، لأن كل قطاع من قطاعات هذا الميدان ، بل كل فرد من أفراد القطاع الواحد كان يعيش أمة برأسه حاسباً أن الأرض تدور على قرنه ، وأن الأفكار التي يحملها عقله هي وحدها الصالحة للتغلب على « الركود » واكتشاف « العلاج » . وكلمة الركود وعلاجه تشكل مادة البحث الوحيدة في الملتقى .

ولكن تبين من خلال الكلمات والخطب واللوائح والتدخلات إلى آخره أن لا وجود للعبقري عندنا ، وأن المشاكل التي تعترض كل قطاع أعسر من أن تتغلب عليها العقلية الفردية حتى ولو كانت عبقرية ، فضلاً عن أن كل العقول التي احتوى عليها الملتقى تبين أنها عادية ، بل أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى ، وأن كل واحد في حاجة لأن يستكمل بعضاً من نقصه في ميدانه . وبذلك يكون الملتقى قد أدى لكل واحد منا خدمة جليلة ما كان يحصل عليها لو لم ينعقد هذا الملتقى . كما أن فكرة الملتقى في الميدان الثقافي جاءت لتدعم تقاليد ثورية عندنا في ميادين أخرى اقتصادية وسياسية وحزبية ونقابية . ولعل من التسرع أن نسمي هذه الطريقة تقاليد عندنا ، ولكننا نرجو أن تصبح تقاليد راسخة في حياتنا الوطنية . فهي طريقة تشجع روح الديمقراطية وتقاوم الغرور وتضع أيدينا على فوائد العمل الجماعي ومساوئ العمل الفردي الذي يغلب علينا ويستبد بنا .

ثانياً : ولكن ماذا وراء الفكرة ؟ فكرة الملتقى سليمة وصالحة . والفكرة تأخذ

قيمتها الحقيقية عندما تتحول إلى عمل . كما أن العمل يصبح صالحاً للخلود عندما يتحول إلى قيمة فكرية أو مثل أخلاقي أو أثر فني . وبعبارة أخرى الفكرة تصبح منظمة عندما يدخلها العنصر العقلي . وكل فكرة لا تتحول إلى عمل فهي أفقر من من الهواء . وكل عمل لا يصاحبه الفكر فهو حرث في البحر وسيف في الماء . والتوازن بين العنصر العقلي في العمل ، والعمل المتحول إلى قيمة هو أساس الأثر الحضاري ، الذي تعد حضارتنا من أفقر الحضارات فيه لغلبة الأمية علينا في مختلف العصور كما يقول ابن خلدون ـ ولكنها الأمية الثقافية على وجه الخصوص .

وقد ظهرت هذه الأمية في أفظع أشكالها في الملتقى عندما بدأ بالهجومات التعسفية المتبادلة في أوله . وانتهى إلى مطالب نقابية في آخره ، بدلاً من أن يبدأ بالبحث في السؤال وينتهي بإيجاد الجواب عليه .

وقد كان جواب الملتقى منحصراً في مطالب نقابية مادية لأن السؤال نفسه قاد إلى هذا الجواب بصورة حتمية : ما هي أسباب الركود الثقافي في بلادنا ؟ الجواب : هو قلة الامكانيات .

إن السؤال الصحيح في نظري كان يجب أن يكون على النحو التالي : ما هي رسالة الثقافة في مجتمع أمي ؟ ان شعار ثورتنا هو ، « الثورة من الشعب وإلى الشعب ». كيف نطبق هذا الشعار في المجال الثقافي . ما هو دور المسرح والكتاب والجريدة والاذاعة والتيليفزيون والسينما في النهوض بالمستوى الأدبي والفني والأخلاقي عند شعبنا .

هذا من حيث مبدأ السؤال . أما من حيث طريقة العمل للاجابة عليه فهو توزيعه قبل شهرين أو ثلاثة على من يتوسم فيهم القدرة على معالجة الموضوع ، وعرضه في الملتقى على جمهور ممن يهمهم هذا الموضوع أو من يحمل في قطاع من قطاعاته مسؤولية ما في الانتاج أو الإدارة .

ولكن هل نكتفي بألقاء المسؤولية على موضوع السؤال ثم ننفض أيدينا من التبعية؟

إذا كان منضمو الملتقى قد أخطؤا صميم السؤال أي جوهر المشكلة ، فان الذين كلفوا بالاجابة عليه قد استسلموا له وانساقوا في منحدراته إلى القعر : إلى المطالب النقابية . .

وأنه لا بد أن استثني هنا بحث الأستاذ مصطفى الأشرف الذي تمكن من تحضيره بسرعة في سفارته بالأرجنتين لأنه كان يتتبع هذا الموضوع منذ سنوات حتى أصبح أبرز اختصاصي عندنا فيه . ولكن بحثه كان من الجدة والروعة بحيث شعر كل واحد منا أنه فوق مستوى الملتقى أولاً . وأنه ثانياً يستحق وحده أياماً بل أسابيع وشهوراً لدرسه وهضمه والاستفادة منه ومناقشته . فكان القاوه في المجمع لحظة من لحظات التجلي مرت بسرعة وهبطنا بعدها بسرعة أيضاً إلى الوحل والتزاحم فيه بالمناكب على جثث المطالب !

ثالثاً : نأتي الآن لبعض محتويات الملتقى وما عالجه من قضايا لا على أساس الرسالة التي يجب أن يؤديها للثقافة أو للمجتمع ، بل على أساس توفير الامكانيات المادية كعلاج « للركود » . وكان من أخطر هذه القضايا ، لا في نظر الملتقى ، بل في نظر « العقلاء » من أعضائه ، قضية الكتاب فقدم فيه تقرير من الشركة الوطنية للتوزيع والنشر ، بينت فيه امكانياتها المالية الضئيلة ، والأعباء الملقاة على كاهلها الناشئ الطري ، وكان التقرير مدعماً بالأرقام ولا ينقصه الوضوح والاقناع . ولكن الموضوع الحقيقي كان في مكان آخر وهو أن تبين لنا الشركة مبلغ حاجة البلاد إلى الكتاب ، وتشكو ، ان شكت ، من قلة انتاج المثقفين انتاجاً يتلاءم مع الحاجة الفكرية التي يتطلبها المجتمع الجزائري ، وتوضح لنا بالأرقام ان شاءت ، نسبة الاستهلاك لكل نوع من أنواع الكتاب . ومع ذلك فان الطامة الكبرى في هذا الموضوع هو حديث الشركة عن قلة امكانياتها الماليةالاستيرادالكتب . وأذكر أني قلت لأحد مسؤوليها في أروقة الملتقى بأن النظرة التي يجب أن تنظر بها الشركة إلى قضية الكتاب ليست النظرة التجارية أو « الامكانيات » ، بل نظرة الحياة أو الموت . أن الصيدلية المركزية مثلاً لا تسمح لنفسها بأن تبقى البلاد دون أدوية . ولست أرى أي فرق بين استيراد الأدوية واستيراد الكتب من الخارج ما دمنا في حاجة إلى الخارج ،

وقت له أيضاً : إنه ليس لكم أي عذر في قبول هذا الـوضع وإذا شعرتم بأن وجودكم هو العقبة في طريق دخول الكتاب فان أول واجبكم الفكري والأخلاقي والوطني هو أن تتنحوا من الطريق .

واني أكرر هنا ما قلته للمسؤولين في الشركة ، وأود أن أوضح أن القائمين عليها أو من أعرفهم منهم على الأقل لا يشك أحد في وطنيتهم ، واخلاصهم وكدهم الأليم لتحقيق نجاح الشركة في مهمتها . ولكن القضية ليست قضية تفاضل بين الأشخاص في اخلاصهم أو وطنيتهم ، بل هي قضية المقاييس الغريبة التي جعلتنا ننظر إلى الكتاب نظرتنا إلى أي بضاعة أخرى من البضائع التي يمكن الاستغناء عنها .

ان بلداً ينادي بالاشتراكية والشعبية ، ويعمل فعلاً على توفير الغذاء والملبس والسكن والعلاج والمدرسة لأوسع طبقات الشعب وأكثرهم نصيباً من الحرمان ، ثم يهمل قضية الكتاب لهو أقسى دليل وأوجعه وآلمه على أمية هذا البلد . ومما يزيد في فداحة الكارثة أن ملتقى يجتمع مثقفوه فلا ينظرون إلى قضية الكتاب نظرة تختلف عن نظرتهم للمسرح مثلاً أو السينما في حين أن الكتاب هو الذي يعلمنا المسرح لا العكس ولا يعلنون أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً بدون الكتاب . وإذا كان هناك مبرر واحد في المطالبة بالإمكانيات سواء كانت مالية أو غيرها ، فلا يحق لأي ميدان أن توفرها فيه هذه الامكانيات قبل توفرها للكتاب .

إن المجتمع الذي يريد أن ينهض من كبوته ، وخاصة إذا كان نظامه اشتراكياً حقيقة ، يجب أن يجعل البضاعة الأولى التي يوفرها للجميع في السوق هي الكتاب أولاً وحليب الأطفال ثانياً والخبز والدواء ثالثاً . ان انحراف مقاييسنا ـ حتى نحن الذين اجتمعنا في الملتقى الثقافي ـ راجع إلى أميتنا العقلية المستفحلة منذ قرون والتي لم يتفطن لها أحد في تاريخنا المظلم ولكنها لم تتغير اليوم عما كانت عليه قيد شعرة .

رابعاً : أهم مشكلة بعد الكتاب بالنسبة لمجتمعنا الأمي هذا هي مشكلة الاذاعة. والنظرة السليمة للاذاعة هي أن نقارنها بالمدرسة : المدرسة وجدت لتعليم الصغار والمراهقين . والاذاعة جعلت لتعليم الكبار من نساء ورجال وشيوخ ، من عمال

وفلاحين وتجار ، من سكان بادية ومدن وقرى ، ومثقفين وعوام ورجال دين وسياسيين الخ ...

والمدرسة تعلم الأحداث والمراهقين اللغة والحساب والتاريخ والأدب والفن والأخلاق . والإذاعة تشترك مع المدرسة في كثير من هذه المواد اشتراكاً واسعاً ، ولكنها تختلف عنها في أسلوب التعليم اختلافاً واسعاً أيضاً .

عندما ننظر إلى الإذاعة هذه النظرة نجد أنفسنا في البداية مضطرين لأن نبحث لها عن رسالة كما بحثنا عن رسالة المدرسة . ونجد أن رسالتها تتكامل مع رسالة المدرسة وتتظافر معها ، فتصبح كل من المدرسة والإذاعة اطاراً أو مناخاً صالحاً تنبت فيه ورود الذوق الرفيع والأخلاق المهذبة والاتجاه السياسي والاجتماعي والحضاري المنسجم السليم .

أما ما يجب أن تحتوي عليه الإذاعة من تسلية ومتعة فهو ملح الطعام وليس هو الطعام ذاته .

هذا مفهوم الاذاعة كما يجب أن يكون . أما ما هو كائن فشيء آخر : هو أن الإذاعة أداة للغناء والموسيقى في أربع أخماس الوقت وأخبار وأحاديث في الخمس الأخير . أي أن الملح هنا أصبح هو الغذاء . والغريب مع كل هذا أن الإذاعة أيضاً تشكو من قلة الامكانيات . والامكانيات في نظرها هي الزيادة من الملح فقط ، هي الاهتمام بالمغنين والمغنيات . قلت يوماً لأحد المسؤولين في الاذاعة : لماذا لا تسجلون حياة الشعب في مناظر صوتية وتيليفزيونية وتحولونها شيئاً فشيئاً إلى وثائق حية لأفلامنا في المستقبل ورواياتنا في الحاضر ؟ فقال لي المسؤول : تصور أننا ندفع من جيوبنا أحياناً ثمن وقود السيارات عندما نذهب إلى تسجيل اجتماع رسمي أو رحلة وزير ، فكيف تريد منا أن نسجل حياة الشعب ؟ (كان هذا الحديث منذ ما يقرب من سبع سنوات) . وسألت يوماً أحد المسؤولين في الشؤون المالية عن العراقيل التي تشتكي منها كل الادارات فقال لي : ليس المال هو الذي ينقص مؤسساتنا ، بل ما ينقصهم هو حسن استعماله .

وقد يكون لكل جانب نصيب من الحق في حكمه . ولكن الذي لا شك فيه عندي هو أن وضع المشاكل الثقافية في قيود الامكانيات المالية وحدها وربطها بهذه السلاسل الأرضية الثقيلة من شأنه أن يزيف وضعها ، ويجعل الناس أعني المنتجين والمسيرين لا يعتمدون على تحسين مستواهم الثقافي شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن ، بل يحولون كل حرصهم لتوفير هذه الامكانيات المالية وشيئاً فشيئاً تصبح عندهم هي الهدف وتفقد صفتها كوسيلة . ان قاعدة بخيل « موليير » تصدق حتى على المثقفين .

ولأدلل على ذلك ببعض الأمثلة معتذراً لأصحابها بأنهم أمثلة فقط تصدق حالتهم علينا جميعاً : ـ هذا المذيع أو المذيعة التي نسمعها منذ سنوات لا نشعر اليوم بأنها تقدمت قيد شعرة في ثقافتها العامة أو المتعلقة بمادة مهنتها . وهذا النوع من الأحاديث الذي يجري منذ سنوات ، أو بالأحرى الأنواع المختلفة من الأحاديث ، لا نشعر أنها تغيرت عما كانت عليه منذ سنوات ، أي أن الاذاعة كان يجب أن تقوم بصورة منتظمة باجراء استفتاءات شفوية ، لا كتابية في شعب أمي .. تسأل عن نصيب كل نوع من أنواع الأحاديث أو الروايات أو القصص أو الموسيقى أو الغناء ـ من النجاح والاقبال أو الفشل والاعراض ، وتبني برامجها المتجددة على نتائج هذا الاستفتاء فتشجع الناجحين وترفض انتاج الفاشلين أو من قل اقبال الناس على انتاجهم ، ويكون هذا الاصطفاء حافزاً للمنتجين على تحسين انتاجهم من ناحية الكيف بدل حرصهم الاكثار منه من ناحية الكم فقط . وفي اعتقادي أن هذا النوع من العمل لا يكلف مبالغ مالية تنوء بها قوة الاذاعة المالية مهما كانت هزيلة .

من ناحية الموسيقى والغناء وكل أنواع المتعة الفنية ، عندما قارنت بين المدرسة والاذاعة لا أقصد أن أجعل من الاذاعة مدرسة حقيقية للكبار . بل أكاد اؤمن مع «شوبنهاور» بأن الأوقات الوحيدة التي لا نشعر فيها بآلام الحياة هي أوقات النوم ولحظات الموسيقى . ولكن أي موسيقى ؟ هنا أيضاً أرجع إلى مسألة المستوى الأدبي والثقافي للمذيعين ومقدمي البرامج لا إلى الوسائل المالية . إن اذاعتنا باللغة الأجنبية لا تسمع بشيء اسمه التلاؤم بين طبيعة الموسيقى وأنواع الغناء التي تذيعها ، وبين

وضعية شبابنا الذي يتغذى منها في الصباح والمساء دون أن يشعر ، ولا بين اتجاه البلاد الذي هو اتجاه اشتراكي شعبي . وفقدان هذا التوازن عندها جعلها لا تنظر إلى هذا الإنسان الجزائري الخاص بل تنظر إلى ما تذيعه الاذاعات الأوربية لمجتمعاتها التي تفصل بين عمرها الحضاري وعمرنا قرون عديدة . فلا نسمع منها في أغلب الأوقات إلا الموسيقى الأميركية المنهكة للأعصاب والمثيرة لأحط غرائز الطيش والإنفعالات المتهورة . (وأضيف إليها هنا قاعات السينما لأنني لا أريد أن أفرد لها فقرة خاصة) . أما الموسيقى المهدئة للأعصاب فتبلغ جزءاً من مائة من مجموع أوقات البث . وأما ما تذيعه الاذاعة العربية من هذه المادة الثمينة فهو أقرب إلى بقايا سوق الخضر المتعفنة منه إلى الاختيار الذي يهدف إلى تربية الذوق والرفع من مستواه . وفي كلا الحالين لا يرجع النقص إلى الامكانيات المالية بل إلى الامكانيات البشرية أعني الأدبية والثقافية وحسن استخدامها . وهذه الامكانيات تتوقف فقط على التكوين الذاتي والتثقيف الذي كان يجب أن يقوم به كل شخص ازاء نفسه بالقراءة ومقاومة الأمية الثقافية المستفحلة فيه .

إن الاطالة في الاتيان بالأمثلة لا تلذ لأحد لأن طعمها مرير . ولكن ما أريد أن أستخلصه منها أمران :

الأول هو أن هذه الأمثلة تصدق على كل واحد منا في أي قطاع من القطاعات الثقافية . اننا جميعاً ، سواء كنا في قطاع التعليم أو الصحافة أو الإذاعة أو الموسيقى أو المسرح إلى آخره ما زلنا متعلمين ، وليس الخطر هنا . بل الخطر في أن ننسى أننا في حاجة لأن نتعلم مهنتنا باستمرار ، لأننا جميعاً دخلنا على هذه المهن صدفة أو لأن لنا بعض التجارب القصيرة المبتورة التي تخول لنا العمل فيها مؤقتاً بمؤهلاتنا الأولية ، ولكن طبيعة التطور لا تسمح لنا بأن نظل دائماً على نفس المستوى الذي دخلنا به إلى هذه المهن ، وسيأتي وقت تتوفر فيه الاطارات المتعلمة والتي هي أقدر منا كفاءة وسيكون لها الحق والأولوية في استلام هذه المهن منا وننزل نحن إلى ما تحتها ، وهذه قضية تهم مصالحنا كأشخاص ، ولكن هناك جانب آخر من القضية ، وهو الواجب الأدبي والأخلاقي اننا كبشر أخلاقيين ليس هدفنا في الحياة هو سد

حاجاتنا ، بل هو استكمال نقصنا،نعم ان استكمال النقص سيحقق في طريقه سد الحاجة . أما الاكتفاء بسد الحاجة فانه لا يمر بنا في طريق استكمالَ النقص. أعني أن المصلحة المادية والمصلحة الأخلاقية معاً متكاملتان ولكن على شرط أن نضع الثيران أمام المحراث لا العكس .

الأمر الثاني هو الانتاج . والانتاج في الميدان الثقافي لا يختلف في قيمته ولا في أصوله أو أهدافه عنه في الميدان المادي أو المعاشي كما يسميه ابن خلدون . أن نفسية القناعة التي تغل أرواحنا منذ قرون قتلت فينا فضيلة الطموح ومكنت فينا الاكتفاء بالتقليد وكل ما لدينا من الطموح يتعلق بالاستيلاء على متاع الآخرين . أما الطموح في « الخلق » والانتاج فلم يستيقظ فينا بعد . والقيمة الحضارية تكمن في الانتاج والتحويل والتصرف لا في التقليد والسطو وبذل أقل ما يمكن من الجهد . لاحظ ذلك في تجارنا مثلاً : يستخدمون أموالهم في فتح دكان لجلب الأثاث الفخم من الخارج . ويكتفون بالجلوس في الدكان في انتظار من يشتريه منهم في حين أن نصف تلك الأموال يستطيعون أن يشتروا بها آلات تحويلية يضيفون إليها جهدهم الفكري أو العضلي وينتجون بها شيئاً مما يأتون به جاهزاً من الخارج . وفي هذه الحالة نجد النجار البسيط الذي يشتري الخشب الخام فيحوله إلى باب أو كرسي هو أفضل أخلاقياً واقتصادياً معاً ممن يعيش بدون جهد إلا جهد النقل من المنتج إلى المشتري . والعجوز التي تنسج الصوف في بلاد القبائل أو الأغواط وتحوله بيديها العاريتين من صوف خام إلى ألوان زاهية متلائمة في زربية جميلة هي أرقى ذوقاً وأوفر حضارة وأفيد للبلاد من ذلك الذي يكتفي باستيراد الزرابيّ الفارسية ويسلط عليها الأضواء البراقة في الواجهة وهو قابع في مؤخرة الدكان معطل الفكر واليد .

والخلاصة ظهر شعار في الملتقى يدعو إلى التفاؤل بل إلى الاعجاب رغم كل هذه النقائص ، شعار لا نكاد نجد له صدى حقيقياً عند المثقفين في عالمنا العربي . والشعار هو أن كل متحدث في أي موضوع ، وكل لائحة صودق عليها في الملتقى كانت تتحدث عن الشعب وضرورة توفير الامكانيات لكل القطاعات الثقافية لأنها تعمل من أجل الشعب ويتصور كل قطاع عن اخلاص أنه ضروري للشعب.ولكن

هناك تناقض واضح بين المناداة بهذا الشعار وبين الانتاج الذي ننتجه فلا يصل منه قليل ولا كثير للشعب لأننا لم نراع في هذا الانتاج مستوى أمية الشعب وما يستطيع أن يهضمه منه . ومع ذلك فان هذا التناقض لا قيمة له في نظري . ان كل العاملين في قطاعاتنا الثقافية أو أغلبهم مخلص فيما يقول ، أي أنه يتصور أن ما ينتجه هو للشعب فعلاً ، والدليل على ذلك ان كل انتاجنا في الصحف والكتب والاذاعة والتصوير والمسرح يحمل الطابع الاجتماعي أو التاريخي عن الثورة أو الاشتراكية أو الطبقات الكادحة ولا يتناول المشاكل النفسية أو العاطفية عند الفرد ، ظناً منا بأن مواضيع الفرد تتنافى مع الروح الثورية والاتجاه الشعبي . فالمقصد اذن سليم ، ولكن طريقة الانتاج أو الاختيار هي المنحرفة ، منحرفة بسبب الاكتفاء بالتقليد أو الاستيراد دون جهد نبذله في التحويل ودون محاولة ابتكار نراعي فيها الفروق الشاسعة بين مستوى شعبنا والانتاج الذي نستورده أو نقلده . وهذا ما جعل الحواجز بين انتاجنا الثقافي رغم شعبيته وبين شعبنا حواجز كبيرة جداً باستثناء انتاج وحدات نادرة مثل رويشد في المسرح أو طبيب الأسرة في الاذاعة . وذلك لا لأن انتاج هذه الوحدات مستمد من الشعب ، بل لأن طريقة التبليغ طريقة تتلاءم مع مستوى الشعب ، ان نيتنا طيبة ولكن طريقنا ضال . وأعتقد ، بدون أي تفاؤل مصطنع ، أن الطريق سنهتدي إليه لأنه طريق الشعب ولا طريق لنا غيره !

قال الذرائعيون الأميركان : ان الفكرة تصبح عملية عندما تصبح منظمة . وقال ماركس : « ان الفكرة تتحول إلى عمل منذ تسربها إلى الجماهير » .

حول التعريب والعبث

ليس هذا نوعاً من الرد أو المناقشة ، بل هو استمرار في محاولة تصحيح المفاهيم لجانب هام من حياتنا الثقافية والوطنية معاً . .

قرأت موضوعاً للأخ أحمد خوجة في جريدة « الشعب » تحت عنوان « التعريب والأغلبية » استنكر فيها الكاتب مواقف المعربين أنفسهم وكونهم لا يؤمنون بالتعريب وأنهم يقولون بشفاههم ـ أو أقلامهم ـ ما لا يؤمنون به في قلوبهم ولا يطبقونه في أعمالهم واستشهد على ذلك بحادثة وقعت في يوم من أيام الصيف الماضي مع الطلبة المجندين عندما حظوا « بأستاذ من أساتذة كلية الآداب المشهورين (فرع العربية) ، وقد انتظر طلاب العربية بصفة خاصة مجيئه بلهفة وشوق وبفارغ صبر لأنه سبقت محاضراته محاضرات أخرى لكنها ألقيت بالفرنسية ، وجاء الأستاذ المنتظر إلا أنه ومنذ البداية اعتذر وأعلن بأنه سيلقي محاضرته باللغة الفرنسية (! ! !) فقام أحد الطلبة وقال له : لقد انتظرناك منذ مدة وكيف تخيب آمالنا اليوم ، فأجابه بكل بساطة : نحن نتبع الأغلبية . هذا نموذج من النماذج التي تدعي التعريب . ولكن في الأماكن التي يجب بكل قناعة الدفاع عن هذا المبدأ ـ خاصة في الأوساط الطلابية ـ

نجد أصحابها يفضلون الحديث بالفرنسية للتظاهر أمام الآخرين بأنهم يجيدون الفرنسية مع جهل قواعدها . ونقول لحضرة الأستاذ المحترم الذي اتبع الأغلبية بأن ثورة فاتح نوفمبر في أيامها الأولى قامت بها مجموعة قليلة من الأفراد . وهذه المجموعة بحكم التاريخ والواقع سارت معها الأغلبية ... الخ ... » .

لا أدري إذا كانت هذه الحادثة قد وقعت لأستاذ آخر من كلية الآداب في محاضرات الصيف الماضي . ولكني أدري بأني كنت الأستاذ الوحيد من كلية الآداب ـ فرع العربية الذي شارك في هذه المحاضرات . ومما يؤكد ذلك أن الحادثة وقعت فعلاً ، وان كان الأخ الراوية قد شوهها بعض الشيء وحاد فيها عن الأمانة التي تقتضيها الرواية السليمة . وقديماً قيل « وما آفة الأخبار إلا رواتها » ! واليوم لم يشأ السيد الكاتب أن يذكر اسمي لئلا يحرجني أمام الرأي العام ، وأنا أشكر له هذا اللطف في السلوك وان كان ممتزجاً بلهجة أفسدت جو اللياقة المطلوبة . لقد اعتذرت فعلاً وقلت ان المحاضرة اعددتها باللغة العربية ولكن أجدني مضطراً لالقائها بالفرنسية ، وقلت ايضاً ان فرنسيتي من جهدي الشخصي وأنني لم أتعلمها في باريس. وقلت هذه الملاحظة عمداً لطلاب الفرنسية لاستشهد لهم منها بعد ذلك بأن أي انسان يستطيع أن يتعلم وحده حتى لغة أجنبية فكيف يتقاعسون هم عن تعلم لغتهم الوطنية . وقلت أيضاً بأن طلاب العربية سألخص لهم المحاضرة في نهايتها . وأنهم ليسوا في حاجة إلى هذه المحاضرة كحاجة طلاب الفرنسية لها لأن طلاب العربية يستطيعون بجهدهم الخاص أن يستقوها من مصدرها الأصلي ، وهو مقدمة ابن خلدون . كل هذا لم يذكره الكاتب ، ولم يذكر أيضاً أن عدد طلاب الفرنسية كانوا نحو الثلاثمائة وأن طلاب العربية كانوا نحو العشرة . وأن طلاب الفرنسية ليست لهم حتى لغتهم العامية التي يستعينون بها على فهم المحاضرة لو ألقيتها باللغة العامية لأنها تحتوي على نصوص للمؤلف لا يمكن للمحاضر أن « يعممها » مهما بذل من جهد . وأضيف إلى كل هذا أنني قبل أن ألقي المحاضرة سألت ضباط الثكنة عن مستوى الطلاب في مسألة اللغة وقلت لهم إن المحاضرة معدة باللغة العربية ولكن في الامكان القاؤها بالفرنسية إذا كان لا بد من ذلك فرجوني بالحاح أن ألقيها بالفرنسية لأن الأغلبية الساحقة

لن تستفيد شيئاً من المحاضرة إذا ألقيت باللغة العربية أو حتى العامية .

ولكن كل هذا لا يهم .

الذي يهم في نظري هو هذا الأسلوب « الشخصي » الأناني في معالجة قضايا تتجاوز نطاق الشخص وفرديته إلى نطاق عام . انني على يقين من أن الأخ خوجة لو طرح على نفسه القضية في شكلها العام الصحيح ، وقال مثلاً : هذه محاضرة المقصود منها هو كشف جانب من عبقرية مفكرينا لنوع من الشباب المنحل فكرياً ، والذي لا يعرف شيئاً عن قيمة تراثنا الثقافي والفكري ، ويعتقد أن كل ما يمس الفلسفة السياسية ومشاكل الحكم وتطور المجتمعات وأنظمة الدولة هو وقف على الفكر الغربي وحده منذ العصر اليوناني إلى اليوم ، وأن العرب اهتموا فقط بقضية الآخرة ورواية الشعر في المجالس وحفظ الأدعية وطقوس العبادة . وأن هذا الشباب يشكل لنا اليوم مشكلة وطنية وثقافية من أعقد مشاكلنا الحاضرة . وأن فكرة المحاضرات هذه نفسها إنما قصد منها ـ إلى جانب التكوين العسكري ـ تكوين وطني في مستوى ثقافي معين لهؤلاء الطلبة الذين هم أمل وكارثة في الوقت نفسه . وأن انتشالهم من الهوة التي تردوا فيها بحكم ظروف تاريخية وسياسية ليسوا مسؤولين عنها ـ لا يمكن أن يتحقق بمجرد اهمالهم وبأن يقوم أمامهم أي كان فيقول سأكلمكم طيلة ساعتين بلغة لا تفهمونها ، ولكني لا يهمني من أمركم أفهمتم أم لم تفهموا . أنا رجل أحافظ على المبدأ ... لو طرح السيد خوجة القضية لنفسه على هذا الشكل لما وجد مبرراً لمرارته . ولو فكر في الكارثة العامة التي يتخبط فيها الوطن من جراء هذه المشكلة لنسي « كارثته » الخاصة لأن « أمله خاب » في سماع محاضرة باللغة العربية . إن هذه النقطة هي التي تستحق الالحاح والتنبيه ، لأن خطورتها تشتد أكثر عندما ينغمس فيها خيرة أبنائنا وهم الطلبة ، والأدهى من ذلك أن يقع فيها نواة المستقبل من هؤلاء الطلبة وهم طلاب العربية . وأعني بها نقطة معالجة القضايا العامة من الزاوية الشخصية ، والنظر إلى المشاكل التي تتطلب الفكر بالنظرة العاطفية العابرة .

هل تعتقد أيها الأخ فعلاً بأني أطلب الشهرة عن طريق التكلم بالفرنسية ؟ انك لا تعرف مبلغ الحزن الذي أشعر به عندما أجدني مضطراً للتكلم مع مواطني بلغة

أجنبية استثقلها ولا أتكلمها إلا بصعوبة . ولكن الحل الذي تقترحه أنت يبدو لي أنه أصغر بكثير من ضخامة المشكلة ، هل تعتقد فعلاً بأننا سنحقق التعريب بمجرد تكلمنا ـ نحن الذين لا نمثل بعد واحداً في المائة ـ بلغة الجاحظ أو المنفلوطي في مجتمع هذه العاصمة المنكوبة ؟ هل سألت عن مصير الأحاديث والمحاضرات التي تلقى باللغة العربية على أمواج الاذاعة مثلاً ما هو مصيرها عند المستمعين ؟ وما هو مبلغ انتفاعهم منها ؟ بل هل حاولت أن تعرف ما يستفيده الناس من خطب الجمعة في المساجد عندما تلقى إليهم بالفصحى وهم مع ذلك طبقة من الناس تعودوا على سماعها . ولكنهم يذهبون إلى المسجد تعبداً لا طمعاً في الاستفادة من خطبة الجمعة ؟

إننا يا أخي لا ندرس أوضاع مجتمعنا البائسة ولا نبحث له عن العلاج الطبيعي ، ونكتفي بالحلول السهلة ونضع فوقها كلمة « المبدأ » ونشعر بأننا أدينا واجبنا كاملاً ، أو نستشهد بثورة أول نوفمبر في كل ما يصلح ولا يصلح للاستشهاد بها . دون أن نتعظ بالواقع الذي يبين لنا في كل يوم أن التعريب في بلدنا وبالوسائل التي لدينا أصعب من الثورة المسلحة .

لقد ابتلينا بالنظر دائماً إلى الغاية أو الهدف أو المبدأ ، وقلما نفكر في الوسائل التي تحقق المبدأ .

إن كل عملنا أحلام يقظة بقصور ساحرة ، ولكننا لا نفكر ـ لا قليلاً ولا كثيراً ـ في « الماعون » الذي نبني به هذه القصور .

نعم أعترف بأن هذا العيب لا يتصف به شخص منا دون آخر ولا شعب عربي أكثر أو أقل من شعب عربي آخر . فكلنا هنا في العيب شرق . ولقد آن لنا أن نخرج من هذه الطفولة التي لا تدرك من العالم إلا شهواتها .

وبعد أريد أن أؤكد للأخ خوجة أنه لا شيء أسهل عندي من القاء محاضرتي بالعربية كما أعددتها وتعبت من أجلها . وأن أشني غليلي من الفرنسية والمتفرنسين .
ولكن ما لا يسهل عليَّ أن أعمله هو أن أعبث !

التعريب والجزائريون بالجنسية

لم أكن أدري إذا كانت ما تزال فتاة أم أنها سيدة متزوجة . هذا أمر عرفته عنها فيما بعد . ولا أعرف إذا كانت ما تزال طالبة أم أنها تخرجت أو خرجت . ولا أدري أخيراً إذا كانت نموذجاً لعدد عندنا من أمثالها أم أنها شذوذ يؤيد القاعدة المخالفة لحالها .

ولكن الذي أدريه أن المناقشة التي جرت بيني وبينها في تلك المأدبة تستحق أن تنشر في الناس .

قالت : إن سياسة التعريب التي تسيرون بها لا تخلو من خطر .. ومن سطحية أيضاً . وكنت أتصور أن بلادنا أكثر جدية وميلاً إلى الفاعلية منها إلى التظاهر بالشعارات .

قلت : وكيف تتصورين سياسة تعريب جديـة وغير سطحية وأكثر فاعلية وأقل ميلاً إلى التظاهر بالشعارات.

قالت : أتصورها أكثر تمهلاً وأقل سرعة وأنفذ عمقاً .

قلت : هذه نعوت تجريدية وشخصية ذاتية يمكن أن يطلقها الانسان على كل شيء حسب هواه . فأنا أيضاً أستطيع أن أقول إن سياسة التعريب المتمهلة هي سياسة خوف وضعف وتردد وانحلال في الشخصية الوطنية إلى آخره .

قالت : ولكني أريد أن أكون جزائرية فقط دون أن أدخل العربية في الحساب.

قلت : هذه جنسيتك . وأنت في هذه الجنسية لا تختلفين عن أي متعاون فرنسي من هؤلاء الذين طلبوا الجنسية الجزائرية في السنوات الأولى من الاستقلال فمنحت لهم . كما أن بعض الجزائريين الذين « تعاونوا » مع الفرنسيين في أيام الثورة طلبوا الجنسية الفرنسية بعد أن ترحلوا إلى فرنسا فمنحت لهم . ولكنهم في المجتمع الفرنسي يعيشون غرباء . كما أن الفرنسيين الذين تحصلوا على الجنسية الجزائرية هنا يعيشون أيضاً غرباء . ولا همّ لأكثريتهم إلا تحطيم شبابنا من أمثالك .

قالت : كلا ان الحقيقة هي أنكم ترتعدون خوفاً من الأجانب ، وتتخذون شعار التعريب سلاحاً لمقاومة عنصر الرقي في بلادنا ، وتخربون حظنا الوحيد في العالم في أن تكون لنا لغة مزدوجة وثقافة راقية وازدهار اقتصادي سريع .

قلت : أما عن الارتعاد خوفاً من الأجانب ، فإننا لم نرتعد منهم عندما كانوا يواجهوننا بأسلحتهم التي نسيتها ، وسجونهم ومعسكرات اعتقالهم . وأما عن حظنا الوحيد في العالم في الرقي والثقافة والازدهار الخ ... فقد عرفناه منهم طيلة قرن وثلث قرن لم يتقدموا فيه بمستوى التعليم عندنا جزءاً واحداً بالمائة مما حققناه لأنفسنا في سبع سنوات من الاستقلال .

ولا أدري هنا لماذا اغرورقت عيناها بالدموع واختنق صوتها وهي تصيح : أنا لا أناقش المتعصبين الضيقي الفكر .

ثم حملت محفظتها الصغيرة وخرجت غاضبة ، واحتار أصحاب البيت هل يمسكونها أم يتركونها تذهب دون وداع !

ولست في حاجة إلى أن أنبه القارئ الكريم بأن هذه السيدة لا تعرف لغتها

العربية بحيث كانت المناقشة تدور ـ مع الأسف ـ باللغة الفرنسية . وعندما سألت عنها بعد خروجها . قيل لي إنها متزوجة من فرنسي متعاون معنا منذ أيام الثورة وأن أصحاب البيت يعرفون عنها أخلاقاً فاضلة وأنها من قريباتهم « الأباعد » . ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن أفكارها في هذه الأمور .

والذي أريد أن أخرج به الآن هو أن هذه السيدة لا يمكن أن تكون هي الوحيدة عندنا ، وأن أمثالها قد يكونون أكثر عدداً مما نتصور ، بل وأن عددهن (وعددهم أيضاً مع الشباب) يتزايد مع مرور الأيام رغم التعريب ، ومع « التمهل » في التعريب السريع الذي نضع به حداً لهذا السرطان الذي يفتك بأجيالنا الصاعدة (الصاعدة أكثر مما يجب في اتجاه الانحراف) . وأخيراً ، التعريب عندما يتقرر من أعلى لا يكون حاسماً إلا إذا اتخذناه مجرد سلاح ، وأما الجنود الذين يخوضون المعركة فهم نحن ، نحن الذين نشعر بجزائريتنا الكاملة وعروبتنا ووطنيتنا سواء كانت ثقافتنا عربية خالصة أم مزدوجة أو حتى ثقافة فرنسية محضة لأنني أعرف من هذا الصنف الأخير عدداً لا يقل حماسهم للتعريب عن المعربين أنفسهم ، انه يكفي أن نكون جزائريين (لا بالجنسية وحدها) لكي نكون جنوداً للتعريب .

نحن معلمي العربية

كنا ثلاثة معلمين ورابعنا تاجر ، كان معلماً مثلنا ثم حول اتجاهه إلى التجارة لأسباب تتعلق باستعداده الشخصي لا بمهنة التعليم .

كنا نتحدث بهدوء .. أو بالأحرى كان بعضنا يسأل البعض الآخر عن أيام العطلة وأين قضاها وماذا استفاد منها وكان أكثرنا نشاطاً وحماساً أيضاً في العمل ، وفي الحديث شاب بدأ يقترب من الكهولة . ولكن يقظة أعصابه الدائمة وحيويته الذهنية المستمرة ، لا تترك شيئاً من علائم التعب تطرأ على وجهه أو حركاته ، لا يقف نشاطه على التعليم وحده ، بل يبذل منذ سنوات جهوداً كبيرة ومستمرة في البحث عن آثار أجدادنا الأدبية والفكرية . وفي حديثه لا يترك شيئاً من هذه الجهود تحت ظلال السر حتى تنجح وتثمر وعندما يتحدث بها فليس عن تفاخر أو تبجح ، بل هي طبيعته : مباشرة لا تلتوي .. ومتحمسة صادقة ، لا ينسى اصدقاءه ولا يرحم خصومه .

وشيئاً فشيئاً تحول الحديث إلى مناقشة : من أخبار عن وقائع إلى أخذ ورد في الأفكار .

قال الشاب :
أنا طلبت هذه السنة أن انتقل إلى ثانوية معربة تعريباً كاملاً .
أحدنا : لماذا ؟
الشاب : لأننا نحن معلمو العربية لم نعد نجد أي احترام في المدارس المختلطة .
الثاني:هذا صحيح .. انك تقول للمدير : صباح الخير . فيرد عليك : بونجور
الشاب : ثم أنه ليس هناك أي برنامج واضح لهذا التعريب في المدارس المختلطة أما في المدارس المعربة تعريباً كاملاً فالأمر بسيط والطريق واضح .

المعلم الثالث : وأي فضل لك في تعريب المعرب ؟ إن قيمة جهودك تظهر في تعريب ما هو في حاجة إلى التعريب .

(ثم تركزت المناقشة بين الاثنين) :

ـ أنا أرى أن القضية ليست قضية احترام لمعلم العربية أو عدم احترام له من حيث هو معلم بالعربية .

ـ إذن ماذا ؟

ـ أعتقد أن المسألة تتعلق بقيمة المعلم العلمية والشخصية سواء كان بالعربية أو بالفرنسية فأنا لم أشعر بشيء من هذا الاخلال بالاحترام الذي تتحدث عنه انني أشعرأن كلاً من المدير والطلبة وبقية المعلمين يحترمونني ويحترمون أفكاري ويعملون باقتراحاتي في حدود الامكان لأنني لا أتطرق ولا أشعر بشيء من مركبات النقص ولا أنظر إلى مركزي بأنه شاذ أو بأنني أمثل أقلية من المعلمين أو ثقافة غريبة في هذه البلاد شعوراً يجعلني خائفاً منقبضاً متزمتاً أتهم من خالفني في فكرة ما بأنه متآمر علي حاقد على ثقافتي لأنه باع ضميره للاستعمار الثقافي الأجنبي .

ـ إذن أنا أشعر بكل هذه المركبات . وما أعانيه من قلق ومن شعور بالغربة هو إلى الوهم أقرب منه إلى الحقيقة ؟

ـ أنا لا أتهمك بكل هذا ولكني أعرف كثيراً من الزملاء لا حديث لهم إلا هذه التشكيات . في حين أعرف عدداً آخر من الزملاء يفكرون مثلي أنا تماماً ويشعرون شعوري . فكيف تفسر أنت هذا الاختلاف بيننا ؟

ـ أنا أفسره بأنه نوع من التفسخ لأنكم لا تشعرون باعتزاز شخصيتكم وبقيمة رسالتكم في قضية التعليم بهذه البلاد . (وتحمس الشاب وبدا لي أن عينيه الضيقتين أغرورقتا بالدموع من وراء نظاراته المصقولة) .

ـ أنا أقدِّر منك هذا الحماس ولو على حسابي . ولكني أخشى أن تكون مخطئاً أكثر منك متحاملاً . وهذا هو الخطر .

ـ أي خطر ؟ أتعني أن الخطأ البرئ أخطر من التحامل المقصود ؟

ـ بالضبط !

ـ يا له من شذوذ !

ـ ليس هناك أي شذوذ : عندما تكون متحاملاً عن قصد لا بد أن تفشل في تحاملك ولا تستطيع أن تؤثر على غيرك لأنك لا تؤمن بما تقول وبما تفكر . أما عندما تكون مخ ئاً خطأ بريئاً فان حماسك يزداد اشتعالاً كلما وجدت مقاومة . وتزداد تشبثاً بخطئك كلما حاول غيرك اقناعك به ويكون انتقال حماسك المخطئ أسرع عدوى إلى غيرك بقدر اخلاصك فيه وبراءة طويتك في هذا الحماس . لذلك أخشى أن تكون مخلصاً في هذا الحماس .. وأتمنى لك العكس . (وضحك الجميع حتى الشاب لم يتمالك عن الابتسام . وانفرج الجو . وكنا جلوساً في مقهى . ونادى الشاب صاحب المقهى بقوله : يا أستاذ ! ـ خطأ ـ فازددنا اغراقاً في الضحك) .

ثم هدأت العاصفة وعدنا إلى الموضوع . فقلت للشاب :

أنا أعتز باعتزازك ولا يسعني إلا أن أشاركك حماسك وإن كان صديقنا هذا قد أدخل اختلالاً على تأييدي لك بفلسفته عن الخطأ البريء والتحامل المقصود وأرى أن ملاحظته على شيء من الصواب . ولكني لا أناصره في أن ليس هناك من يحتقر العربية أو لا يشعر باحترام لمعلم العربية .. ان هؤلاء القوم موجودون فعلاً إلا أنهم أقلية أعطيناها نحن أكثر مما تستحق من الاهتمام ثم أن الكثير منا ـ وهذا أيضاً لا أشك فيه ـ لا يوحون بالاحترام ولا يفرضون أنفسهم بالعمل والجد والمواظبة بقدر ما يحاولون فرضها بالمطالب والتشكي والبكاء والثورة .. أعتقد أن كل ذلك مضيعة للوقت لا يتقدم كثيراً بقضية التعليم في بلادنا . ان ما يقضي على كل هذه الأعراض المؤقته من المرض هو أن نحول حماسنا من المناقشة الصاخبة في المجالس إلى عمل صامت في المدرسة . لو كان كل معلم بالعربية يتحمس هذا الحماس الصامت للعربية ببذل الجهد ليلاً ونهاراً في تكوين نفسه ثقافياً وأخلاقياً ، وفي الاهتمام بتلاميذه اهتماماً متواصلاً ، وتوجيه الضعفاء منهم توجيهاً خاصاً حتى يلتحقوا بالأقوياء منهم ، وحتى يعطي من النتائج أقصى ما يسجل من النجاح في الامتحانات ، وفي كل سنة تتخرج على يده نخبة من التلاميذ اللامعين ، فانه في ظرف سنتين أو ثلاث سيجد كل المدرسة بما فيها المدير وكل الجو المدرسي بما فيه أولياء التلاميذ لا يحترمونه فقط بل يرفعونه إلى مكانة التقديس ، وعندئذ يشعر أن كلمة « كاد المعلم أن يكون رسولا » قد أخذت معناها الحقيقي في بلادنا وأنها ليست مجرد خواطر شعرية عند شوقي !

ومن حسن الحظ أننا اتفقنا على صحة هذا الموقف ورأيناه العلاج الصحيح لقضية التعليم والمعلمين بالعربية .

والتفت إلى صاحبنا التاجر الذي لم يشاركنا في شيء من المناقشة فقلت وأنت ما رأيك في الموضوع ؟ فقال : أنا بعيد عن مناقشتكم . وكل ما أعرفه هو أن أبنائي ضعاف بالعربية والفرنسية معاً ، ولا أدري لماذا تفصلون قضية التعليم هذا الفصل المنكر بين تعليم بالعربية وتعليم بالفرنسية .. ان هذا التطاحن بينكم ـ على ما أرى ـ يوشك أن يجعل كل فريق منكم ينصرف عن مهمته العلمية والعملية إلى مهمة

التحاكك والتنابز بالألقاب ويبقى التعليم بدون علاج .. أخشى أن يقع لكم ما وقع لنا في ميدان الاقتصاد .. التفتنا إلى الأغنياء فقلنا لهم : إننا سنفتك منكم كل ما تملكون . فتوقفوا عن العمل لأن السلطة ستفتك منهم ثمار عملهم .. ثم التفتنا إلى الفقراء فقلنا لهم إن الدولة ستعطيكم كل شيء ، فتوقفوا هم أيضاً عن العمل لأن الدولة هي التي ستنفق عليهم . وبقيت البلاد في مكانها.أرجو أن لا تكرروا هذه المأساة في ميدان التعليم أيضاً .. بأسلوب آخر .

العربية ... والنمل الأسود

لا أدري إذا كانت هذه الفتاة التي سأتحدث عنها اليوم تمثل جيلها في كل ما فيه من منازع واتجاهات وما يعانيه من مشاكل وهواجس .

هي ابنة صديق لي ، متطور الفكرة والعيش متمسك بدينه وشعائره متوسط الحالة الاقتصادية ، له معمل صغير ناشئ ـ دؤوب على العمل ، حريص على تربية أبنائه تربية متبصرة لا اطلاق فيها للحرية ولا امساك بالخيط حتى يتقطع ـ كما يعبر معاوية .

وهي شقراء الشعر بيضاء البشرة بياضاً مسرفاً بدينة القامة ذكية النظرة قليلة الكلام مخيفة الحجة : لا تصدق عليها كلمة (دانينوس) الكاتب الفرنسي الساخر : « إن الشيء الوحيد الذي تبغضه النساء وهو من ذهب ، هو الصمت » !

قدم بها والدها من داخل القطر لمعالجة مرض يخشى أن يتطور تطوراً لا تحمد عقباه .

استضفته وبقينا نتحدث في شؤون « الكبار » ، وراحت ابنتي التي تصغر ابنته

ببضع سنوات تسألها عن سير دروسها وسيرة معلميها . وكدنا أن نفترق عندما تقدمت مني ابنتي وقالت لي : « إنك لم تسأل زهية عن دروسها ، لماذا لا تتحدث معها في مشاكل الدراسة . إنها قد تعطيك فكرة أنت في حاجة إليها » !

فلم أظهر عناية كبيرة باقتراح الطفلة حتى لا تلحظ مبلغ غفلة والدها الذي تظنه على خير كثير من الفطنة . وقلت لها بشيء من الاستخفاف : « حتى أنتم (لم أقل أنتن) عندكم مشاكل وأفكار تعطونها للكبار ؟ » ثم التفت للصديق والد الفتاة وسألته : هل لابنته مشاكل مدرسية ؟ فقال : « ليس لها أي مشاكل فيما أعلم . أو هي على الأقل لم تفاتحني بشيء من هذا القبيل » .

ولكن ابنتي أصرت على أن هناك قضايا خطيرة لا يجوز لنا نحن الكبار أن نهملها ونتحدث فقط عن الضرائب وموسم الزرع ومشكلة فلسطين . ثم نهضت دون أن تطلب الاذن من أحد وقالت : سآتي بها اليكم حالاً ... وبعد لحظات أدخلتها إلى غرفتنا وهي تقول لها : « تعالي . حدثي هؤلاء الآباء عن مشاكلك ، وبدون خجل » .

وكانت الفتاة محمرة الوجه خجلاً بالفعل . فسارعت من ناحيتي لهدم الجدار وحذف المقدمات وقلت لها : انك تشكين حتماً من كثرة الدروس وتزاحم المواد . إنه أمر طبيعي في مستواك ، انها مشكلة لم يحن بعد وقت الحديث عنها . ولكن لا بأس سنسمع رأيك في الموضوع .

وحاولت ابنتي أن تتكلم من جديد فأسكتها ، وقلت أتركي الكلمة لمضيفتك المبجلة فقالت الفتاة : « ليست مشكلة كثرة المواد . ولكنني شخصياً حزينة حزناً لا أستطيع التعبير عنه لسبب واحد ، وهو أننا في القسم نقبل على كل المواد وكل الدروس وكل الأساتذة بنشاط وخفة ومرح واستعداد ما عدا دروس العربية وأساتذتها لماذا ؟ إنني أحب لغتي . ولكني لا أشعر بأي حماس لتعلمها . ما هو السبب ؟ وكثير من زميلاتي يحتقرون معلم العربية كأنه يأتيهم متسولاً . فإذا استعمل معنا اللين قابلوه بالسخرية ، وإذا استعمل الشدة ردوا عليه بوقاحة . لماذا ؟ لم أعرف السبب

في حين أن درس الانكيزية مثلاً يصبحون فيه مثال اللياقة والنشاط والحماس . لماذا ؟ إن هذا ما يحزنني ، ولم أعرف له سبباً » وسكتت الفتاةعندما شعرت بالتأثر يقطع أنفاسها ، وخيل إلي أن عينيها أغرورقت بالدموع ، ولكنها تأبى البكاء . والتفت إلى أبيها فوجدته مندهشاً لما تقول ابنته ، وكأنه يسمعه لأول مرة . فأدار إلي وجهه بدوره وابتسم ليخفي تأثره هو أيضاً .

فقلت : يا صغيرتي . انك تريدين أن تعرفي السبب لكل هذه الألغاز. وحرصك على معرفة السبب هو بذاته شيء يسر ويدعو إلى التفاؤل : إن جيلنا ـ أنا وأبيك ـ عندما كنا في مثل سنكم لا نبحث على سبب لأي شيء . بل كنا نعتقد بكل بساطة أن كل ما خلقه الله فرنسياً كان راقياً وجميلاً ، وكل ما خلقه عربياً كان قبيحاً منحطاً . هكذا . كما خلق الله الجبال أكبر من الخنافس . وعلى ذكر الخنافس : كنا نلعب بالنمل ونحن أطفال ، وهو عندنا نوعان ، نوع أحمر كبير له أجنحة يطير بها ، ونوع آخر أسود صغير لا يطير وليست له أجنحة ، فكنا نسمي الأسود الصغير « نمل عربي » ونسمي النمل الأحمر الكبير « نمل فرنسي » . ولم يكن يخطر على بالنا قط أن نبحث عن السبب في ذلك . فأنت ترين إذن أنكم تقدمتم عنا كثيراً . واليوم تسمعين حديثاً في كل مكان عن العالم المتخلف أو العالم الثالث أو العالم السائر في طريق النمو . فهل تعرفين ما هو هذا العالم ؟ هو بالضبط هذا الفرق الذي تلاحظينه وتبحثين عن أسبابه ، هذا الفرق بين المعلم العربي والمعلم الأجنبي ، والطبيب العربي والفلاح والأم والبنت . أنت نفسك يا صغيرتي ، بنت متخلفة وتلميذة متخلفة ، لأن مثيلتك في هولاندة أو أميركا أو روسيا قد فرغت من كل ما تتعلمينه الآن عندما كانت في الثامنة من عمرها . الفرق بين العالم المتطور والعالم المتخلف هو أن الأول قد تخلص من الحشو والثاني ما تزال تسعة أعشار حياته حشواً لا فائدة منه إلا مضيعة العمر .

أنت لا تعرفين إلا ما يلقن إليك وما أنت مطالبة به في الامتحان ، بينما لا تطالعين كتباً لتنمية معلوماتك الشخصية الخارجة عن دروس الامتحان . ومعلمك يودع الكتب يوم يودع آخر امتحان في حياته ، والمحامي لا يقرأ كتاباً واحداً عن

تطور القانون منذ أن نجح في الامتحان والصيدلي لا يريد أن يعرف شيئاً عما يمكن أن يكون في أعشاب بلاده من أدوية ، انه لا يهتم إلا بأرباح ثلث الفائدة وكيف ينفقها في شهوات مصطنعة . والصحفي يمتهن الصحافة سنوات وسنوات وهو لم يقرأ في حياته كتاباً واحداً عن مهنته في حين أن كل هؤلاء الأقوام في الأمم الأجنبية لا يتوقفون عن مواصلة تكوين أنفسهم كل في ميدانه بواسطة القراءة المستمرة ومتابعة التطور الذي يحدث فيها والذي لا يعرف نهاية .

ومعلمو العربية كغيرهم عندنا في أي ميدان آخر مقتصرين على القواعد التي تعلموها منذ سنوات ، والطرق والأساليب التي تعلموا بها هي التي يطبقونها في تعليمها لكم . ولا يخطر على بالهم أنكم أنتم تلاحظون : تلاحظون الفرق بينهم وبين زملائهم الأجانب ، وهذه الملاحظة من جانبكم مهما كانت مؤلمة هي جانب ايجابي ومفيد جداً . ولكن ما يختلط عليكم في الأمر هو أنكم تحسبون النقص في العربية لا في معلمها وتحسبون أن العربية خلقها الله هكذا وستبقى هكذا . وأنا أحب أن أؤكد لك بأن اللغة صورة لأهلها فإذا كانوا متخلفين فان اللغة لا تستطيع أن تكون راقية وحدها . وإذا كان أهلها لا يوحون إليكم بالاحترام ولا يعرفون معاملتكم بقوة وبهدوء في آن واحد ، فان اللغة وحدها لا تستطيع أن تفعل ذلك . وأحب أن أطمئنك بأننا عندما نتغلب على التخلف في مختلف الميادين ، فان رقينا في اللغة سيسير جنباً إلى جنب مع رقينا العام . وأن نظرتنا اذن خاطئة عندما تنحصر في ميدان واحد مهما خيل الينا أنه سهل وبسيط كموضوع مقارنة معلم بمعلم آخر . إن معلم العربية لا يمكن أن يساوي معلم الانكليزية في حين أن الأمة العربية بجملتها لا يمكن أن تقارن بالأمة الانكليزية . كلا يا صغيرتي لا تعتقدي أنت أيضاً أن العربية هي النمل الأسود .

فلاسفة يحدثون المعلمين

« ويليام جيمس » ليس فيلسوفاً ذرائعياً ، أو بالأحرى ليس هو أب الفلسفة التي كونت هذا المجتمع الأميريكي الذي فاض على العالم بانتاجه الغزير من الخيرات والشرور فحسب . وإنما هو إلى جانب ذلك يعتبر عالماً من أعلام التربية وعلم النفس الحديث . وأسلوبه الكتابي يمتاز بالبساطة بل بالتبسيط المحبب إلى النفس وبالوضوح الذي يبرهن على النضج وسعة المعرفة ، وبالفكاهة التي تدل على نفس سمحة طليقة .

ولا أدري إلى أي حد اهتم المعلمون والأساتذة عندنا بآرائه في التربية ، ولا أدري هل يستطيع أحد في عصرنا الحاضر أن يمارس مهمة التعليم دون أن يستعين بآرائه القوية الواضحة وتجاربه المتنوعة الواسعة . وسوء ظني بمثقفينا ـ الذي أرجو أن أكون مخطئاً فيه ـ يجعلني أميل إلى أنهم لا يقرؤون ما يجب قراءته في مهنتهم أو لتنويع ثقافتهم العامة ، فالقراءة عند الكثيرين منا لا تعتبر لذة بل مشقة . فهل هذا صحيح ؟

أي مشقة تجدها في قراءة كتاب لهذا العالم الكبير فتجد فيه إلى جانب النظريات

الفلسفية المبسطة في علم النفس والتربية ـ تجد مثل هذه القصة :

« ... وبعد كل شيء وفوق كل شيء فكياسة المعلم وبصيرته النافذة هما العامل الحاسم في احداث الأثر الصحيح واحراز النتيجة السليمة ... والصعوبة الكبرى في المجردات هي في معرفة أي المعاني التي يربطها الطفل بالكلمات التي يستعملها ، ماذا نثير في ذهنه ؟ كان أحد أقاربي يشرح لبنت صغيرة معنى « المبني للمجهول» فقال لها : افرضي أنك قتلتني . فأنت التي تقومين بالقتل تكونين في « المبني المعلوم » وأنا الذي ينقتل أكون في « المبني للمجهول » ، فسألته الطفلة الصغيرة « ولكن كيف تستطيع الكلام إذا كنت أنت الذي قتلت » فأجابها قائلاً « تستطيعين أن تفترضي أنني لم أمت موتاً تاماً » .

وفي اليوم التالي سئلت الطفلة في القسم أن تشرح الكلام في المبني للمجهول فقالت : « هو نوع من الكلام الذي تتكلم به عندما لا تموت موتاً تاماً » .

وقصة أخرى عن هذه القاعدة التربوية :

إن الطفل دائماً يولي اهتماماً لما يفعله المعلم أكثر مما يوليه لما يقوله . فأثناء اجراء التجارب أو عندما يرسم المعلم شيئاً على السبورة يخيم الهدوء على الأطفال ويقيد انتباههم . لقد رأيت قاعة ممتلئة بطلاب الجامعة يخيم عليها الصمت والهدوء فجأة لكي يشاهدوا أستاذهم وهو يربط فتلة من الخيط حول عصا كان يزمع استعمالها في تجربة ، ثم لم يلبثوا أن تململوا وهمهموا وغمغموا بمجرد أن بدأ في شرح التجربة . وأخبرتني سيدة أنها ذات يوم في أثناء الدرس كانت في غاية الامتنان لأنها استطاعت أن تسيطر سيطرة كاملة على انتباه أحد التلاميذ الصغار الذين وكل إليها أمرهم . وظلت عيناه مثبتتين في وجهها ، ولكنه قال لها بعد انتهاء فترة الدرس : « لقد كنت أنظر إليك طوال الوقت فلم يتحرك فكك الأعلى ولا مرة واحدة » .

تلك هي الحقيقة الوحيدة التي عرفها الطفل حقيقة الحركة ، الأشياء الحية هي التي تثير الاهتمام الفطري للطفولة ولا شيء سواها تقريباً . ومعلم الأطفال ينبغي أن يجاري تلاميذه باللجوء المستمر لهذه الأشياء ليظل اهتمامهم موصولاً وشغفهم

نابضاً حتى تنضج لديهم اهتمامات أخرى مكتسبة . ينبغي أن يقوم التعليم إذن على موضوعات حية ملموسة محسوسة وأن ينتهج نمطاً تجريبياً ويسلك سبيلاً قصصياً . فالرسم على السبورة وسرد القصص ينبغي أن يفسح لهما المجال في التعليم أكثر من غيرهما من الوسائل ... » .

نستطيع أن نسمي هذه الطريقة التي يدعو إليها « جيمس » بالطريقة التطبيقية في التعليم . ولكن هل معنى ذلك أن هذه الطريقة بدعة في فن التربية والتعليم . دع عنك كتب « جيمس » وتناول المقدمة لابن خلدون فماذا تجد في نفس الموضوع ؟ يقول هذا الرجل الذي درس كل شيء في مجتمعنا : « ان صناعة العربية هي علم بكيفية ، وليست كيفية ، أي أنها ليست نفس الملكة . إن معلم الخياطة الذي لا يحكم ملكتها يقول : الخياطة هي أن يدخل الخيط في خرت الابرة (ثقبها) ثم يغرزها في لفقي الثوب مجتمعين ، ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ، ثم يردها إلى حيث ابتدأت ويخرجها قدام منفذها الأول بمطرح ما بين الثقبين الأولين ، ثم يتمادى على ذلك إلى آخر العمل . فهو يعطي صورة الحبك والتثبيت والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها ولكنه إذا طولب أن يعمل ذلك بيده لا يحسن منه شيئاً ... وهكذا العلم بقوانين الاعراب مع هذه الملكة نفسها . فالعلم بقوانين الاعراب هو علم بكيفية العمل ، وليس هو نفس العمل ، ولذلك نجد المحيطين علماً بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده لم يجد تأليف الكلام ... فمن ذلك تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية ، وأنها مستغنية عنها بالجملة ... وأهل المغرب وأفريقيا أجروا صناعة العربية على غير ما قصد منها وأصاروها علماً بحتاً فبعدوا عن ثمرتها » .

لا أريد أن أقول بعد هذا : إن ابن خلدون يدعونا إلى الاهتمام بالأمثلة لا بالقواعد ، و « جيمس » يدعونا إلى أن تكون هذه الأمثلة حية آسرة لانتباه التلاميذ .

هذا النشء الصعب ... كيف نعلمه !

أعترف قبل كل شيء بأنني لم أتفطن ولم أكن أتوقع أن تأتي مثل هذه الملاحظات والأفكار وردود الفعل من جانب جيلنا الناشئ .

ولذلك أسارع إلى عدم مؤاخذة زملائي المعلمين والأساتذة إذا لم يتفطنوا إليها بدورهم ولم يتوقعوها . وإنما أكتب هذه الكلمة إذن لنأخذ منها جميعاً الدرس الذي يمليه علينا الموقف فقط .

١ – حدثني صديق يمارس هو أيضاً مهنة التعليم بأنه كان على مائدة الغداء مع زوجه وأولاده عندما سأل أحدهم عن الدرس الذي تلقوه في الصباح . فأجابه الابن بأن المعلم أعطاهم درساً في أحد الأوزان الفعلية وتصريفه . فقال الأب : أعد لي تصريف الفعل ، فأعاده الطفل محرفاً بعض الشيء . فرد عليه الأب بما يقوم اعوجاج القاعدة النحوية عند الطفل ، ولكنه اندهش عندما أجابه ابنه بعدم اكتراث ظاهر وقال : هذا لا يهم . فقال الأب : وكيف لا يهم ؟ انك تنطق بالعربية معوجة ومكسرة . وإذا لم تقوم لسانك وأنت صغير فستكبر على الاعوجاج ولا ينفع معك

التقويم عندئذ . فقال الابن بكل بساطة : أنا أعرف بأن اللغة التي سنتكلم بها غداً لن يكون فيها كل هذا « التصعيب » في القواعد الذي يوجد فيها اليوم . كما أنكم أنتم اليوم تدرسون اللغة العربية التي تكلم بها العرب في السابق ولكنكم لا تستعملونها في حياتكم . انكم تدرسون لغة وتستعملون لغة أخرى .

٢ – وجاءت ابنتي أنا تسألني : هل صحيح أن الناس سيعذبون في الآخرة بالذهب والفضة وتكوى بها جباههم وضلوعهم؟

فقلت من الذي قال لك ذلك ؟ قالت : المعلم ! وقد قرأ لنا آية من القرآن ، فقلت : وأي غرابة تجدينها في ذلك ، وماذا يدهشك في الأمر ؟ فقالت : أدهشتني هذه الصورة المخيفة ؟ لماذا يكون التعذيب بهذا الشكل ؟ فقلت : يا بنيتي ، إن هده الصورة المخيفة لم تجعل لكم أنتم الأطفال الصغار . وإنما جعلت لتخيف الأغنياء الكبار الذين تكون لهم أموال كثيرة وحولهم الفقراء من أقاربهم وجيرانهم يقاسون البرد والجوع والعري فلا يرحمهم الأغنياء . فقالت : ولكن يمكن أن يسلط عليهم عقاب من نوع آخر . فلماذا يكون التعذيب بالحرق فقلت لها : ومع ذلك فان هذه الصورة التي تخيفك أنت لا تخيف هؤلاء الأغنياء ولا تحرك عواطفهم . فقالت : ولكن لست أنا فقط . إن كل زميلاتي مثلي . اننا لم نستطع أن نسأل أستاذنا ولكننا خرجنا غير فاهمين لماذا كل هذا التعذيب !

٣ – الدرس الذي نأخذه من هاتين القصتين : في رأيي : ينبغي أن نقتصر في تدريس اللغة على القواعد الأساسية منها وتبسيطها والاكثار فيها من الأمثلة الحية والمحفوظات التي تشتمل على صور متعددة لتطبيق تلك القواعد . وأن نوجه عنايتنا إلى هذا التطبيق أكثر من القواعد نفسها . وان نتعظ بما قاله لنا ابن خلدون من كون هذه الطريقة هي سبب ضعف المغاربة في تطبيق القواعد على الاستعمال ، بعكس ما عليه الشأن في المشرق . وهذه الملاحظة ما تزال قائمة منذ عصره إلى اليوم . كذلك الأمر فيما يتعلق بدروس الأخلاق ينبغي أن لا نسرع إلى الاستشهاد بالآيات القرآنية دون تمييز بين الكبار والصغار ، وبين مواعظ المسجد ودروس القسم . إن مثل هذه

الآيات قد نزلت بحق في شأن القلوب القاسية التي يحملها الكبار والتي زاد من قساوتها كثرة التكالب على المتع المادية ، وهي بهذا الاعتبار قد صادفت محلها . إنها صورة في منتهى الروعة ككل صور القرآن الكريم التي اشتهر فيها ببلاغته القوية وإعطاء لوحات حسية تشع منها الرهبة ودواعي الخشوع . أما بالنسبة للصغار ، فيبدو لي أن في القرآن وفي الأحاديث النبوية وسيرة الخلفاء ، من الأمثلة والقصص ما يثير في الطفل مشاعر العطف والرحمة والتضحية والسخاء كقصة النبي عليه السلام مع القطة ، وقصة عمر مع العجوز وأطفالها الجياع ونحو ذلك من الأدب الأخلاقي الذي ملئت به الشريعة السمحة وسيرة رجالها الأولين .

نصح أفلاطون أن لا يدرس الشباب الفلسفة إلا بعد تجاوزهم سن الثلاثين . فينبغي إذن أن نعرف كيف نحبب الأخلاق القرآنية والاسلامية للصغار بشكل غير الذي نعطيه للكبار . وأن نطلع في هذا على شيء من آراء الفلاسفة والمربين الاسلاميين أنفسهم مثل الغزالي وابن رشد ، فقد عانوا قبلنا هذا النوع من المشاكل واهتدوا بشأنها إلى حلول لا تخلو من فائدة وطرافة ، وخاصة فيما يتعلق بما يجب أن يعلم للكبار وللصغار ، وللعامة والمثقفين إلى آخره .. أي فيما يتعلق بالمستويات العقلية المختلفة .

أما النصيحة الأخيرة التي أستسمح زملائي في إلفات نظرهم إليها ـ وذلك عن تجربة عشرات السنين ـ فهي أنه لا شيء يساعدهم على النجاح مثل فتح باب الحرية في المناقشة للتلاميذ وتوجيه الأسئلة إليهم بشكل ودي لين ، وافساح المجال لهم لكي يعربوا عن أفكارهم بحرية ، وتعويدهم فقط على ملازمة اللياقة والآداب والتجرد فيما يناقشونه من أفكار .

إننا نعيش في عصر لم يعد فيه هذا النشء « الصعب » يقتنع بكل ما نقوله بسهولة .

الرسالة المنبرية

جاءتني هذه الرسالة من معلم آخر فلماذا لا أقرؤها عليكم ؟ إنها تهم كل أحد من عائلتنا الثقافية في بلادنا :

حضرة الأخ المحترم ...

أنا لا أكتب في الصحف . لا لأني أترفع عنها ، بل لأنني خجول ، يخيل إلي أنني عندما أكتب في الصحف كأنني أتحدث . وأنا لا أحسن الحديث ، والحديث موهبة ، وقد حرمت هذه الموهبة .

ولكني بدلاً من ذلك أميل إلى التأليف . هي كما ترى مشكلة ولكنها بسيطة ، لا أحب الكتابة في الصحف وأميل إليها في التأليف . ولا أحب الحديث في المجالس ولكني لا أمله في قاعة الدرس . لعلها مسألة ذوق فقط . أو أرجو أن تكون كذلك ، ومن المحتمل أيضاً أنني أكره التزاحم : أرى أكثر كتابنا يتزاحمون على أدب المقالة في الصحف . وقليل منهم من يلتفت إلى أدب الكتاب . وأدب المقالة سهل : تكتب

كل ما يخطر على البال . أما أدب الكتاب فلا بد لك فيه من سهر وبحث وتعب . ولعل مما ينفّر من أدب الكتاب أن النتيجة فيه بطيئة ، والعمل طويل . هو أشبه بغرس الشجرة : لا بد لك من العناية بها عدة سنوات قبل أن تعطيك ثمرة ما . أما أدب المقالة فهو كغرس الخضر : بضعة أسابيع من السقي وإذا الثمرة يانعة متبرجة كما يقول الشاعر . ونحن قوم نحب أن نأكل الغلة قبل أن نغرسها .

ألفت لحد اليوم كتابين اثنين . لا أذكر لك موضوعهما ولا اسميهما حتى لا تظن أنني أقوم هنا بعملية اشهار لهما . وثاني الكتابين صدر منذ نحو الشهرين . وكلما تقابلت مع صديق من الأصدقاء إلا وهنأني بالتوفيق الذي حالفني ــ حسب التعابير المستعملة ــ وتمنى لي حسن العاقبة لما هو أهم . ولكنه في الغالب لا يزيد شيئاً على ذلك . فأسأله هل لديه ملاحظة أستعين بها على تلافي النقص في الطبعات القادمة للكتاب ؟ فيقول : لا ! ليس عندي شيء معين ألاحظه : الموضوع طريف . والأسلوب جميل . والمجهود كبير يستحق الاكبار إلى آخره ... فأفهم أنا من كل ذلك أن محدثي لم يقرأ الكتاب . وإنما رآه في بعض واجهات المكتبات ورأى اسمي عليه فاكتفى بهذا المجهود في تشجيع الانتاج الوطني . وإذا بلغت الصراحة حدها الأقصى عند بعضهم الآخر فإنه لا يتردد في الاعتراف لي بأنه رأى الكتاب ولكنه لم يشتره لأنه مغتاظ . لماذا ؟ لأنني لم أهد إليه نسخة منه . فاعتذر بأن الناشر لا يعطيني إلا عدداً محدوداً من النسخ وأنني لا أستطيع أن أوزع على كل أصدقائي ــ وهم كثير والحمد لله ــ نسخة نسخة من الكتاب فيجيبني : ولكنني أنا لست كالآخرين !

حضرة الأخ المحترم . أود أن لا تفهم أنني أكتب اليك هذه الرسالة لأثير قضية تهم شخصي . إن الكتاب الثاني كادت طبعته الأولى أن تنفد لأن موضوعه هام وبذلت فيه جهداً أكثر من الأول . وقد تعلمت من ذلك درساً بليغاً : وهو أن جمهور قرائنا يقدر قيمة الكتب ويميز الغث منها والسمين . وأنا الآن أعد طبعته الثانية منقحة ومزيدة لأنني أدركت أن شعبنا متعطش للانتاج القيم .

إنني هنا أحب أن ألفت نظركم إلى قضية تتجاوز انتاجي الشخصي . وثق أيها الأخ أنها لو لم تكن كذلك لما أثرتها . انني أخشى أن تكون القضية أهم من ذلك . بل لا أشك الآن في اننا معشر المثقفين في الجزائر نعاني مرضاً وطنياً : اننا نشتكي من قلة الانتاج . ولا حديث لنا في المجالس إلا عن أزمة الانتاج وعقم المواهب . ولكن عندما يقوم أحدنا بأي مجهود سواء كان ضخماً أو تافهاً لا نجد له أي صدى في صحفنا .

إنني لا أذكر ـ وأرجو أن يكون قد حدث ذلك وفاتني الاطلاع عليه ـ إن صحيفة من صحفنا أو برنامجاً من برامج اذاعتنا قد تحدثت عن بعض انتاجنا الوطني في الميدان الثقافي ان بالنقد أو التنويه . نشتكي من قلة الانتاج . وكانُ الأولى أن نشتكي من قلة اعتنائنا بالانتاج . ان من يقرأ صحفنا الأدبية أو السياسية يجد فيها أصداء عامرة عما يصدر في الخارج من كتب وبحوث ظهرت حديثاً . ولكنه لا يجد فيها صدى لما صدر في دارنا من ذلك الانتاج . وخاصة إذا طبع في مطابعنا وهي ما هي عليه من قلة وسائل التجميل ..

وليس هذا المرض خاصاً بالمثقفين بالعربية . لذلك قلت أنه مرض وطني . فزملاؤنا المؤلفون بالفرنسية يتألمون لنفس الظاهرة . فما هي علة هذه العلة ؟ هل هو التواضع الذي اشتهر به الجزائريون : لا نحب أن نتحدث عن انتاجنا أو نفخر بمجهودنا ؟ هل هو مركب نقص جعلنا ننظر إلى ما يأتينا من الخارج بعين الاكبار وننظر إلى ما ينبع من أرضنا بعين الاستخفاف ؟ هل هو الكسل العقلي : نكتب عن انتاج الخارج لأننا وجدنا غيرنا كتب عنه ومهد لنا الطريق وأرانا كيف ننقده ولو لم نقرأه . في حين أن ما يصدر عندنا لا بد من قراءته لكي نكتب عنه ؟ هل هو نقص في شعورنا بشخصيتنا ما نزال منه في عمر الرضيع لا يفرق بين اصبعه وثدي أمه ؟

لا أدري أي هذه الأمراض نعاني . ولعلنا نعانيها جميعاً . ولكن الذي أدريه بحق هو أن هذا المرض « الوطني » لا يعانيه منا جمهور القراء من الطبقات الشعبية

بقدر ما تعانيه الطبقة المثقفة ـ وهو تناقض صارخ ـ وإلا فكيف نفسر رواج كتبنا من ناحية وسكوت مثقفينا عنها من ناحية أخرى ؟

وما أريد أن الح عليه بصورة خاصة في النهاية هو أننا لسنا نطلب من المثقفين أن ينوهو بانتاجنا مهما كانت قيمته . بل نطلب أن ينقدوا . أن يشاركوا المؤلفين في النشاط الثقافي . أن نجد لديهم أصداء لما يجري في بلادهم من مجهود ثقافي . فهذا التجاوب في الأصداء هو الذي يشجع الكتاب على التأليف ويبصر القراء بقيمته ويكون حياة ثقافيه غزيرة في البلاد . إن الانتاج وحده لا يكفي ، بل التجاوب بين المنتج والمستهلك هو الذي يوفر لنا ما نحن في حاجة إليه من شعور : بأننا لا نعيش في صحراء صامتة !

ترابط المشاكل .. وترابط الحل !

أعجبتني كلمة لأحد الكتاب قال فيها : « اننا نلوم فتياتنا على لبس الأزياء القصيرة ولكن لماذا نسمح باستيراد هذه الأزياء ونعرضها في واجهات الدكاكين بصورة مغرية أمام أنظار فتياتنا ؟ » .

إن الجانب الأخلاقي مرتبط بجانب تجاري . ولكننا إذا وجهنا المشكلة إلى وزارة التجارة وطلبنا منها عدم استيراد هذه الفضائح نجد هذه الوزارة لا تفكر في الجانب الأخلاقي من المشكلة بل الذي يهمها مثلاً هو أن هذه السلع يطلبها التجار وهي لا يعنيها من الموضوع إلا أن تدخل منه لخزينة الدولة مكاسب الرسوم الجمركية .

ونحن نستطيع أن نتوسع بعض الشيء في شرح هذه الظاهرة : كل بضائع الترف المغرية من الملابس والشراب وأدوات الزينة والأثاث والسيارات ، وكل ما تنتجه المصانع الأوروبية لطبقة الأغنياء والموسرين في بلادها ، نفتح له باب أسواقنا ونعرضه لموظفينا السذج الكبار والصغار ، ويراه نساؤهم الأكثر منهم

سذاجة ، فيتحلب ريقهم لرؤية هذه المغريات ، ثم نطلب من هؤلاء الموظفين أن يكتفوا في حياتهم بمرتباتهم التي لا تكاد تفي بضروريات العيش ، ونطلب منهم أن يكونوا مستقيمين في سلوكهم ويبتعدوا عن أساليب الرشوة والاهمال ويهتموا بهموم الشعب . إن هذا تناقض . وسخطنا على هذه النتائج هو تزييف للمشكلة لأننا نهمل أسبابها . ونحن نحرص على ادخال الضرائب لخزينة الدولة ، ولكننا لا نشرح للشعب لماذا هذا الحرص ، وما هي فوائد الضريبة ومن يستفيد منها وماذا نفعل بها ، وكيف أنها تحصن وضعنا الداخلي وتقينا من شرور القروض الأجنبية ، إننا لا نشرح للشعب شيئاً من ذلك ثم نسخط على التحيل والتهرب الذي يقوم به الشعب ليتفادى دفع الضرائب ، وننفق جهود موظفين آخرين للقيام بالمراقبة الصارمة وتشديد الخناق على الذين يتباطؤون في دفع أداءاتهم ، في حين أن عملية الشرح والتفهيم جديرة بأن تقنع القسم الأكبر من الناس بضرورة القيام بهذا الواجب الوطني .

إن الأمثلة عديدة لمن يريد أن يحصيها ، وكلها تبين ترابط القضايا بعضها ببعض ، وتبين أن معالجة الظاهرة دون البحث عن السبب هو عمل طبيب فاشل .

إن ما يجب أن نقتنع به هو أن مهمة الاطارات الثقافية والإدارية ، ومهمة الدولة والحزب والمنظمات الجماهيرية نحو الشعب هي مهمة التربية والتكوين . والتربية والتكوين يعتمد على التفهيم والشرح والاقتناع والتكرار ـ كما يقوم إلى جانب ذلك على ممارسة سلطة متبصرة ولكنها صارمة .

إن هذه المهمة التي تولى علاجها المفكرون في جميع العصور وجميع الأديان والنظم في جميع الحضارات ، هي مهمة الأب الحازم مع أبنائه : تنمية القوة الذهنية بالتفهيم والتكرار مهما كان مملاً ، وتنمية القوة الجسمية بتوفير الغذاء السليم وتسوية الجميع فيه . وتنمية القوة الأخلاقية باستعمال السلطة الحازمة ، والبعد عن أساليب اللين والانحلال والتدليل .

والكثيرون منا يتوهمون أن مثل هذه « النصائح » سهل اعطاؤها ، ولكن من الصعب تطبيقها . وأنا لا أؤمن بهذه القاعدة . إن كل شعب قادر على استعمال

وسائله وامكانياته لتحقيق هذه المهمة . والعقبة الوحيدة ـ ولا أقول الصعوبة الوحيدة ـ هي الاقتناع بها والاقدام على استعمالها والايمان بأنها هي الطريق .

لقد قال الرئيس بومدين يوماً عن كارثة الخامس جوان في المشرق : اننا لم نستعمل كل امكانياتنا في المعركة ولهذا انهزمنا . وهذا القول في نظري صحيح أيضاً في ميدان البناء الداخلي . إنه لا أحد يستطيع اليوم أن يزعم بأننا استعملنا كل امكانياتنا في معركة البناء هذه ، ولهذا نصادف كثيراً من الفشل في مواجهتها .

فإذا كنا نؤمن بالشعب كقوة أساسية في هذه المعركة فان أول واجب علينا هو أن نتوجه إليه هو قبل كل شيء فنفهمه ونشرح له أولاً ونضرب له المثل بأنفسنا وبسلوكنا ثانية ونحمله على العمل والجد أخيراً .

عن تطورنا الثقافي

– ترى هل هذا سر من أسرار قفزات التطور التي نجتازها أم أنه ثمرة تطور بطيء لم نشعر به في حقبة المخاض إلى أن تفتح وأخذ يبرز أزهاره وثماره ؟

– عن أي شيء تتكلم ؟

– أتكلم عن هذه الفورة من النشاط الثقافي الذي ظهر في بلادنا فجأة منذ شهر أو نحوه . فقد سمعنا أن الأسبوع الثقافي الذي أقمناه في تونس قد أحرز على نجاح لم نكن نتوقعه ، بل كان الكثيرون منا يشفقون من نتائجه على سمعة بلادنا بعد الفشل الذي منيت به فرقنا الرياضية في ألعاب البحر الأبيض المتوسط .

وبعد ذلك النجاح برزت في شهر رمضان بوادر نشاط محسوس في برامج الاذاعة والتيليفزيون والمسرح والصحافة ونشر الكتب والدواوين الشعرية ، وحتى في اتحاد الكتاب الذي قدم لنا محاضرة قيمة ألقاها الدكتور سعد الله ، وقيل لنا بهذه المناسبة إن له برنامجاً كاملاً من هذا النشاط سيقوم به في بحر هذه السنة .

كما أن الجمهور من ناحيته أظهر اهتماماً جديداً من التقدير والاقبال على هذا النشاط لم يكن في حسباننا .

صحيح أنها ظاهرة ينبغي الاعتناء بها . ويبدو لي اننا نستطيع ارجاعها إلى سببين : الأول هو ان ثمار التطور في هذا المجال الثقافي لا تظهر إلا بعد أمد من المخاض طويل . والثاني هو حملات النقد المرير الذي اشتهر به الجزائريون وصعوبة ارضاء أذواقهم بالهين من الانتاج . فنحن من ناحية لا نقبل بالإنتاج الهزيل ، ومن ناحية أخرى لا نبذل الجهود الكبيرة التي يتطلبها الانتاج الجيد ، وهذا ـ في نظري ـ هو السر في البطء الذي يستغرقه انتاجنا الثقافي حتى يظهر للناس ، ويؤتي أكله . إن كل واحد منا ـ ولا أتحدث هنا عن المنتجين الناشئين الذين لم يجربوا مرارة الفشل ـ أصبح لا يقدم على تقديم مسرحية أو مقال أو ينشر كتاباً أو يؤلف قطعة من الموسيقى ، إلا وهو يشعر بهيبة ورعب من الجمهور ، فيحاول أن يتقن ما أمكنه الاتقان ، وأن يعصر كل ما في مواهبه من قدرة . وهذه هي الناحية الايجابية من صعوبة أذواق الجمهور عندنا . أما الناحية السلبية فيه فهي أن صعوبته هذه قد قضت على كثير من المواهب بالفشل والتلاشي عند كثير من المنتجين الذين لا صبر لهم على الجهد المتواصل ، وإنما يعتمدون في انتاجهم على الموهبة وحدها .

أما عن قيمة ما ظهر في هذه الفترة القصيرة من نشاط في مختلف الميادين الثقافية ، فاني أكاد أجزم بأنه يدعو إلى التفاؤل . لا لأنه قد استقام له حظ من الجودة ، بل لأنه مجرد « تحرك » تحرك كسر الجليد وانطلق يبحث عن الحياة . أما الجودة فان مرحلتها ستأتي حتماً . لأن قضية الجودة لا تنفصل عن قضية الكم . فكلما كثرت أنواع الانتاج من ناحية الكم ، انفسح المجال للاختيار من خلال التصارع والتنافس ، وأمكن الحكم على الجيد بالنجاح وعلى الردئ بالانقراض .

ـ ولكنك هل تحكم على انتاج هذه الفترة كما لو كان مجرد بداية لتطور بعيد المدى نحن سائرون إليه بصورة مؤكدة . فهل هذا هو شعورك فعلاً ؟

ـ كلا . إنني أحترز وأحكم على هذا النشاط كما لو كان بداية فقط . والاحتراز هو أنه من الممكن جداً أن يكون هذا النشاط مجرد « فورة » عابرة سنرجع بعدها إلى الجمود الذي سبق هذه الفترة . إن تجارب الماضي قد علمتنا بأن بدايتنا للأشياء

أحسن من نهايتها ، وأن المخلوقات الطيبة ، تكون أجمل في صغرها منها عندما تكبر وتنضج ، وأن الشيخوخة هي المرحلة التي تأتي مباشرة بعد مرحلة الصبى لأننا لا نتعهد أعمالنا بالصقل والرعاية المستمرة حتى نطيل في عمر جمالها ونحميها من الجفاف السريع .

ـ هناك سؤال آخر له علاقة بمسألة القيمة هذه ، وهو مسألة الشخصية في هذا الانتاج ، أقصد الشخصية الوطنية طبعاً .

ـ هنا أعود بك (أو تعود بنا أنت) إلى شدة طموحنا واستعجالنا وصعوبة أذواقنا وحرصنا على الكمال من القفزة الأولى . إن قضية الشخصية وبروزها في الأثر الفني أو الفكري هي المرحلة الأخيرة من الكمال . ونحن الآن ما نزال في المرحلة الأولى : مرحلة الكم ، تأتي بعدها مرحلة الجودة الفنية وأخيراً مرحلة بروز الشخصية في حلتها الطبيعية الخالية من التكلف وآثار الانفعال والتقليد والحشو .

بعبارة أخرى لن يكون انتاجنا الفكري والفني معبراً عن شخصيتنا العربية العامة وصفاتنا الجزائرية الخاصة إلا بعد أن « نعيش » نحن فعلاً هذه الشخصية ونستعيدها في معاملاتنا وتفكيرنا ومشاعرنا . وهو كما ترى أمر يحتاج إلى سنين عديدة نتعلم خلالها تاريخنا الاجتماعي والفكري ونتخلص من رواسب التأخر والفوضى والتقليد والتناقض ، ونتقمص من جديد ما في شخصيتنا من إصالة ومعالم خاصة . وكل ذلك عملية تحول ضخمة ينبغي أن نقرأ لها حساباً مهما بلغ استعجالنا وحبنا للكمال والقفز إليه قبل أن تتوفر أسبابه .

إن مجاعتنا الفكرية مهما كانت ملحة ، فلا بد لها من أن تخضع لقانون الفصول الطبيعية ، أي ان ما نزرعه اليوم ينبغي أن ننتظر الفصل الذي تنضج فيه ثماره وكل ما نستطيع ، وما يجب أن نفعله ، هو أن نحسن عملية الزرع ، ولا نهمل رعايته متكلين فقط على عمل الطبيعة وحدها ، دون أن نعنيها من عندنا بجهد وتنظيم .

لقد اكتشف « داروين » قانون التطور الطبيعي فرحب به العالم المتمدن كثيراً . ولكن تفكيرنا الحديث أصبح يؤمن بأن التطور الطبيعي وحده لا يكفي وأن الانسان يستطيع أن يلعب دوره في هذا التطور .

هذا الصنف الآخر من المثقفين

هذه امرأة مثل آلاف مثلها ، نزحت إلى المدينة من قريتها الصغيرة بحثاً عن عمل تعول منه أولادها الأيتام الثلاثة ، ولها ابنة متزوجة أنجبت ثلاثة آخرين ، ولكن زوج ابنتها هذه أو بالأحرى أم زوجها طردتها من البيت وزوجت ابنها من امرأة « جديدة » وكل ما تطلبه هذه « المطلقة » هو أن يعطيها زوجها « طلقتها » حتى تتمكن من التزوج من رجل آخر فرفض الزوج ذلك لأن طلاقها على هذه الصورة الرسمية يستوجب نفقة يؤديها إلى أولاده الصغار الذين طردهم معها . فالتجأت الزوجة إلى أمها ، وسكنت معها في غرفتها الوحيدة التي أصبحت تؤوي ستة أيتام وثيبين ، وراحت الجدة العجوز تبحث عن عمل تعول منه هذه العائلة كلها . ووجدت العمل في بعض البيوت الموسرة بأجرة عشرين ألف فرنك شهرياً . وزرتها يوماً إلى بيتها فوجدتها بدون باب ، أو بالأحرى بابها هو خيشة منسدلة من أعلى الباب إلى أسفله . فقلت لها : ألا تخشين من السراق هكذا بدون باب ؟ فقالت لي : « وأي شيء يسرقه مني السارق ؟ ان أول ما يتعثر فيه عند دخوله هو الأطفال النائمون على الحصير . وهم آخر ما تقع عليه يده إذا أراد أن يحمل شيئاً » . قالتها وهي تضحك . فقلت لها : وقصة طلاق ابنتك ، أين وصلت ؟

فقالت : لا أدري ، كل ما أعرفه أن « البوقاتو » ـ المحامي ـ لا يريد أن يستقبل ابنتي إلا إذا حملت له في كل مرة خمس أو عشرة آلاف فرنك ، ثم يقول لها : ان مسألتك لم ينظر فيها « الجوج » بعد . وربما يكون ذلك في الشهر القادم . وقد مضى الآن ما يقرب من عامين ، و« البنت » غير مطلقة . وهؤلاء أبناؤها تراهم أمامك ، ولا ندري لمن نشكي . ولكن الله يعلم بكل شيء . انني لا أدري هل أعمل لأعيّش هؤلاء الأطفال أم لأسدد طلبات المحامي ؟

والقصة كما ترى لها جوانب عديدة . وأبسط ما يهم منها ليس هو جانب العائلة من اليتم والعوز والوحشة ، ولا جانب الانحراف الاجتماعي الذي ينجر من هذا التفكك العائلي الذي ينشأ فيه هؤلاء الأطفال وأمثالهم الذين يشكلون .. على ما قيل لي .. ثلاثة أرباع العائلات التي يصعد منها الجيل الناشئ ، والذين تتشابه مآسيهم في كل شبرمن البلاد .

إن الجانب الذي اقتصر عليه من القصة ينحل إلى شعبتين : الأولى تتعلق بالمحاكم ، والثانية باخواننا المحامين :

في بلاد متأخرة يتعايش فيها أفراد المجتمع بأسلوب الغابة أكثر مما يتعايشون بالدين أو بالقانون ، كثرة الزواج لا تعادلها إلا كثرة الطلاق أو الانفصال . والأولاد لا يجدون من يعتني بهم في البيت ، ولا يجدون مكاناً في المدرسة لأن كثرة انتاجنا في المواليد تفوق انتاجنا في توفير المدارس والمعلمين ، والطريقة المسيطرة على السلوك الاجتماعي هي « تأكلني أو آكلك » ـ أقل ما يمكن وأول ما يجب اتخاذه من اجراء في مثل هذه البلاد ، هو تبسيط الشكليات الإدارية والاسراع في الفصل في قضايا الناس وردع هؤلاء الذين لا تهمهم الزوجة ومصيرها ولا أولادهم أيضاً ، وردعهم وسلب هذا السلاح الفتاك من أيديهم ، سلاح الطلاق أو الطرد ـ إلا في حالات معينة وضرورية جداً هي التي نص عليها القرآن .

وبالنسبة للمحامين ـ وأعرف عدداً منهم ذوي أخلاق فاضلة ، ولكن أغلبيتهم مع الأسف تغلبت الروح التجارية فيهم على عاطفة الشفقة بهؤلاء الضحايا فجعلوا

منهم مزرعة يستغلونها على جدبها وقلة ما يستغل فيها ـ هؤلاء الاخوان المحامون أعجب والله كيف يستطيبون هذه الأموال التي يبتزونها من أولئك المساكين بدون مقابل.ان أقل ما يجب أن يعاملوهم به هو أن يحددوا لهم ثمناً معيناً للقضية يتقاضونه عند أجل النظر في القضية من قبل الحكام أو القضاة .

وإذا فقد هذا الشعور النبيل عندهم فانه يبقى من واجب السلطة أن تحدد لهم ذلك بنفسها . إن من متناقضاتنا العجيبة أن نلاحق بائع الخضر فنفرض عليه أسعاراً محددة حتى لا يزيد خمس فرنكات على المشتري ، ونترك الحرية كاملة للمحامي يتقاضى ما يشاء من زبائنه التعساء . كما نحدد آجالاً قصوى للقضايا يجب على المحاكم أن لا تتجاوزها .

أما ترك الحبل على الغارب إلى هذا الحد فهو شكل من أشكال التشجيع على الاستغلال في بلاد تحاول أن تحارب مظاهره في ميادين أخرى قد تكون أقل ضرراً وفتكاً بفقراء الناس .

إن هذه الطائفة من المثقفين ـ أعني المحامين ـ محسوبة من العنصر الواعي في المجتمع . والشعب يعدها من فئة « القاريين » ، فلا يميز بينهم وبين الأطباء والمهندسين والمعلمين وكل الموظفين . فالجميع في نظره من « أصحاب القلم » ـ كما يسميهم ـ ومن الذين لا يتعبون على الخبزة في حر الصيف ولا في برد الشتاء .

والمعروف أن التقاليد التي يسير عليها المحامون مثل كثيرين غيرهم هي تقاليد غربية بجارية ، ولكن المواطن في الغرب يملك كثيراً من الأسلحة التي يدافع بها عن نفسه ، والتي لا يملك منها المواطن عندنا شيئاً .

والمعروف أيضاً أكثر من ذلك هو أن هذه التقاليد وهذا السلوك لا يوجد أبداً في بلد ... اشتراكي !

اكتشفنا أنفسنا صدفة

في أيام العطلة الصيفية هذه كان من حسن حظ بعض الأساتذة أن كلفتهم وزارة التربية الوطنية ووزارة الدفاع بالقيام بجولة في مختلف الثكنات ومراكز التدريب التي يوجد فيها الطلبة المجندون والتي تنتشر من باتنة إلى شرشال ، والقاء محاضرات عليهم تتعلق بالتكوين السياسي إلى جانب التكوين العسكري الذي يتلقونه من ضباط الجيش .

ليس غرضي هنا أن أسجل كل انطباعاتي في هذه الجولة بقدر ما أود أن تكون ملاحظات :

١ - كانت هذه الجولة بالنسبة لي شخصياً ـ وأعتقد أنها كذلك بالنسبة لبقية الزملاء ـ أنني اكتشفت عالماً كنت أجهله هو عالم الحياة الصعبة وحياة الخطر : الحياة الصعبة قال عنها ابن خلدون إنها هي التي تمكن سكان البادية والأرياف من أن يتغلبوا باستمرار على سكان المدن . لأن أولئك تعودوا على ممارسة صعوبات الحياة

منذ « خشونة » أظفارهم ، وهؤلاء تعودوا الحياة السهلة منذ « نعومة » عظامهم . وحياة الخطر قال عنها « نيتشه » إذا أردت أن تشعر بالحياة فلتعش في خطر !

٢ – اكتشفت ثانياً أن هذه الحياة الصعبة الخطرة لا تخلو من سعادة . لأنك تتمكن فيها من اكتشاف نفسك . تكتشف أنك تستطيع أشياء كنت تظن أنك لا تستطيعها . تكتشف أنك تثق بنفسك بينما كنت في الحياة المدنية تتوهم أنك لا تستطيع أن تعيش إلا بالاعتماد على الغير والثقة في كفاءة الآخرين . تكتشف أن عندك ثروة من الامكانيات والقدرات كانت ميتة لأنك لم تحاول أن تستخدمها أو لم تضطرك الحياة السهلة إلى استخدامها .

٣ – حدثني الضباط أن الجيش لو يتطعم بهذه العناصر المثقفة يصبح في سنوات قليلة أكثر من حلم يتجسد في حقيقة . وقالوا لي أن ما أدهشنا في الطلاب هي قوتهم العقلية وضعفهم الجسمي ، اننا نتساءل كيف تعيش هذه العقول القوية الرهيبة في تلك الأجسام الضعيفة المهلهلة دون أن يتفطن أصحابها لهذه الاختلال . لقد كنا في الأيام الأولى نحملهم من الأرض من شدة الإعياء وعدم قدرتهم على تحمل الأتعاب . ووجدنا فيهم من المرضى أضعاف ما نجده في المجندين الذين يأتوننا من البادية . ومع ذلك فانهم يمتازون بخفة الحركة وانطلاقة الأعضاء .

٤ – وقال لي الطلاب لقد زال منا الشحم وزال أيضاً عنا كثير من الأوهام . قلت لأحدهم لماذا لم تسجلوا هذا التحول الكبير في حياتكم في مذكرات . فقال إن أجسامنا متعبة وعقولنا تفكر في الامتحان . فقلت أليس ما تقومون به الآن هو الامتحان الحقيقي ؟ فقالوا : صحيح .ولكننا تعودنا على الامتحان المدرسي أكثر من امتحان الحياة .

وقال لي طبيب بلغاري : إن الطلاب في كل أنحاء العالم أخوف الناس من حياة الجندية ، ولكن ما لحظته عندهم هنا هو الحماس والتحدي .

٥ – قال لي أحد طلاب ثكنة البحرية : أول عقبة كنت أفكر فيها وأخشى

أنني سأقع تحت عبئها هي هذا النعل الغليظ : كيف سأنسى نعومة نعلي اللطيف الذي أمشي به في شارع ديدوش مراد وأمتطي هذه الدبابة المنهكة في رجلي . ولكنني لا أدري كيف أصبح الآن هذا النعل الثقيل أخف في رجلي من نعلي السابق اللطيف ؟ فقلت : إن وزن النعل ـ لا هذا ولا السابق ـ لم يتغير . ولكن قوة الاحتمال في رجلك هي التي أصبحت أضعاف ما كنت عليه في السابق . وتصور أن كل ذرة في جسمك قد تضاعفت قدرة احتمالها بهذه النسبة ، فانك ستجد أنك أصبحت عشرة رجال يعيشون في رجل .

٦ – في ثكنة باتنة قال لي أحد الطلاب بعد المحاضرة : لم أكن أدري أن تكويننا السياسي ضعيف إلى هذا الحد ! فقلت : إن تكوينكم السياسي ضعيف حقاً إذا قيس بتكوين الأجيال التي سبقتكم والتي اضطلعت بمهام الثورة . ولكنكم مع ذلك لستم أنتم المسؤولين عن هذا الضعف . لأن الأجيال التي سبقتكم كانت تكونها ظروف الكفاح ، أما أنتم اليوم فانكم حرمتم لذة الكفاح ، ونعمة المثل العليا والأهداف المقدسة ، وأصبح همكم أن تعيشوا لمجرد العيش . ولا أدري هل هذا من حسن حظكم أم من سوئه ، ولكن الذي أدريه هو أن مسؤولية ضعفكم السياسي تقع على كاهلنا نحن الذين أهملنا توجيهكم وتركناكم طعمة سائغة لرياح الحياة تقلبكم أنى شاءت . وحتى لقاؤنا بكم اليوم كان نتيجة الصدفة وحدها ، ولو لم أتلق أمراً في القاء هذه المحاضرات فيكم لكنت اليوم أنعم بأحد الشواطئ بدلاً من أن تلفحني شمس الأوراس في هذه الجبال . اننا حتى نحن المثقفين لا نسير في طريق البناء الحقيقي إلا بالقوة . يجب أن نقاد إلى الجنة بالسلاسل .

مشكلة اللغة والمجتمع

موضوع هذا البحث هو اللغة والمجتمع من خلال التجربة الجزائرية .

فنحن هنا نشعر بضغط شديد تثقلنا به المشكلات الثقافية ازاء المجتمع ، لأننا منذ انبعاث الحركة الوطنية السياسية والحركات الاصلاحية الثقافية في بلادنا ، أي منذ الثلاثينيات ، تعودنا أن نربط بين هذه الحركات وشعاراتها ومنهجياتها من ناحية ، وبين وضعية الشعب التي نستمد منها الكثير من محتوى هذه الحركات من ناحية أخرى .

وليس معنى هذا اننا قد وفقنا الى تخطيط ما يسمى بالايديولوجية المفلسفة المتكاملة ، وتطبيقها حسب مراحل مضبوطة ، وإنما يعني هذا فقط العناصر البشرية التي انبعثت منها في الأصل هذه الحركات كانت تنتمي في أغلبيتها الى الأوساط الشعبية ، وحتى ان وجد من بينها من ينتمي الى وسط ما يسمى في لغة اليوم بالوسط البورجوازي (وأبرز مثل عليه هو الشيخ عبد الحميد بن باديس)

فانه — لكي يؤدي رسالته الاصلاحية الثقافية بصورة وافية — لم يلبث أن انسلخ عن وسطه الاجتماعي ، وعاش في وسط أوسع محيطاً وأغزر محتوى اجتماعياً وانسانياً ، وهو المحيط الشعبي .

ولهذا المنزع الشعبي في نظرنا جوانب ايجابية لا تنكر ، وأهمها تحقيق اقتسام متساو نسبياً في اشاعة روح اليقظة الفكرية والنضج السياسي بين الاطارات الوطنية على قلتها وبين جماهير الشعب الواسعة على كثرتها .

ولكن كان لهذا الاتجاه ، الى جانب أسباب أخرى حضارية ، جوانب سلبية أهمها بقاء اطاراتنا الثقافية في مستوى متوسط لم ترتق معه الى تخريج أعلام كبار ، من المفكرين والمثقفين ، لأنه لم يتح لها أن تنقطع للبحث والتقصي والحياة الفكرية الخالصة .

ومما ساهم في تكوين هذا الاتجاه الشعبي أيضاً أن ضغط الاحتلال الفرنسي على الجزائر بلغ من الشدة والتوسع والارهاق حداً لم يبلغه أي استعمار في أي بلد عربي آخر ، بحيث لم يترك مجالاً من الاختيار أمام الاطارات المثقفة : اما أن تندمج في تقاليد أجنبية تدين بالثقافة للثقافة ، والعلم للعلم ، والفن للفن ، واما ان يلقى بها على الهامش بعيداً عن الحياة الفكرية ، وقريباً من المحيط الشعبي المحروم من هذه الحياة الفكرية حرمانه من الحياة المادية . فكان المثقف الجزائري ، على ندرته في عهد الاستعمار ، مضطراً لأن يعيش معه ان لم يكن متطوعاً لذلك . وهذا ما جعل الانتاج الثقافي في الجزائر منذ الثلاثينيات الى الستينات ينطبع بطابع الروح الشعبية سواء منه ما كتب باللغة العربية الفصحى أو حتى باللغة الفرنسية .

فكانت الاطارات الثقافية في الجزائر تتميز من ناحية بروح شعبية نسبياً في اتجاهها وانتمائها الاجتماعي ، وتتميز من ناحية أخرى بالمستوى المتوسط من حيث تكوينها وانتاجها الثقافيين .

وقبل أن ندخل في تفاصيل هذا الوضع يجب أن نشير الى أن لنا فئتين من

المثقفين : فئة عربية اللغة ، وفئة فرنسية اللغة . وقليل من ذوي الثقافة باللغتين .
وإذا كانت الفئة الثانية قد ارتبطت بمجتمعها من حيث العاطفة والشعور ومحتوى
الانتاج ، فانها منقطعة عنه من حيث أداة التبليغ الى هذا المجتمع : مولود فرعون
وكاتب ياسين ومولود معمري ومالك حداد ، يتحدثون في رواياتهم كلها عن
الشعب ، وعن الطبقة الكادحة بصورة أخص ، يصورون بؤسها وحرمانها وأميتها ،
ولكن هذه الطبقة بالذات لا تعرف شيئاً مما كتبوا ، وبالتالي فهؤلاء الكتاب
معروفون في الخارج أكثر مما هم معروفون في بلادهم .

وأما الفئة العربية الثقافة ، فهي تحمل نفس العاطفة ونفس الاهتمام بنفس
هذه الفئة الاجتماعية الأمية المحرومة ، ولكنها ليست أكثر اتصالاً بها من حيث
أداة التبليغ من الفئة الفرنسية الثقافة . وهذا بسبب الأمية المستفحلة .

هذا واقعنا الذي نعيشه من حيث مشكلة اللغة منظوراً اليها من زاوية علاقتها
بالمجتمع . ولكن هذا الموضوع كما تعلمون ، بالرغم من أنه كان مطروحاً في
المجتمع العربي منذ بداية الاختلاط في العصر الأموي الى اليوم ، الا أنه لم يبحث
في تراثنا بحثاً وافياً باستثناء ابن خلدون والجاحظ ، بشكل غير مقصود .

وحتى في تراثنا الحديث لم أعثر شخصياً على بحوث علمية في هذا الموضوع ،
فقد رجعت مثلاً الى كتاب « اللغة والمجتمع » للدكتور عبد الواحد وافي ، وهو
مختص في علم الاجتماع الذي درسه في اوربا من ناحية ، وفي علم اللغة الذي
درسه في الأزهر من ناحية أخرى ، ولكنني لم أجد عنده حتى طرحاً للمشكلة ،
فضلاً عن تحليلها ، وإنما وجدت اشارات لقضايا جزئية عن اللغة العربية في
معرض الآراء الغربية عن لغاتهم ومجتمعهم ، من نوع استحياء اللغة العربية واللغات
الأوربية الحديثة عند ذكر العورة ، وعدم استحياء اللغة اللاتينية عن ذلك ،
وانتقال المعنى المجازي من المعنى الأصلي في العربية ، أو انتفاع اللغة العربية من
اللغات الفارسية واليونانية في بعض المفردات الى آخره .

كذلك يجب أن نشير هنا الى المعركة التي قامت في وقت ما بين دعاة الفصحى

ودعاة العامية ، أو احياء بعض اللهجات الاقليمية كالفرعونية في مصر والفينيقية في لبنان والبربرية في الجزائر والمغرب .

ولكن هذه الدعوات مثل الحملات المضادة لها ، لا تدخل في ميدان البحوث العلمية بقدر ما تقتصر على نزوات سياسية عارضة لم تعمر أكثر مما تستحق ، ولم تستفد منها اللغة والمجتمع شيئاً يذكر ، وبقيت المشكلة قائمة الى اليوم في الوطن العربي كله ، ولكن على تفاوت ، وهي مشكلة انفصال لغة الثقافة لا عن لغة المجتمع فقط ، بل عن حياة المجتمع العربي برمته ، ونحن ازاء هذه المشكلة ما زلنا في طور الاشارة اليها في بعض البحوث ، والتشكي من وجودها ، دون مهاجمتها بالبحث العلمي المنظم ، فالاستاذ عبد العزيز بلال في ملتقى شهر نوفمبر سنة ١٩٧٠ ، بمدينة « لوفان » **LOUVAIN** يذكر : « ان العالم العربي عاش فترة تاريخية طويلة قبل أن يتغلغل فيه الاستعمار الأوربي على أنظمة اقتصادية واجتماعية متجمدة ، كما عاش على ثقافة « متهرئة » وان احتفظت بمجدها التاريخي وصيتها الحضاري الذي كان للعرب . .

ان هذه الثقافة التي أدركتها الشيخوخة قد أصابها الشلل والقعود عن التقدم بسبب ثلاث متناقضات : تناقض بين اللغة المكتوبة واللغة المقروءة ، وآخر بين ثقافة ارستقراطية وثقافة شعبية ، وأخيراً تناقض بين مفاهيم وثوقية متحجرة ، وأخرى مؤمنة بالتقدم العلمي والتقني » (انظر كتاب : نهضة العالم العربي ص ١٩).

وإذا كانت هذه الظاهرة تشمل الوطن العربي من المشرق الى المغرب ، فاننا نجدها أكثر استحكاماً في الجزائر للأسباب التي ذكرناها في مطلع هذا البحث ، ولكننا لنفس السبب نجد الاهتمام بها أيضاً بالغاً أشده ، فبالاضافة الى كل ما يكتب عندنا في الصحف والمجلات عن مشكلة التعريب ، ومعالجتها من مختلف الأوجه البيداغوجية والتقنية والاجتماعية والى النشريات والكتيبات التي تؤلف في اللغة لمختلف الاطارات الادارية ، وللعمال والفلاحين ، وهي جهود كبيرة بالنظر إلى انخفاض المستوى الثقافي العام الذي عليه أكثرية القائمين به ، وبالنظر لتنوع المستويات من الجماهير المستهلكة لهذه النشريات والكتيبات ، ولتنوع

ميادينها في العمل ، مما يستلزم تنوعاً في التأليف ، أو بالاضافة أخيراً الى الحملات التي لا تخلـو من عنـف والتي يقوم بهـا المثقفون بالعربيـة ضد تهاون الموظفين — خصوصاً — في بذل الجهد اللازم لتعلم لغتهم القومية ، حتى يستطيعوا الاتصال بمجتمعهم أكثر ، ويزول بينهم وبينه جدار اللغة الأجنبية وتخرجَ البلاد من فترة الازدواجية اللغوية التي تجتازها الآن في الحياة الادارية على الخصوص وما يتبعها — أقول بالاضافة الى هذه الجهود التي لن تأتي بثمارها الكاملة الا بعد سنوات أخرى ، هناك مجهودات أخرى في مستوى فكري أرقى ، ودراسات جادة عميقة الأثر ، تتناول مشكلة اللغة عندنا من الوجهة الاجتماعية خاصة ، ومرتبطة بضرب من الايديولوجية الشعبية التي أشرت اليها في مطلع هذا الحديث ، وهو اتجاه متحرر من الديماغوجية الماركسية السطحية في بعض أوساطنا ، أعني في الجزائر وفي العالم العربي كله ، مثلما هو متحرر من الديماغوجية الأخرى المقابلة ، وهي ديماغوجية عبادة الماضي بمحاسنه ومساوئه ، تلك التي ينظر أصحابها الى اللغة على انها معبد مقدس لذاته ، وليست أداة للتبليغ الثقافي لدى مختلف طوائف المجتمع .

هذا الاتجاه الشعبي القومي ، كما يمكن أن نسميه ، هو الذي أريدأن أعرضه هنا كمثال عن معالجتنا لمشكلة اللغة والمجتمع عندنا ، وأنا لا أدري الى أي حد يتجاوب مع بقية البلاد العربية الأخرى ، وذلك نظراً لوضعية الجزائر الخاصة في هذا الموضوع .

وأحسن من يمثل هذا الاتجاه عندنا هو : الاستاذ مصطفى الأشرف ، في دراسات قيمة نشرها في عدة مجلات عالمية مثل « ايسبري » و « الأزمنة الحديثة » وقدم البعض منها الى مؤتمرات ثقافية عقدت عندنا .

يعتقد الاستاذ الأشرف ان ما دفع بالشعب الجزائري الى اعتناق الثقافة الفرنسية ولغتها ، ليس هو كون هذه الثقافة ولغتها قد فرضتا عليه فرضاً ، بقدر ما يرجع السبب الى أن الشعوب ذات التقاليد العريقة في الثقافة مثل الشعوب العربية لا تستطيع أن تقبل الفراغ الثقافي بسهولة ، حتى ولو اضطرت الى سد

هذا الفراغ بتبني ثقافة ولغة اجنبيتين عندما تنعدم وسائل التثقف بلغتها الوطنية ، كما وقع للشعب الجزائري تحت الاحتلال الفرنسي .

وبالرغم من أننا في مواجهة هذا العالم الحديث بثقافته العلمية ، بقينا متمسكين بجوانب من ثقافة القرون الغابرة ، وخاصة ما يتصل منها بالحياة الأخلاقية والروحية ، الا أننا في هذه المواجهة لا بد لنا من أن نقيم موازنة عن شعور أو لا شعور ، بين التراث الانساني والديني ، الذي بقي متحكماً فينا ، وبين الضرورات الجديدة للدخول في العالم المعاصر . واللغة ليست فقط تراثاً للأمة ، بل هي بالاضافة الى ذلك أداة حركة للمجتمع الذي يريد أن يتنصل من العجز والتعفن .

والجزائر حافظت طيلة عهد الاستعمار على لغتها المكتوبة التي تجمعها بالشعب العربي في كل مكان ، كما حافظت على لهجاتها المحلية التي تستعملها لأغراض عملية بحتة ، وقد حافظت عليها بوسائل تعلم بسيطة أحياناً ، في الأرياف والقرى والمدن ، في المساجد والمدارس والزوايا ، وحتى في المناطق التي لا يتكلم أهلها أي لهجة من اللهجات العربية ، بل يتكلمون بدلاً من ذلك بلهجة بربرية . ولكن لم يكتب لهذه اللغة يوماً في عهد الاستعمار أن تعلم تعليماً رسمياً ، بل هي أزيحت من ميدان التعليم الرسمي منذ سنة ١٨٣٠ ، كما أزيحت كل الثروات الوطنية الأخرى وأقيمت مقامها ثروات المحتل الأجنبي .

ان هذه العملية تولدت عن واقع ، هو واقع الاحتلال ، وهي يمكن أن تحل بأي بلد متطور كما تحل ببلد متخلف ، وبعبارة أخرى : حتى لو افترضنا ان الاستعمار الفرنسي لم يمنع تعلم اللغة العربية في الجزائر ، فان مصيرها لم يكن ليختلف كثيراً عن المصير الذي آلت اليه بالمنع ، ونفس الأمر كان سيحدث لهذه اللغة أو تلك من اللغات الأوربية تحت الاحتلال الألماني لو كتب له أن يمتد جيلاً أو جيلين . ولكن من سذاجتنا نحن في فترة الكفاح الوطني اننا كنا نعتقد مخلصين أن اللغة العربية في بلادنا لو لم يمنعها المحتل من التعلم لاستطاعت أن تكسب كل خصائص اللغات العلمية المعاصرة ، حتى ولو بقي بلدنا في

المجالات الأخرى بلداً زراعياً متخلفاً . على أن خطورة هذه السذاجة ما زالت تلاحقنا الى اليوم ، وهو اعتقادنا بأن تخلصنا من الاستعمار الذي قضى على لغتنا مدة قرن وثلث القرن ، سيجعلنا بفضل الاستقلال ، وبدون أي جهد عقلي منظم ، قادرين على جعل لغتنا تحتل بصورة تلقائية مكانة اللغة العلمية في ظرف عام أو عامين أو عشر سنوات .

والحقيقة أن طابع التخلف الذي يطبع لغتنا العربية لم يأت من أساليبها البيداغوجية الموضوعية التي بقيت دون تغيير ، ولا من محتواها الذي بقي جامداً تقريباً ، بقدر ما جاء هذا التخلف اللغوي من تخلف المجتمع العربي ازاء ظهور موقف آخر نشأ من الاستعمار والاحتكاك بالعالم الحديث .

ان هذا الوضع الثقافي الجديد الذي يضع لغتنا وثقافتنا وجهاً لوجه مع لغات الأمم المتقدمة وثقافتها العلمية — هو الذي صير كل قيمنا اللغوية والثقافية فارغة من محتواها النفعي للمجتمع ، ومع ذلك فان هذا الفراغ لم ينقص من تشبثنا بها . اننا لم نستطع أن نحقق التوازن العسير بين ما اكتسبناه من الماضي ، وما اكتسبناه من الأجانب بصورة عارضة ومبتورة ، صيرته أخطر علينا من مكتسباتنا التقليدية . فسرنا في طريق يلامس الماضي والحاضر والمستقبل من بعيد ، دون أن يتوغل في أي واحد منها . وهذا ما يفسر خطواتنا المتعثرة الصعبة الى الأمام ، والتواء أعناقنا الى الماضي كأننا نودعه لأننا نعرف أننا لن نعود اليه . وهو أيضاً ما يفسر غموض الرؤية واضطرابها عندنا في مجال اللغة والثقافة عامة مما نشأ عنه أحياناً نتائج فاجعة في دخولنا الى العالم المعاصر مع احياء تراثنا القومي .

ان وضعنا الثقافي اليوم هو وضع المصاب بالمجاعة تبدو عليه أعراض كل الأمراض ، دون تحديد واحد منها بوضوح .

نعم ان لدينا بعض التكوين الايديولوجي السياسي ، ولكنه تكوين آلي فقير مرتجل ، لا يمكن أن يغذينا أو يقضي على مجاعتنا اذا لم يكن لدينا أساس من الثقافة مطبوع بالدراسة النقدية ، هذا فيما يتعلق بمشكل اللغة المكتوبة أو الفصحى .

أما فيما يتعلق باللغة الشفهية التي يتكلمها المجتمع الجزائري ، فان الاشرف يريد أن يصحح أيضاً وضعاً كثيراً ما وقع فيه الخطأ ، وهو يتعلق بما يزعم من أن اللغة الفرنسية طغت في الجزائر حتى على اللغة الشفهية التي تتكلمها الطبقات الشعبية ، والواقع أن الجزائريين لم يفتأوا يتكلمون لغتهم الوطنية ، أو ان شئنا لهجاتهم الوطنية ، لكن حدث ، وهذا من رواسب أخطاء حركتنا الوطنية ، ان رحنا نشتكي في معرض التنديد بالاستعمار الفرنسي ، بأن هذا الاستعمار لم يقض على تعلم اللغة الفصيحة وحسب في بلادنا وإنما قضى أيضاً على لهجاتنا المحلية الشفهية نفسها التي تتكلمها الطبقات الشعبية . وهكذا شاع عنا في الخارج بأننا شعب مسلوب ليس فقط من سيادته السياسية وثرواته الاقتصادية وتراثه الثقافي ، بل هو مسلوب حتى في لهجاته اللغوية التي يستعملها في حياته اليومية . وأن الاستيلاب في هذا الميدان لم يقف عند الطبقات المثقفة في استعمالها الثقافي ، بل تجاوزه الى طبقات الشعب البعيدة عن الأجواء الثقافية . وقد ساهم في هذه التعمية للحقيقة أن بعض مثقفينا ممن درسوا في المشرق العربي ، كانوا لا يبعدون كثيراً عن الذين درسوا في بلاد الغرب من حيث جهلهم بالمشاكل الأولية لوطنهم ومجتمعهم . فهم لا يكادون يلمون بعض الالمام الطفولي باللغة الفصحى حتى ينغمسوا في ضرب من اللاواقعية والتفنن السقيم يجعلهم يبدؤون علاقتهم الفكرية مع مجتمعهم باحتقار لهجته . كما ينسون أن هذه اللهجات ظلت شائعة في مختلف المجتمعات العربية منذ أوائل العصر الأموي الى اليوم . واذن فلم يكن من الصواب أن ننقص من قيمة هذه اللهجات القومية العربية بمقارنتها مع اللغة الفصحى ، ولا أن نعتبرها من ناحية أخرى لغة قائمة بذاتها يجب أن ندرسها في مدارسنا ، وإنما كان ينبغي فقط أن نعترف بانها واقع ، واقع لا يفيدنا شيئاً أن نتجاهل وجوده ، ثم هي أداة تبليغ طبيعي في مجتمعنا ، ووسيلة اضافية لثقافة فرعية ذات تعبير شفوي . وإذا كانت العلاقات بين القمة الثقافية والسياسية والادارية وبين القاعدة الشعبية تتعرض في أكثر الأحيان الى الاخفاق والنتائج السلبية وسوء التفاهم ، فذلك راجع الى حد كبير الى هذا التفاوت اللغوي بين القمة والقاعدة ،

والى أن المثقفين لم يبذلوا أي جهد لتطوير اللهجة الوطنية التي هي لغة التخاطب بالنسبة لثلثي أبناء البلاد الأميين . ان تطوير هذه اللهجات لو قام به المثقفون بالعربية عندنا لساهم أكثر من أي وسيلة أخرى ، وهذا ما يغفل عند البيداغوجيون كثيراً ، في تهيئة من سيترشح لتعلم الفصحى من الصغار أو من الكبار . أما الفائدة الكبرى التي نجنيها من هذا التطوير لو حدث أو يحدث يوماً ، فهو أنه يمكننا من مراقبة هذه اللهجات والسيطرة عليها وتوجيهها حتى تأخذ شيئاً فشيئاً طابع اللغة الثقافية أو تنضم الى لغتها الأصلية ليصبح مجتمعنا يوماً يتكلم كما يكتب ، ويكتب كما يتكلم . ولكن مثقفينا بدلاً من ذلك بقوا متشبثين بالتعالي عن اللهجات المجتمعية ، ولا ندري في هذه الحالة كيف يمكننا أن نهيئ هذه الجماهير المهملة لتطوير أفكارها حتى تنسجم مع قمتها فيما تدعوها اليه من تطور علمي وتجربة ثورية .

ان النتيجة الحتمية لهذا الاهمال هو أننا نصدر تعليمات الى الجماهير اما بلغة أجنبية أو باللغة الفصحى ، فلا تمس أكثر من ١٥ في المائة من السكان ، لأن الـ ٨٥ في المائة الآخرين لم يقرأ لهم أحد حساباً . ولأننا ما زلنا نصر عن وعي أو عن غير وعي ، على أن اللغة حتى ولو بقيت غير مستعملة من أغلبية المجتمع ، فان قيمتها الذاتية تكفيها للحياة والتطور مع الزمن . والمجتمع من ناحيته سيتطور علمياً وسياسياً ، حتى ولو كانت اللغة التي يستعملها ويفهمها غير سياسية ولا علمية ، واللغة السياسية والعلمية لا يفهمها ولا يستعملها . ووضعية كهذه من الافتقار لا تقود الا الى الفناء التدريجي للغة والمجتمع معاً ، لأن اللغة لا بد لها من مجتمع ، والمجتمع لا بد له من لغة ، يعيش كل منهما من الآخر ويتغذى منه ويتفاعل معه ويكسب منه القوة على البقاء والتطور .

ان طريقة الفصل التي اتبعناها الى اليوم بين الأغلبية الكبرى من المجتمع وبين اللغة التي تغذيه ويغذيها علمياً وسياسياً ، قد قعدت بنا في عمر الفكر الميتافيزيقي ولم تستطع أن تنقلنا الى العمر العلمي . وليس من التناقض في شئ أن نزعم أن موقف المثقفين بالفصحى من اللهجات الشعبية انما أتاهم من عدم تمكنهم من

اللغة الفصحى نفسها ، بالاضافة الى كونهم لا يعتبرون اللغة أداة عمل وبحث وتبادل ، ولا يعرفون أن تعاملها مع المجتمع هو الذي يثريها ويزيدها طواعية ومرونة وقدرة على التعبير . ومما زاد في فداحة هذه المشكلة عندنا في الجزائر خصوصاً أن اللغة الفصحى أو المكتوبة ما تزال مطبوعة بطابع البلاغة اللفظية والتشبع بالمعاني الفلسفية ، واللهجة الخطابية والنصائح الأخلاقية الكسولة التي تستعمل للاستهلاك اليومي ، مع شعور بالغيرة على اللغة الفصحى كشعور المؤمنين بالفن للفن . فكان لهذه النظرة الجمالية للغة عندنا أن صيرت فائدتها لا تتعدى الجمال في القول على حساب الفعالية والتبادل النفعي في المعرفة . أي صيرتها حبيسة في عمر الطفولة لا تتعداه ، مشلولة عن القيام بحركتها الطبيعية التي هي التفتح نحو المجتمع والتحرر من ترف القدسية في بلاد لا يجوز لها أي ضرب من ضروب الترف .

أما مشكلة المثقفين باللغات الأجنبية عندنا فان مجهودهم في أحسن الحالات ينحصر في التبحر في اللغات الأجنبية ومعرفة دقائقها في العلوم ، كما لو كان الفكر العلمي لا يقتضي البحث العلمي ولا يستوجبه ، وإنما يقف عند تعليم ما تعلمنا أو نقله الى لغتنا ، والنقل نفسه لا يصحبه مفهوم واضح للعالم المعاصر ومكاسبه العلمية . وهذه النظرة الضيقة للمعرفة تخنقها وتمنع عنها التنفس . اننا في هذا النقل الجزئي للمعارف نعيد طريقة بيداغوجية تقليدية تجعل التلميذ يقف أمام الأستاذ وقفة المتلقي ، أو وقفة المهزوم أمام المنتصر . ذكر « ريشارد لومي » RICHARD LEMAY في كتابه : « الترجمة من العربية الى اللاتينية » « ان الثقافة العربية بسبب كثافتها واشاعها في اسبانيا الى نهاية القرن الثاني عشر قد خلفت وراءها كل المراحل والفترات الأخرى السابقة واللاحقة ، من حيث نقل المعرفة العربية الى الغرب ، ويرجع تفوقها في الدرجة الأولى الى التلاقي الحاسم مع انتاج الفكر الساذج المتخلف من القرن الثامن اللاتيني ، فقد ظهر ما للتآليف العربية من الطواعية والقدرة على الوصول الى الذهن ، وبفضل أساليب النقل التي نضجت في القرن الثاني عشر أمكن للفكر العربي الحديث اذاك أن

يتسرب بسهولة الى الغرب ابتداء من القرن الثالث عشر ، في حين أن هذا الفكر لم يأت بعد بكل ثماره الكاملة في العالم الاسلامي » ثم يقول : وهذا ما يهمنا هنا — :

« ان الاتصال بالاسلام قد وضع حداً للعزلة والتأخر اللذين كان عليهما الفكر اللاتيني الغربي . وما استفاده رواد الفكر الغربي الأول من الاتصال بالفكر الاسلامي لم يكن فيما احتوت عليه النظريات الاسلامية أو مناهج بحثها ، بقدر ما كان في اطلاقها لمواهب كانت في الغرب معطلة مشلولة ، اذ بدأ هؤلاء الرواد الأول يقدرون بدقة وموضوعية أكثر ، ملاحظة الظواهر ، ومكانة الانسان الحقيقية في عالمه المادي . هذه في نظرنا هي قيمة اكتشافنا للعالم العلمي عند العرب ، وهو العالم الذي تعرفنا اليه بفضل الوجود العربي في الأندلس حيث أمكن للمسيحيين من رجال الدين والحرب والادارة ورجال الاصلاح من كل نوع أن يجدوا أنفسهم محمولين حملاً في تيار الحركة العامة التي حولت ظروف الحياة والثقافة » .

ان الاستاذ الأشرف يخرج من هذه المقارنة ، وأعتقد أن هذا الأمر ينطبق على الثقافة العربية المعاصرة في غير الجزائر أيضاً ، بأن ما نأخذه اليوم عن الغرب هو أجزاء مفككة من المعلومات الغربية ، وليس هو الروح العلمية التي تحول الثقافة والحياة عندنا . ان حقيقة وضعنا اليوم أننا أكثر تأخراً عن الغرب عندما كان يأخذ عنا فأحسن الأخذ ، لأنه كما يقول « لومي » لم يستفد من النظريات الاسلامية أو مناهجها بقدر ما استفاد من انطلاق مواهبه التي فك أغلالها احتكاكه بالاسلام .

وانطلاق المواهب هو الذي لا نبحث عنه نحن اليوم في احتكاكنا بالعالم الأوربي . اننا ما زلنا كما وصفنا ابن خلدون في عهد انحطاطنا ، ميالين الى السهولة والى البسائط من الأمور ، لأن نقل الجزئيات أو المفردات العلمية أيسر من نقل الروح العلمية ، وهذا الشكل الكسول — كما يسميه الأشرف في اقتناء المعارف — جعلنا ندور بين أمرين في الثقافة :

اما الفراغ والتكرار ، لأن ما نريد أن نحصل عليه قد حصل من قبل ، وإنما نكسوه اليوم بلهجة جديدة من الديماغوجية التي تستعملها القمة الثقافية ازاء القاعدة الشعبية . واما الانحراف الذي نشاهده عند المثقفين من الشباب المسلوبين من شخصيتهم والمتشبعين بالهيجانات السلبية التي يعتقدونها ثقافة لأنها تمكنهم من احتلال مناصب يحتقرون منها المجتمع ويتمردون عليه ويبذرون تراثه السليم ، مع حرصهم على استعمال شعاراته التي يغالطونه بها .

* * *

قد يبدو في هذا الحكم ظل من القتامة القاسية عندما ننظر الى وضعنا نحن المثقفين من الداخل ، ونقطع النظر عن علاقتنا بالمجتمع ، ولكن هذا الحكم سيبدو لنا صحيحاً فاجعاً في صحته عندما نضع أنفسنا داخل مجتمعنا ، وننظر الى وضعنا من هناك ، ونتساءل : أي شيء أتينا به لهذه الأغلبية الكادحة التي تعيش على هامش التاريخ من أبناء مجتمعنا في الميدان الثقافي ؟ وهل أدخلناها في الحساب يوماً ، ونحن نعدد حاجياتنا الثقافية ومشكلاتنا الفكرية ؟ .

فلننظر مثلاً الى ميدان اللغة : لنا ثلاث مجامع لغوية في الوطن العربي ، ما هي مهمتها . لقد لخصها الدكتور طه حسين أخيراً بأن « مهمة المجمع منذ أربعين سنة هي الاهتمام بالفصحى . حيث أنها لغة واحدة . أما اللهجات المختلفة — حسب تعبيره — والعامية فهي ليست لغة . وما يكتب بهذه اللغة لا يسمى أدباً . ونحن لا نعترف باللغة العامية . وليس ذلك بموجب قانون المجمع ، ولكن لأننا أساساً عرب » .

وأسارع هنا الى القول بأننا على اتفاق تام مع المجمع في أن اللهجات العامية ليست لغة أدب راق وإن خالفنا بذلك رأي ابن خلدون . ونزيد عليه أنها ليست لغة علم ، وأنها قومياً وسياسياً لا تصلح أن تكون أداة تعامل بين أبناء الأمة العربية التي تنزع الى الوحدة في جميع أشكالها ومستوياتها . ولكن هناك واقع — كما يقول الأشرف — واقع مجتمعي يعيشه أبناء أمتنا في هذا الميدان كما يعيشون

واقعهم في ميدان الطب الأهلي ووسائل تجميلهم المحلية ، وفنونهم الجمالية ، فهل يشكل هذا الواقع تراثاً يجب أن نعتني به وندرسه ونعقلنه وننقله من مادة الواقع المعاشي الى العلم المدروس ، بواسطة التحليل والملاحظة ، والوصف والمسح في مرحلة أولى ، ثم ننتقل الى مرحلة ثانية من الدراسة هي استثماره بشكل من الاستثمار نحقق به الانسجام بين أجزاء تراثنا ما كان منه عامياً وما كان خاصاً ؟ أم نبقي هذا النشاز قائماً في مجتمعنا يفصل بين قطاعاته ويمزقها الى طبقات في الحياة الثقافية تزيد من استفحال الطبقية المادية وتغذيها ؟ والى متى سيظل مجتمعنا مجتمعين في حياته الثقافية واللغوية ، تعيش أكثريته في العصر البدائي وأقليته في العصر الذري ؟

هذا هو السؤال المطروح أمام المثقفين العرب وفي مقدمتهم القائمون بعلم الاجتماع ، وعلم اللغة . وهذا على أية حال هو السؤال الذي نلح في طرحه هنا في الجزائر ، ونحاول توضيح معالمه ، قبل البحث له عن حل . ولكن ما ينقصنا فيه هو وسائل البحث ، أعني الوسائل البشرية في الدرجة الأولى .

ان الدكتور طه حسين يشتكي من أن المجمع اللغوي يتعب نفسه بتعريب المصطلحات الحضارية والعلمية ، ثم لا ينفذ أي شيء مما يقوم به .

ونعود الى ما يؤاخذه الأشرف على المثقفين بالفرنسية في الجزائر ممن يظنون أن مهمتهم العلمية تنحصر في نقل المصطلحات الأجنبية وشرحها للطلاب ، غافلين عن اننا في حاجة الى نقل الروح العلمية أكثر من حاجتنا الى نقل المصطلحات الجزئية . ونقول بعد هذا . لماذا يمنع المجمع اللغوي نفسه من البحث في وسائل تبليغ اللغة الفصحى إلى المجتمع ، وسائل تنسجم مع روح العصر ، ونعني بها تبسيط قواعد اللغة وتقريبها من تناول الجمهور ، ووسائل رفع لغة الجمهور حتى تلتقي لغته مع لغة الخاصة ، أو لغة الأدب والعلم .

العجيب أن الدكتور طه حسين الذي كان في وقت زعيم تعميم التعليم واجباريته في مصر ، وكانت روحه الشعبية هذه مما خلد ذكره في الآفاق العربية

كلها ، ينقلب اليوم الى شبه خصم لجمهور المجتمع العربي ويقول بالحرف : « لا أطلب من المجمع أن يكون له أي اتصال بالجمهور . . فالمجمع جهة معنية بالبحث العلمي فقط » ,كما لو كان البحث في وسائل تحقيق الانسجام اللغوي بين أجزاء المجتمع الواحد ، ليس من البحث العلمي الذي يجب أن يهتم به المجمع .

ان مثل هذا التزمت السهل الذي لا يكلفنا مشقة البحث هو الذي يولد الانفجارات المتطرفة السهلة هي أيضاً ، وهو الذي دفع برجل مثل الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه « تجديد الفكر العربي » الى القول بأن «الثورة الفكرية مستحيلة بغير معاودة النظر في اللغة المستخدمة للعلاقة الوثيقة بين الفكر واللغة .. وان اللغة الفصحى في تراثنا الأدبي لم تكنْ أداة اتصال بمشكلات العالم الأرضي ولا وسيلة للثقافة المتصلة بحياة الناس .. واننا عندما ندخل في عالم اللغة عندنا . فانما ندخل عالماً مسحوراً لا عالماً مألوفاً » . بل هو يتفق مع جاك بيرك في كتابه « العرب » بأن « اللغة العربية كما نراها في التراث الأدبي ، وكما لا تزال تستخدم عند كثيرين ممن يظنون انهم يكتبون أدباً ، توشك أن لا تنتمي الى دنيا الناس فلا تكاد ترى علاقة بينها وبين مجرى الحياة العملية ، ولذلك لم يجد المتكلمون بالعربية مفراً لهم من أن يخلقوا - الى جانب الفصحى - لغات عامية يباشرون بها شؤون حياتهم اليومية » ، ثم يعزز زكي نجيب كل هذا بادلة من نوع « انك عندما تقرأ كتابا من عيون تراثنا الأدبي تجد نفسك في احبولة عجيبة من الفاظ وتراكيب ، خيوطها سحرية تصرفك عما يرد من معنى ، لتعكف على النغم والجرس . انك تقرأ سطراً كما تقرأ سطرين ، أو عشرين سطراً ، فاحساسك هو أنك واقف مسمر القدمين في مكان واحد ، لا تتقدم من فكرة إلى فكرة ، إنما هو دوران في لا شيء ، في فراغ مُلئ بالزخارف ، لكنه ضرب من الكتابة لا يصلح أداة في عصرنا تصل بين كاتب وقارئ فيما يراد عمله بالنسبة الى أوضاع الحياة اليومية الجارية .. واذا كان هناك ما نحمد الله عليه فهو أن الناس في حياتهم اليومية يعرفون كيف يتفاهمون بلغة دالة على واقع » .

نعم ان أصحاب هذه الاتهامات للغة العربية في انفصالها عن المجتمع العربي ، أو عن الأغلبية الساحقة منه (معدل ثمانين في المائة من الأميين) وعن شؤون الحياة اليومية ـ لا يقدمون لنا بديلاً ولا حلاً وهم لا يجرؤون عن أن يقدموا لنا اللغات العامية كبديل لأنهم يعرفون أنها قد تصلح محلياً لهذا القطر أو ذاك من الأقطار العربية ، ولكنها لا تصلح للأمة العربية بأجمعها ، وهم يعرفون أن اللغة العربية مهما كان عجزها الحالي عن استيعاب المصطلحات العلمية ، فانها سترتقي برقي مجتمعها أو جزء المثقفين منه لهذا الاستيعاب . ولكن ما يبقى مشكلاً ، وما يوشك أن يضل مشكلاً دهراً آخر طويلاً ، لأنه بقي قائماً منذ حوالي أربعة عشر قرناً ، وما نريد نحن اليوم أن نطرحه ، فهو وجود لغتين للمجتمع الواحد ، لغة للخاصة يتفاهمون بها ، في جميع أنحاء القطر العربي ، ولغة أخرى تفصل كل فئة مثقفة في كل قطر ، وبين جمهورها في القطر نفسه ، كما تفصل بين الجماهير العربية في مختلف أقطارها ، ونحن نعلم أن هذا الفصل والتمزق لا يقتصر على اللغة أو مخارج حروفها ، وانما يستتبع فصلاً أعمق يتناول العاطفة والشعور والفكر والنظرة الى الحياة ، وما ندعو اليه هو القضاء على هذه الفواصل بالقضاء على الفواصل اللغوية .

نعم ان لغة الصحافة اليوم ربما حققت شوطاً في هذا الغرض ، وان بقي من بين فصحائنا من يتعالى عن استعمال لغة الصحافة استكباراً أجوف ، ولكن ألا يكون من العجيب أن نترك أمراً خطيراً كهذا لا يبحثه علماء الاجتماع ، ولا علماء اللغة ، ولا علماء المجامع اللغوية ، ويبقى لمبادرات الصحفيين وهم ما هم عليه من ضعف المستوى في المواد العلمية وفي المادة اللغوية ، وفي معرفة مشكلات المجتمع جميعاً معرفة معمقة ؟

ان الدكتور طه حسين يؤاخذ الحكومات العربية على أنها لم تحمل الناس على استعمال المفردات التي يخرجها المجمع اللغوي من مصنعه الضخم ، وهذه المؤاخذة تكون في محلها لو كانت الحكومات العربية مثل الحكومات في العالم

الاشتراكي تأخذ كل شيء بيدها وتحمل عليه الناس حملاً شاؤوا أم كرهوا : فهي تنظم الاقتصاد وتحدد الأسعار وتضبط العمل وكيفية الانتخابات ومقدار الملكية ، وتوجه الكتاب والمؤلفين وتسيطر على الفن واللغة والدين والأخلاق وتقوم بالثورات الثقافية .. الخ .

أما الحكومات التي ليس هذا منهجها العام ، بل هي تترك الحرية للناس في كل شيء ونطالبها بأن تضغط عليهم في استعمال مفردات المجمع اللغوي وحدها ، فهذا ضرب من الثورة لم يخلق بعد .

ان علماء اجتماع ليس من شأنهم ولا من اختصاصهم أن يتولوا تبسيط قواعد اللغة وحذف ما فيها من حشو ، وابتكار أساليب جديدة في تعلمها وكتابتها ، ولكن من شأنهم ومن اختصاصهم أن يطالبوا علماء اللغة بأن يحولوا بعض جهدهم الى هذه الناحية من بحوثهم اللغوية لأنهم أعرف من غيرهم بأن اللغة هي الممر الرئيسي الذي ينتقل منه مجتمعنا من التخلف الى التقدم ، ومن القعود الى النهوض . ان أي عامل اليوم ، وأي فلاح لا يستطيع أن يساهم في نهضة أمته ولا في اعالة ذريته اذا لم يكن له نصيب أدنى من المعرفة العلمية بعمله ، والمعرفة العلمية تتطلب لغة علمية من ناحية ولغة مبسطة مطواعة سريعة في متناول أكثرية الناس من ناحية أخرى ، انه لا مفر من أن تكون لمجتمعنا لغة واحدة لا لغتان ، وبقاء اللغة على ما هي عليه وعلى ما ظلت عليه منذ قرون الى اليوم سيدفع مجتمعنا ، ولعله فعل بعد ، الى تبني لغة لا هي عامية ولا فصحى ولا قومية اطلاقاً ، انما هي خليط من مفردات عربية وأخرى انكليزية وبعضها ايطالي والآخر يوناني أو روسي ، مع قبول ما ينشأ عن ذلك من قضاء على وحدة المجتمع بل ووحدة الأمة أيضاً .

ان علماء الاجتماع والاقتصاد يستطيعون أن يخططوا ما شاؤوا في الاقتصاد والزراعة والعمل والتجارة ، ولكن الاقتصاد يبقى قبل كل شيء سلوكاً انسانياً تشكله الثقافة والمستوى الحضاري والتمكن من الروح العلمي ، تزدهر كلها في المجتمع

أو تنكمش بما تكون عليه لغته من ازدهار أو انكماش .

قال « مونتيني » :

« ان اللسان هو الذي يعرف به الطبيب أمراض الجسم ، والفيلسوف أمراض النفس » .

لماذا بالفرنسية ؟

هناك مثل شعبي بسيط وعميق المغزى في آن واحد ، يقول : المتفرج فارس . أي أن الذي لا يمارس الصعاب بنفسه يسهل عليه أن يسدي النصائح للآخرين . كما أن المتفرج على الفرسان يستطيع بسهولة أن ينتقد ركوب هذا ، أو يعطي نصيحة للراكب الآخر .

تذكرت هذا المثل عندما قرأت مقالاً للأخ الأستاذ « محمد فاصلة » في الملحق الثقافي لجريدة المجاهد الناطقة بالفرنسية ، والذي صدر بتاريخ ٨ فيفري ١٩٧٤ ، بمناسبة تكوين اتحاد الكتاب الجزائريين . ومضمون المقال اجمالاً هو دعوة الى أعضاء الاتحاد لكي يعالجوا ، من بين مهامهم التي سيضطلعون بها ، كتابات تكون صالحة للاستعمال في النصوص المدرسية . ثم يقيم مقارنة بين نصوص هذه الكتب المقدمة الى التلاميذ باللغة الفرنسية ، وبين تلك التي تقدم لهم باللغة العربية ، فيجد الأولى تعالج مواضيع تتصل بالحياة البيئية والاجتماعية والواقعية ، بينما الثانية تتناول نصوصاً تجريدية ، مملة لا علاقة لها اطلاقاً باهتمامات الطفل . وبما أن اتحاد الكتاب ستكون مهمته هي اشعاع الثقافة العربية فيجب

أن يعمل على تقديم نصوص الى الكتب المدرسية تكون حية كمثيلتها التي تقدم بالفرنسية [1] .

فاتني أن أقول في مطلع هذا المقال أن مقال السيد فاصلة يحمل عنوان « اتحاد الكتاب وتعليم اللغة العربية » . وهذه الجزئية لها أهميتها لأنه يوجد الى جانبه مقال آخر للسيد محمد أمغار عن مشكلة « التعريب » يعالج فيها هو الآخر ، وبوصفه مزدوج اللغة ويعرف ماذا يقول ، مشكلة التعريب في بلادنا . ومقاله نظرة عامة عن جوانب مختلفة من مشكل التعريب ، يبدأ بالاستشهاد بما سبق أن كتبه هو بنفسه عن هذا الموضوع من أنه « يوافق على التعريف ولكن كيف ؟ » ثم يتعرض لمأساة الطفل عندنا بين لغة فصحى في المدرسة ، وأخرى خليط في البيت والشارع ، ثم ينتقل الى الاستشهاد بفلاسفة اللغة ، ليعود الى تجارب التعريب في البلاد العربية ، ومشكلة المصطلحات العلمية بين اللغة العربية واللغات الفرنسية والانجليزية والألمانية والروسية ، الخ . . لينهي مقاله باللوم على الفتيات الجزائريات المتعلمات بالعربية ولكنهن يتكلمن بالفرنسية عن عقدة في نفوسهن ، ليستخرج من ذلك عذراً للذين يتكلمون بالفرنسية عن ضرورة ، لأنهم لم يتمتعوا « بامتيازات» (كذا !) تعلم اللغة العربية .

وإذا لم يكن لهذا المقال موضوع محدد يعالجه صاحبه رغم ما يوحيه العنوان ،

---

(١) انبه الاستاذ فاصلة الى أنه ليس من الضروري أن ننتظر اتحاد الكتاب حتى « يبتكر » لنا كتابات للصبيان من نوع ما يقدم اليهم باللغة الفرنسية ، وانما يكفي أن ينتبه الاخوة الجامعون لهذه النصوص الى كتابات المازني أو طه حسين في « الأيام » أو حتى الطاهر الخميري في تونس ، فهي كتابات مستقاة من حياة الشارع والمنزل والمحيط ، ولغتها تكاد تكون شعبية بالرغم من ان مفرداتها فصيحة ، كما أذكر الأخ الاستاذ بأنه هو شخصيا كان على رأس مصلحة المطابع التربوية وكان في امكانه أن ينبه الجامعين للنصوص الى كتابات هؤلاء المؤلفين .

ثم ان المقارنة بين العربية والفرنسية كلغة هي مقارنـة غير صحيحة لان اللغة ليست عبارة عن أصوات وكلمات فحسب ، بل حضارة كاملة ، أي أنه لا يعقل أن ندرك بأن المقارنة بين حضارة الامة العربية في الوقت الراهن ، وحضارة الأمة الفرنسية غير جائزة في حين نجيز لانفسنا المقارنة بين لغتي الأمتين منفصلتين عن المستوى الحضاري العام لكل منهما .

فان هناك مقالاً ثالثاً ، ودائماً عن التعريب ، يحمل توقيع (ف ، س أو كاف حسبما يأتي بعده من حروف) ، وصاحبه يعرف بالضبط ماذا يعالج : انه لم يعد يطيق سماع اللغة العربية في هذه البلاد ، وبما أنه يستطيع أن يتخلص من الجريدة العربية والكتاب العربي بأن لا يشتريهما ، فانه بقي عليه شيء لم يستطع التخلص منه لأنه يقتحم عليه البيت دون أن يستشيره ، وهو الراديو . فيؤاخذه كما جاء حرفياً في مقاله ، على « أنه منذ أكثر من عام ينتج أغلبية حصصه باللغة الفصحى . . وبدء التعريب بالمدارس وبعض المؤسسات الأخرى مثل القضاء هو أمر ضروري ، ولكن هل من الضروري أيضاً أن تعرب كل برامج الاذاعة في الوقت الذي نعرف فيه أن سبعين بالمائة من السكان الجزائريين هم أميون . . اننا لا نستطيع الا أن نستنتج من ذلك أن هذه البرامج قد نظمت على أساس تفكير بورجوازي . . انه في الوقت الذي يبذل فيه الفلاح والعامل تضحيات جسيمة لكي يدفع ثمن راديو ، وفي وقت الثورة الزراعية والمؤسسات الاشتراكية يجب أن تكون فيه الاذاعة وسيلة لنشر المعرفة للجميع » . وفي مكان آخر يقول : « على أن هناك برامج أخرى مثل الأرض والفلاح تلقى باللهجة الدارجة ويفهمها الجزائريون . ان الاذاعة يجب أن لا تكون ، كما هي في البلاد الرأسمالية والبورجوازية في جهلها وتفاهتها . ولكن كيف يمكن للاذاعة أن تقوم برسالتها . اذا ظلت مصرة على استعمال لغة هي لغتنا لا محالة ، ولكنها في الوقت الحاضر ما تزال بعيدة عن أن يفهمها الجميع » .

هذه ثلاث مقالات نشرت في عدد واحد وفي صفحات متتالية في ملحق المجاهد الثقافي ، وكل واحد منها يتناول مشكلة العربية في الجزائر من ناحية ، فهل كان ذلك من قبيل الصدفة ؟ لعل هذا لا يهم ، ولا هو بالأمر الخطير ، لأننا لا نريد أن نستعمل نفس الديماغوجيا التي تعتبر من يكتب أو يتكلم بالعربية بورجوازياً وخائناً للثورة الزراعية والمؤسسات الاشتراكية الخ . .

ولكن ما يجمع بين المقالات الثلاث هو أنها تعالج مشكلة العربية ، ولكنها تستعمل اللغة الفرنسية . لمن ؟ ولماذا ؟ هذا هو المهم والخطير في نظرنا ، وليس

المحتوى ولا النوايا ، ولا الأهداف .

ان كاتبي المقالين الأولين يحسنان اللغة العربية ، والموضوع الذي كتبا فيه يهم المثقفين باللغة العربية في الدرجة الأولى . وأكثريتهم الساحقة لا يعرفون اللغة الفرنسية ، فكيف سيستفيدون من هذه الكتابات الفرنسية ؟ أم هذه جزئية لم ينتبه لها الكاتبان ؟ أم أن الذي يهمهما ليس أن يفيدا الآخرين بما يكتبان ، وانما يهمهما أن يكتبا شيئاً « رفيعاً » بلغة رفيعة يوجهانه الى متخلفين بؤساء هم المثقفون بالعربية ، اذا بحثوا عمن يترجم لهم ما جاء في المقالين ، أم أرادا أن يقولا للمثقفين بالعربية :

ان عربيتكم متخلفة لا تصلح حتى لنستعملها لكي نعرفكم بنقائصها ، ولذلك نحن نكتب بلغة راقية تستجيب لأفكارنا الراقية فيما يتعلق بلغتكم المتخلفة ؟ وهما هنا يفخران علينا بلغة راقية حقاً بالنسبة للغتنا على الأقل ، ولا يوجد فيها من التخلف ما يوجد في لغتنا لأن قومها وليس غيرهم ، هم الذين عالجوا نقصها بحضارة أربعة قرون متصلة ، ولكن عيبها بالنسبة الينا هو أننا لا نستفيد منها شيئاً عندما نعالج بها مشكلة لغتنا .

لذلك كنا نتقبل من الكاتبين كل ما قالاه عن اللغة العربية في الجزائر أو في غير الجزائر لو كتباه باللغة العربية نفسها ، لأنهما عندئذ يدخلان في صفوف أبناء هذه اللغة ، ويعالجان ما فيها من نقص . أما التكلم الينا بلغة أناس آخرين في شؤون تهم لغتنا نحن فانه لا يفهم منه الا التفاخر « على شعيرنا بقمح الآخرين » ، كما يقول المثل الشعبي .

هذا اذا كان الكاتبان يحسنان العربية ولا يستعملانها . أما إذا كانا لا يحسنانها فالخطب أكبر ، اذ كيف يؤاخذان العربية على تخلفها ، ويلومان المثقفين بها لقصورهم عن أن يرتفعوا بها الى مصاف اللغات العالمية ، وهما لم يعالجا حتى هذا النقص البسيط عندهما ، وهو أن يتعلما لغة بلادهما ويستعملاها في معالجة نقصها .

ان مجرد الحديث عن مستوى اللغة بعيداً عن مستوى شعبها ومثقفيها ، وعدم ادراك أن اللغة ترقى برقي أهلها ، وتتخلف بتخلفهم وانها من صنع الانسان قبل كل شيء — هو نفسه علامة تخلف ثقافي مشين . وثقافة المثقفين بلغة أجنبية لا تجعل لغة بلادهم راقية . وابتعادهم عن استعمالها الى استعمال لغة راقية لا يدل على أنهم أصبحوا في مستوى أهل تلك اللغة الأجنبية ، وإنما هم ما زالوا في سلوكهم ومستواهم الثقافي موازين لمستوى شعبهم المتخلف ، ولغته المتخلفة ، ولو لم يستعملوها ، ان هروبهم من استعمال أو تعلم لغتهم ، لا يجعلهم يندمجون في أهل اللغة التي يستعملونها من ناحية ولا يتيح لهم الاندماج في لغة أهلهم وشعبهم من ناحية أخرى وكل ما فعلوه هو أنهم خرجوا من حضارة بلادهم المتخلفة ، ولم يلتحقوا بحضارة الآخرين التي يستعملون لغتها .

ان هذه النقطة على غاية من الأهمية بالنسبة لأولئك الذين يتبجحون على لغتنا المتخلفة بلغة غيرهم الراقية ، انهم اذا كانوا مجاهدين حقاً من أجل لغة بلادهم ، فان أول جهاد ينبغي أن يقوموا به هو أن يثوروا على هذه اللغة كما يشاؤون . وعلى المثقفين بها ، وعلى كسلهم ، وانحطاطهم وجهلهم ، وكل ما يريدون ، ولكن على أن يفعلوا كل ذلك باللغة نفسها التي يعالجون شؤونها ، فيبرهنون بذلك على أنهم ثوار حقاً ، لأنهم يثورون — كما يقول لينين — على أنفسهم قبل كل شيء[1] .

(١) وقال موريس توريز « النقد والنقد الذاتي هما خبزنا اليومي » .

ان النقد الذاتي يعتمد على نظرة صحيحة للعمل الثوري ، اذ به يهيئ المناضل الظروف المواتية للنضال من أجل انتصار الحديث على القديم في وعيه هو وفي نشاطه اليومي ، ولهذا كان رفض الانتقاد الذاتي ليس حفاظا على الكرامة ، بل افسادا لامكانياتنا في التقدم وحكما علينا بالتقهقر وانحطاطا بماهيتنا ، (أنظر أصول الفلسفة الماركسية ـ تأليف جورج بوليتزير) مع ملاحظة أن الجديد في وضعنا الراهن هو أن تحل العربية محل الفرنسية ، لأن العربية هي المستقبل بينما الفرنسية تمثل الماضي عندنا ، وكاتب هذا المقال يكتب منذ سنة ١٩٦٥ عن التعريب ويركز باستمرار على نقد وضعية المثقفين بالعربية باعتبار ذلك من النقد الذاتي .

أما الآن فانهم يثورون على غيرهم من الخارج ويعتبرون المسألة لا تهمهم هم ، وانما تهم أولئك الآخرين أولئك البؤساء المنحطين ، الذين ينظرون اليهم باشفاق من برج « ايفيل » ويلقون عليهم من حين لآخر بنصائحهم الدسمة بالبروتينات الثقافية المكثفة التي تتغذى من مزرعة باسكال وديكارت وهيجو ومالرو .

ان أقل موقف أخلاقي أو وطني ، أو ثوري أو اشتراكي ، أو ما شئت من هذه الشعارات التي فقدت قيمتها مع الأسف عندنا ، هي أن يخجل المرء من استعمال لغة الأجانب ليفخر بها على لغة شعبه مهما كان شعبه وقراؤه بائساً منحطاً . وما مثقفو العربية اليوم في تخلفهم الا صورة لتخلف شعبهم ، ولكن قوتهم الوحيدة تكمن في أنهم هم الذين سيرقون يوماً بهذا الشعب عندما يستوفون امكانيات النهوض به . وليس ذلك ببعيد ، ولن يستطيع أن يقوم بهذا النهوض من يكتبون له بلغة لا يعرفها .

أصل الى الكاتب الثالث الذي يدافع عن الشعب ضد البورجوازيين المثقفين باللغة العربية ، فاذا افترضنا أن هؤلاء المثقفين يستعملون لغة لا يفهمها الشعب . أو يفهم منها نسبة مئوية ضئيلة نسي مفرداتها واستعمالاتها من جراء الانحطاط والاستعمار ولكنه ما زال يذكر منها ما يمكنه من فهم نصيب منها ، وان لم يفهمها كلها — فماذا نقول عن الذي يتوجه الى هذا الشعب نفسه بلغة ، ليست صعبة عليه من جراء النسيان والأمية وعهود الانحطاط والاستعمار ، وإنما هي لغة أجنبية عنه تماماً . والغريب أن هذا الكاتب يدافع عن الفلاح والعامل الذي يضطهده المثقفون باللغة العربية بلغتهم الفصحى الركيكة ، ولا يسأل نفسه : ماذا قدم هو لهذا الفلاح ، ولهذا العامل عندما يتوجه اليه باللغة الفرنسية ؟ وإذا كان المتحدثون للشعب بلغة فصحى بورجوازيين لأنهم لا يفيدونه بهذه اللغة ، فماذا يكون اذن أولئك الذين يتوجهون اليه بلغة قوم آخرين لا يفهم منها الفلاح والعامل لا الكثير ولا القليل ؟ هل يكونون هم الشعبيين والثوريين والاشتراكيين ؟

ان هذه الديماغوجية لا تقل خطورة على الثورة ، من الرجعية نفسها ، واننا لو نسمح لأنفسنا باستعمال نفس الديماغوجية مع بعض هؤلاء المغرورين وهم

ليسوا كثيرين من حسن الحظ ، لقلنا لهم : ان حقيقتكم في التهجم على اللغة العربية وأهلها مستعملين لغتكم الأجنبية ، هي أنكم قد امتلأت قلوبكم حقداً على مصير لغتكم الأجنبية في هذه البلاد ، وأنتم ترون ظلها يتقلص كل يوم أكثر في المدارس والشوارع . بينما اللغة العربية أصبح يستعملها الوزراء والرياضيون ، والأطفال والفتيات والمحامون والأطباء والجنود والعمال ورأيتم أن الثورة الاشتراكية نفسها التي تتبجحون بخدمتها بالفرنسية ، لا تستطيعون أن تبلغوها الى الشعب بلغتكم المتقلصة ، وشعرتم كل يوم أكثر بأن الخبز الذي تأكلونه اليوم سهلاً باستعمال لغة الأجانب سيصبح أكله أكثر عسراً عليكم في المستقبل اذا لم تتعلموا لغة الشعب ، وأن الظلام الذي تسترتم به حتى اليوم ينحسر حولكم كل يوم أكثر ، ولكنكم لا تستطيعون أن تنادوا بابقاء اللغة الأجنبية في المدارس والمحاكم لأنكم تصادمون السلطة العليا وجهاً لوجه ، فأثرتم أن تهاجموا جانبياً : انكم لستم ضد التعريب ولكن ...

ان هذا المنطق الديماغوجي يقودنا الى النتيجة الآتية : اذا كان المستعملون للعربية الفصحى يمثلون الفكر البورجوازي فان الذين يستعملون الفرنسية يمثلون « حزب فرنسا » في هذه البلاد .

ولكننا من ناحيتنا لا نريد ، ولا نرغب في النقاش على هذا البساط الملغم ، نحن نعرف أن الذين يستعملون اللغة الفرنسية في معالجة شؤون الشعب الثقافية ، هم ضحايا الاستعمار الفرنسي الذي وقف حاجزاً بينهم وبين لغة شعبهم وثقافتهم وتراثهم ، ونعرف أنهم لو تمكنوا في طفولتهم في الدراسة بلغتهم الوطنية لما كانوا اليوم في هذه الوضعية الهجينة التي تضطرهم الى المنطق الديماغوجي . ونحن بكل اخلاص لوضعهم هذا ولو لم يألموا لأنفسهم كألمنا لهم .

ونعرف من ناحية أخرى أن المثقفين بالعربية هم أيضاً في تخلفهم الثقافي ليسوا ذوي « امتيازات » بل ضحايا لنفس الاستعمار الفرنسي ، لأنهم في طفولتهم لم يجدوا هم أيضاً مدارس وطنية تعلمهم ثقافة حية بلغتهم . كما هو

الأمر في بلاد الآخرين ، فاضطروا لالتقاط ما وجدوه في بلادهم أو خارج بلادهم من الزوايا أو ما يشبهها .

هذا هو سبب مأساتنا جميعاً ، وسبب مأساة العربية معنا في هذا البلد ، وسبب تمزق مثقفينا ـ على قلتهم ـ الى معربين ومفرنسين ، وليست هذه العشر سنوات من الاستقلال هي التي ستتمكن ـ مهما كانت العزائم والتضحيات ـ من تصليح ما أفسدته القرون ، لأن بناء الرجال يتطلب ـ مع الأسف وقتاً أطول ـ من بناء الجدران ، ولكي تقيم مطبعة من أحدث طراز يكفي أن تشتريها بالعملة الصعبة من الخارج وتقيمها في ظرف عام واحد ، أما لكي تضع في هذه المطبعة صحافيين وكتبة ماهرين مقتدرين فهذا لن يتم لك الا بعد عشرات من السنين ، ولكي تخرج المثقفين ثقافة محلية الى دائرة الثقافة العالمية فهذا يتطلب منك وقتاً أطول ، وهو أيضاً شيء لا يشترى بالعملة مهما كانت صعبة ، بل يغرس ويعتنى به علاجاً ورعاية ، وتحف به العزائم والأخلاق والجرأة والصبر والمثابرة ليلاً ونهاراً وصيفاً وشتاء ، إلى أن يترعرع ويقوم على سوقه ويأتي بثماره .

وكذلك لكي تعيد من تثقف ثقافة أجنبية ورضعها منذ صباه ـ الى ثقافته الوطنية ، فكأنما تطلب منه أن يستعيد ما كان له في طفولته من قوة الالتقاط وصفاء الاحساس ونباهة الادراك وسرعة التقبل ، وكل هذا يكون مستحيلاً ، ولذلك لا نطلبه من اخواننا المثقفين بالفرنسية ، لأنهم ضحايا ، والكثيرون منهم يعرفون أنهم ضحايا ويأسفون لذلك ويخجلون من وضعهم رغم ثقافتهم المتينة واحاطتهم بحضارة عصرهم ، فيزيدنا خجلهم تقديراً لهم ، ولا نملك الا أن نبادل شعورهم النبيل بشعور الأخوة والتماسك معهم . وكنا نود أن لو اجتزنا مرحلة الطفولة التي تجعل بعضنا يقف في صف المفاخر بكنوز غيره ، والآخر في موقف المدافع عن فقره ، ونلتئم ـ مهما كانت اللغة التي تثقفنا بها ـ تحت راية العمل والبحث عن تكميل نقص البعض بكمال البعض الآخر ، فنبرهن على اكتمال نضجنا السياسي الجدير بمكانة بلادنا بين أمم العالم ، ولكن يبدو أننا

لم نبلغ بعد هذه السن من الرشد . وأن تخلفنا الفكري ، مهما كانت اللغة التي تثقفنا بها ، هو أضعاف تخلفنا الحضاري .

انني ما كنت أتوقع من اخواننا المثقفين بالفرنسية أن يبرهنوا على جهلهم لكل هذه البديهيات ولكن يبدو أنه من الضروري أن ننبههم إلى أن مجـرد كونهم يكتبون بالفرنسية لا يصيرهم مثقفين ومفكرين من طراز عالمي . ان تخلف أمتهم يلاحقهم ، حتى ولو غلفوه بقشرة رقيقة من لغة مستعارة ، ومـا يمتاز به عليهم المثقفون بالعربية هو أنهم فقط لا يملكون هذه القشرة البراقة .

لماذا العربية !

عندما كتبت مقال « لماذا بالفرنسية » فوجئت بترجمته تحت عنوان « لماذا الفرنسية » وأنا لا أنكر على الناس أن يتعلموا الفرنسية أو غير الفرنسية من اللغات العالمية ، بل كنت ، وما زلت أحرض طلابي على تعلم لغة أجنبية ، وأن لا يقتصروا على العربية وحدها ، لأنها لا تحمل بعد ، كل انتاجات الفكر الحديث المعقد . وقد بذل الكثيرون منهم جهوداً كبيرة لتعلم الفرنسية ، وكان ذلك من أسباب سروري . على أن عدد الذين لا يحسنون الفرنسية اليوم من بين الطلاب ، أخذ يقل ، ويحل محله طلبة يحسنون اللغتين ، فلا أجد معهم من التعب ما كنت أجده في السنوات الماضية مع المقتصرين على العربية وحدها .

والعنوان كما جاء في الترجمة الفرنسية يحمل على الاعتقاد بأني أستغرب أو أستنكر تعلم هذه اللغة ، وهو أمر بعيد كل البعد عما أقصده ، وانما تساءلت : « لماذا بالفرنسية ؟ » وشرحت للاخوة الذين ناقشتهم ، قصدي من هذا السؤال وهو : لماذا لا يتعلمون العربية أولاً ويناقشوا مشاكلها بعد ذلك باللغة العربية نفسها . وأعتقد أن هذا هو الموقف الطبيعي ، فقد تناقش الفرنسيون أنفسهم في

مشاكل لغتهم طيلة شهور وشهور، وبحثوا عن وسائل تدعيمها أمام غزو المفردات والاستعمالات الانكلوسكسونية، ولكنهم لم يقوموا بهذه المناقشة باللغة الانكليزية، بل قاموا بها، ولعل الكثيرين منا قد تتبعوها على صفحات « لوموند » ـ بالفرنسية.

أما مناقشتنا لمشاكل اللغة العربية، باللغة الفرنسية، فاعتقد أنه موقف غير طبيعي، وهو ما جعل جريدة فرنسية تعلق على مناقشتنا بقولها: « الجزائريون لا يعرفون بأي لغة يتكلمون » ! كذلك من الالتباسات التي أود أن أرفعها، هو أن كل الأخوة الذين ردوا على مقالي باللغة الفرنسية احتفظوا من كل المقال بفكرتين أساسيتين: الأولى هي أني أتهجم على المثقفين بالفرنسية، وأضع في مقابلهم المثقفين بالعربية، والفكرة الثانية التي احتفظوا بها هي أني اتهمت المثقفين بالفرنسية بأنهم يمثلون حزب فرنسا هذا مع أني نصصت فيما يتعلق بالفكرة الأولى على أن الذين يحتقرون العربية وينعتون أهلها بأنهم بورجوازيون، هم من حسن الحظ قليلو العدد في بلادنا رغم شغبهم الكثير، وقلت أن لي أصدقاء من المثقفين بالفرنسية يحملون من العاطفة الوطنية لبلادهم ولشعبهم ولتراثهم ما جعلهم يكونون في طليعة المناضلين السياسيين قبل الثورة وأثناءها وبعدها، وهم اليوم من أعمق الجزائريين اخلاصاً لجزائريتهم العربية، واذن فالمسألة في ذهني ليست مسألة مثقفين بالفرنسية (بالجملة) يقابلهم المثقفون بالعربية (بالجملة) أيضاً، وإنما هي، وهذا ما نصصت عليه في المقال، وأعيده هنا، مسألة نضج سياسي لم يتشبع منه بعض الأفراد المعزولين مهما تكلموا باسم الشعب. اذ لو تشبعوا بهذا النضج السياسي لما وضعوا بلادهم في صف الدول المحرومة من لغة قومية حرماناً جعلهم يلجأون الى استعمال لغة المستعمر السابق، لأن كل ما يملكون من التراث، في ميدان اللغة هي لهجات عشائرية تعد بالعشرات، وأحياناً بمئات اللهجات، التي لا تجمعها لغة قومية أصلية ترجع اليها. أما الوضع عندنا فمختلف جداً، اذ مهما تعددت عندنا « اللهجات » الشعبية مثل مختلف الأقطار العربية، فان لنا فوق هذه اللهجات « لغة » ثقافة، وهذه اللغة كانت في زمن قوة أهلها، حضارياً واجتماعياً وسياسياً: هي اللغة

العالمية الوحيدة . واذا ما أصابها بعد ذلك ركود من جراء ركود أهلها الحضاري والاجتماعي والسياسي ، فاصبحت متخلفة ، كما أصبحت الصينية واليونانية مثلاً ، فان ذلك لا يكفي لنعاملها معاملة الأموات ونزيد على قتلها بمقارنتها بلغات الأمم المتقدمة بدل مقارنتها باللغات القديمة التي تستعيد اليوم حياتها من جديد كالصينية والعبرية.بل أعتقد أننا كما تجندنا لنخرج بالتضحيات والتعب والصبر ، من الاستعمار الأجنبي ، وكما نتعب اليوم ونصبر ونضحي من أجل استعادة اقتصادنا الى مجاله الطبيعي ، وهو أن يصبح اقتصاداً وطنياً ، بعد أن كان تابعاً لفرنسا ، وفي الوقت نفسه نطوره ونخرجه من ظروف التأخر التي عاناها مجتمعنا حقبة طويلة من تاريخه ـ فكذلك نعامل ثقافتنا الوطنية بما فيها اللغة ، بل وفي مقدمتها اللغة ، فنرجعها الى مجالها الوطني بعد أن كانت هذه الثقافة تابعة لفرنسا ، وفي الوقت نفسه نطورها لنخرجها من ظروف التأخر التي عانتها بسبب تأخر مجتمعنا حقبة طويلة من التاريخ .

ان ثقافتنا الوطنية اليوم تقع في كماشة خانقة من ناحية رواسب التأخر التي ورثناها عن عهود الانحطاط ، والتي ما تزال ماثلة فيها كما هي ماثلة في سلوكنا الحضاري ، ومن ناحية أخرى تبعيتنا للغزو الأجنبي الذي تخلصنا من أثاره السياسية والعسكرية والاقتصادية ، ولم نتمكن بعد من التخلص من أثاره الثقافية وحتى السلوكية عنـد البعض . ولكن كما لم نستسلم للتبعيـة السياسية والعسكريـة والاقتصادية ، فاننـا لن نستسلم للتبعيـة الثقافية الاستعمارية ، وكماأن تخليص بلادنا من التبعيـة السياسية للاستعمار الأجنبي لم تجعلنـا نعود إلى سياسة العروشية والتشتت القبلي الذي كنـا نعانيه قبل الاستعمار بل دعمنـا الروح الوطنية حتى لم يعد هناك تمايز بين جزائري وآخر تبعـاً لعرشه أو قبيلتـه ، وما زلنا ندعمها كل يوم أكثر بأنظمـة الانتخابات والمؤسسات الديمقراطية التي لم يكن يعرفها أجدادنا ، وأيضاً كما أن تخليص بلادنا من التبعيـة الاقتصادية للاستعمار ، لم تجعلنا نعود إلى اقتصاد ما قبل الاستعمار ، ونعتمد على المحراث الـذي يجره حمـار هزيل ، بل طورنـا هذا الاقتصاد إلى أعلى مما كان عليه في زمن الاستعمار

نفسه ، فكذلك لن يكون تخليص ثقافتنا من التبعية للاستعمار ، يعني أن نعود بها إلى ما كانت عليه في عهد الانحطاط من الكتاتيب والألواح والزوايا وكتابة الحروز . بل سنطور ، وقد طورنا بالفعل هذه الثقافة ليس فقط الى أرفع مما كانت عليه قبل الاحتلال الأجنبي ، بل طورناها إلى أعلى مما كانت عليه في عهد الاستعمار الفرنسي نفسه ، وسيستمر هذا التطوير بسرعة متزايدة في اتجاهين : الاتجاه التقني الذي هو اتجاه صعودي يجعلها قادرة على اللحاق بركب الحضارة الحديثة ، والاتجاه الثاني شمولي ، وهو أن لا يقتصر هذا التطوير على فئة أو طبقة معينة من المواطنين ، بل يتوسع أكثر فأكثر نحو القاعدة الشعبية ، حتى تصبح النهضة الثقافية في متناول الجميع دون تميز .

وهنا نصل الى قضية التعريب بالمعنى الضيق : اذا فهمنا أن التعريب بمعناه الواسع ليس هو أن تحل الحروف العربية في بلادنا محل الحروف اللاتينية على الواجهات والدكاكين بل التعريب هو استعادة الثقافة الوطنية (التعليم والاعلام والفنون والآداب والعلوم) وتطويرها في نفس الوقت ـ اذا كان هذا هو التعريب بمعناه الواسع ، فيجب أن نفهم التعريب بمعناه الضيق هو أن تكون هذه المواد كلها وبدون استثناء باللغة الوطنية ، أي العربية ، لماذا ؟ يقول بعض الاخوان لأن العربية هي لغتنا الوطنية (مسألة مبدأ) ، ولأنها هي التي تجمعنا بالأقطار العربية التي ننتمي إليها ، وأنا أقول : العربية لأنها أولاً وقبل كل شيء هي التي تجمعنا إلى شعبنا (مسألة عملية براقماتية) ، فنحن لا نستطيع أن نعلم شعبنا كله الفرنسية لكي نطوره ثقافياً لأن هذا يؤدي بنا شئنا أو أبينا الى أن نذوب ، اقتصادياً وسياسياً وثقافياً طبعاً ـ في المجتمع الفرنسي ، واذن نكون قد ضحينا بمليون شهيد عبثاً ، ولأننا ثانياً لا نستطيع أن نعلم شعبنا كله أي لهجة من لهجاته العامية لأنها ليست لهجات ثقافية أولاً ، وثانياً لأن هذه اللهجات كلها ، وبدون استثناء تعود الى أصل عربي ، ومن ثم فانها تحمل نسبة من المفردات العربية تتراوح بين سبعين وتسعين في المائة ، ثم لأن استعمال أي لهجة من اللهجات عندنا ، مهما كانت قليلة ، فانه يسهل شفهياً ، ولكن يصعب كتابة أكثر من صعوبة العربية بمئات المرات ، وأخيراً اذا استعملنا أي لهجة

من لهجاتنا المحلية فان أقرب الحروف المعبرة عن مخارجها هي الحروف العربية لا غيرها ، واذا استعملنا الحروف العربية فانه يكون من المفيد والعلمي أكثر ، أن نستعملها في تعلم العربية نفسها بدلاً من استعمالها في تعلم لهجة من لهجاتها عندنا .

نعم هنا نصل الى مسألة أخرى ، وهي أن العربية التي نستعملها اليوم ، وخاصة عندنا في الجزائر ، هي عربية أقرب الى لغة عهد الانحطاط القديم ، منها الى العربية التي تستعملها الشعوب العربية الأخرى في العصر الحديث ، وهذا صحيح فنحن نلح كثيراً على الاعراب في أواخر الكلام ونعتبر العربية ، كما يقول ابن خلدون ، هي معرفة قواعدها ، وليس مفرداتها وتراكيبها والتصرف فيها بطلاقة وحرية ، الا أنهذا العيب ليس عيب العربية بل عيب الجزائريين الذين يستعملون العربية ، انه في مقدورهم أن يستعملوا العربية الفصحى ، وهذا لا مفر منه كتابة ، لأن العامية ليست لغة كتابة ولا لغة حساب ولا لغة علم ، ولكن في امكانهم عند التكلم أن يبسطوا هذه اللغة الفصحى نفسها بأن لا يستعملوا حركات اعرابها بمثل هذا الحرص العجيب ، وأن يستعملوا المفردات الشعبية ذات الأصل العربي ، وهذا التصرف الحر الطليق كان دائماً موجوداً في العربية منذ عهد الجاحظ الى اليوم في أقطار المشرق العربي كلها دون استثناء ، حتى في الجامعات يتكلمون لغة عربية (شعبية) ان صح الاستعمال ، أي لغة مفرداتها وتراكيبها عربية فصحى ، ولكنهم يستغنون في الغالب عن المفردات «القحة» اذا وجد ما يقابلها « بالعامية » ، فيقولون « الكاس » بدل « الكأس » و « باس » » عوض « قبل » وهي عربية فصيحة بل لهجة من اللهجات العربية الفصيحة توارثها شعبنا شفهياً جيلاً عن جيل ، وان لم يتعلمها في المدارس أو بواسطة القواعد .

هذه العربية التي تتعمق الى الشعب بهذه الصورة الميسورة لا أعتقد أنها ستكون صعبة على شعبنا الأمي أن يفهمها اذا استعملت له مخاطبة فقط ، أما الكتابة فلابد من تعلمها على أصولها واستعمالها ، وفق قواعدها مثل كل لغة حية في العالم ، مع الحرص باستمرار على تبسيط هذه القواعد وتسهيلها ، وهذا يستغرق وقتاً طويلاً ، ولا يتوقف عند جيل من الأجيال ، ومع مرور الأجيال أيضاً تتقارب

اللغة المكتوبة أكثر فأكثر من اللغة المنطوقة الى أن يصبح الاندماج بينهما نهائيا وحقيقة قائمة في الواقع ، وتزول ليس فقط الازدواجية التعسة المخجلة بين مفردات عربية وأخرى فرنسية من مجتمعنا ، بل تزول حتى الازدواجية بين عربية فصحى وأخرى عامية .

ثم هل يعني هذا أن العربية ستكون هي لغة الثقافة الوحيدة في بلادنا عندما تبلغ هذا الحد من النضج ؟ كلا ، الى جانب توسيع العربية واعطائها هذا الطابع الشمولي يجب أن نشجع تعلم اللغات الأجنبية ، وأقول « اللغات » الأجنبية لا اللغة الأجنبية ، فليست اللغة الفرنسية هي وحدها لغة الثقافة ، وليست هي وحدها اللغة العالمية المنتشرة ، ان تعلم اللغات اليوم أصبح ظاهرة عالمية ، حتى أبناء اللغات المتقدمة يتعلمون لغات المجتمعات المتخلفة ، لأن كل لغة تحمل تراث شعب ، وتجارب حضارة ، وذخيرة من ذخائر الأنسانية الزاخرة . وكلما تعلمنا لغة زائدة فمعنى ذلك أننا تعلمنا شيئاً من تراث شعبها ، وأطلعنا على تجارب حضارتها وأغنينا أنفسنا بشيء من ذخائرها ، وهذا أثمن ما يصل اليه مجتمع في حياته الثقافية ، وأروع ما يحصل عليه فرد في حياته الفكرية. ، وهو أقدس وأطهر رابطة بين الشعوب ، ولكنه أمر لا يتم الا إذا حرص فيه كل شعب أن يكون هو بشخصيته وتجاربه وتراثه وعبقريته ، وأن لا يكون نسخة مشوهة من الآخرين .

وهنا أعرف أن الأخوان الذين ردوا على مقالي بردود مختلفة ، سيقولون ، يا سيدي انك اليوم تتكلم لغة جديدة ، وتأتي بأفكار معتدلة ، ولو أنك استعملت هذه اللهجة في مقالك الأول لما بقي بيننا وبينك خلاف كبير .

ولكن لا نغتر ، ان هذا الكلام مني ليس جديداً الا بالنسبة للذين لا يقرؤون ما ينشر بالعربية في هذه البلاد ، اذ أن هذا الموقف هو الذي ينادي به قطاع كبير من المثقفين بالعربية وينشرونه في الصحف والمجلات والمحاضرات والأحاديث الاذاعية منذ سنوات ، وهو الذي سنسير عليه الى النهاية لأنه هو الطريق الوحيد الذي يقود شعبنا الى الخروج من التخلف الثقافي ويعيد اليه شخصيته صحيحة قد برئت من كل الأمراض التي عاناها من عهدي الانحطاط والاستعمار معاً .

وهذا ما يقنع به المثقفون بالعربية بعضهم بعضاً ، ويكاد يصبح اليوم محل اجماع من طرفهم في العقيدة والتطبيق معاً ، ولئن لم تظهر أثاره بارزة لكل العيان ، فان ثماره قاربت النضوج ، وسيراها يوماً حتى أولئك الذين يفضلون أن يضعوا أيديهم على أبصارهم ويبقوا في أحلام الماضي مخدرين .

واذن ما الذي جعلني لم أكتب مقال « لماذا بالفرنسية » على هذا النحو المعتدل البناء ؟ سيأتي الجواب فيما بعد .

ان الذين لا يؤمنون بما نقول عن مستقبل العربية هذا ، سيباغتون في كل مرة بشيء جديد كما بوغتوا بميلاد اتحاد الكتاب منتخباً من القاعدة ، حتى عبر أحدهم عن هذه المباغتة بقوله بكل سذاجة : « انني لا أعرف منهم أحداً قبل اليوم لأن كتاباتهم لم تترجم لنا » ، مما اضطرني الى الرد عليه : « اذن ما عليك الا أن تتعلم العربية لكي تعرفهم ، وليس علينا نحن أن نترجم لك بالفرنسية حتى تعترف بوجودنا » ، بل وقد وجد بعضهم غرابة في هذا الرد ، كما لو كان من الطبيعي أن يحصل انتاجنا بالعربية على بركة الفرنسة لكي يشعر مواطنونا بوجودنا وبانتاجنا وليس من الطبيعي أن يتعلموا — هم العربية — حتى يعرفوا شيئاً عن ثقافة شعبهم وأبناء شعبهم .

وإني لأتصور — والخجل يملأ نفسي — قارئاً فيتنامياً أو صينياً أو عربياً في بلادنا يطالع هذه المناقشة في صحفنا ، كيف ينظر الينا وكيف يتصور ثورتنا وشعبيتنا واشتراكيتنا الثقافية ، وأذكر ما حدثني به يوماً مسؤول في وزارة التربية عندما سأل وزير فيتنام للتربية وقد كان يزور بلادنا : « ماذا صنعتم لتحيلوا لغتكم الفيتنامية محل اللغة الفرنسية بعد الاستقلال ؟ فأجاب الوزير الفيتنامي بهذا الجواب : « كان الأمر بسيطاً جداً ، أصدرنا قراراً حكومياً بمنع استعمال اللغة الفرنسية ، واستعمال اللغة الوطنية مكانها ، وانتهى الأمر » .

أما عندنا فبعد أثني عشر عاماً من الاستقلال ما يزال شبابنا يستغرب وجود مثقفين في بلاده بلغتهم الوطنية كما لو نزلوا فجأة من السماء ، لأن انتاجهم لم

يترجم الى الفرنسية .

وما يزال عندنا من يتساءلون : لماذا القناة الأولى (العربية) في الاذاعة ؟ ولم يتساءل لماذا القناة الثالثة (الفرنسية) ؟

ونحن بدورنا لم نتجرأ يوماً أن نتساءل : لماذا هذه الصحف بالفرنسية في بلادنا ؟ ونحن نعرف أن وجودها قد أعان على اعاقة حركة التعريب ، ونعرف أن هذه الصحف لو تحولت الى اللغة الوطنية لاضطر كثير من قراء الفرنسية وفي مقدمتهم صحفيوها ، الى تعلم العربية حتى يقرءوا صحفهم الوطنية ويكتبوا فيها بلغتهم الوطنية .

ولكننا نعرف من جهة أخرى أن التدريج وتعود الناس شيئاً فشيئاً على استعمال لغتهم في المدارس وبعض وسائل الاعلام والثقافة ، وانتظار الأجيال الجديدة المعربة سيكون كافياً لانجاز التعريب ، فلم نجزع للوضع الشاذ الذي انفردت به بلادنا دون البلاد العربية كلها مشرقاً ومغرباً ، لأن ظروفنا التاريخية نفسها لم تشبه ظروفهم في شيء .

ولكن أن يصل الأمر ببعضهم ، وأكرر مرة أخرى أن هذا البعض لا يشكل حتى فئة معينة ، بل هم أفراد معدودون ، أن يصل بهم الأمر الى نعتنا بالبورجوازيين ، وأنهم هم يتكلمون بلغة الشعب ويدافعون عن العمال والفلاحين ضدنا ، فهذا ما لم نتحمله ، وهنا أصل الى اجابة الأخوان الذين ردوا على مقالي ، ووجدوه مفرط العنف والتهجم ، فأقول لهم : لقد غضبتم ومست كرامتكم لأني استعملت كلمة « حزب فرنسا » ، ولكنني لم أجد واحداً منكم قد التفت بملاحظة ما ، الى من شتمنا بالبورجوازية لأننا نستعمل العربية ، كما لو كنتم تجدون من الطبيعي أن نشتم نحن فنسكت ، ونرد الشتيمة فتقوم القيامة . كما اني لم أجد واحداً منكم ولا من الذين كتبوا بالفرنسية عن التعريب قد حرض المثقفين بالفرنسية على تعلم العربية ، وإن كان الكثيرون والحمدلله قد تعلموا العربية بدون هذا التحريض . ان ما قلته في أول هذا المقال عن ضرورة تبسيط قواعد اللغة العربية

في الكتابة واستعمال الدارجة المهذبة في التخاطب هو موقف حللته في مؤتمر علماء الاجتماع العرب ، بالاعتماد على دراسات ونصوص للأخ مصطفى الأشرف ، وخصصت قبل ذلك فصلاً كاملاً من أطروحتي ذهبت فيه الى حد من التبسيط بعيد جداً ، وذلك بالاعتماد على أفكار ابن خلدون ونصوص له في هذا الشأن ، وكتبت عنه سلسلة من الدراسات والمقالات في المجاهد الثقافي بالعربية طيلة سنوات . وهذا الموقف هو الذي أطبقه في أحاديث لي بالإذاعة نوهت بها جريدة المجاهد اليومية نفسها أكثر من مرة ، وهو الموقف الذي ينتشر شيئاً فشيئاً في أوساط المثقفين بالعربية ولكنهم لا يستطيعون كلهم استعماله لأنه يتطلب تمكناً من اللغة الفصحى نفسها حتى يمكن التصرف فيها وتبسيطها للناس ولأن متعلم العربية كلما كان ضعيفاً فيها كلما التزم بقواعدها مع الأسف ، نفعل كل هذا ، وسنواصله كما قلت حتى تتحقق نتائجه كاملة ، لا خوفاً من هؤلاء السادة الذين يحتقرون العربية البورجوازية ، بل لأنه هو الطريق الوحيد للالتقاء بشعبنا .

ولو أن هؤلاء تقدموا الينا بأنه من حقهم علينا أن نعينهم على تعلم اللغة العربية لاستجبنا لهم بكل أخوة وتناقشنا وإياهم في أفضل الطرق وأقربها الى تعلم العربية بسهولة . ولكنهم من « الطاس للراس » راحوا يتساءلون عن فائدة وجودنا في هذه البلاد ، فسكتنا ، ثم تطوروا فأصبحوا يجدوننا بورجوازيين (أي خونة للثورة الاشتراكية) ، ولا ندري ما هي « المودة » التي سيخرجون بها علينا في يوم آخر . لعلنا سنكون يوماً عملاء للأمريكان والرأسمالية العالمية أو دعاة رجعية الى الماضي المريض ، أو أننا نمثل عهد آدم في التأخر ، أو نقوم بتخريب النهضة الصناعية في بلادنا لأنها تمثل الكفر والالحاد ، الى آخر ما يتصورنا عليه هؤلاء الناس .

انني أجيب هؤلاء الأخوة الناقدين ، وأجيب في نفس الوقت جميع اللائمين مشافهة من الأصدقاء الكتاب بالفرنسية ، والأطباء والمحامين وغيرهم ممن تأذوا من لهجة المقال — أجيبهم بأننا نحن المثقفين بالعربية في أغلبيتنا أبناء فلاحين ، تغلب علينا الطيبة والصبر والتسامح مع الأخ والقريب والجار والمواطن ، ولكن اذا ديست كرامتنا وشعرنا بنية الاهانة المقصودة أو الاستخفاف أو فهمت هذه

الطيبة على أنها ضعف ، فاننا عندئذ لا نعرف الا أن نتصرف كفلاحين ، والذين يتصورون المثقفين أبناء الفلاحين نعاجاً لا يهمهم الا أن يجدوا « حشيشة للمعيشة » يخطئون خطأ جسيماً ، وتحت يدي الآن آخر برهان على ذلك أقدمه لهم :

من بين الرسائل التي تلقيتها عن مقال « لماذا بالفرنسية » رسالة وردت علي من « ايكس » بفرنسا ، أقتصر عليها لأهميتها وأهمية ما يمثله صاحبها ، وان كنت لا أستطيع أن أنشرها بكاملها لأنها تثير من المشاكل ما لا نرى فائدة وطنية من نشره ، يقول الأخ المراسل :

« . . أقدم لكم نفسي أولاً : أنا عبد الحميد ابراهيم عشيط ، طالب في قسم الدكتورا في الحقوق في كلية « ايكس آن بروفانس » اكتب لكم هذه الرسالة لأعبر لكم عما نشعر به هنا نحن الطلبة وعددنا ثمانية نحضر دكتورا الدولة في القانون والإقتصاد . . وإني أتحمل مسؤولية ما أقول وأطلب منكم ، ان أمكنكم أن تنقحوا هذه الرسالة وتنشروها تحت أي عنوان شئتم أو تترجموها . . ان الفرنسية دخلت الى بلادنا مع المستعمر وكان يجب أن تخرج معه . . أما هؤلاء الأشخاص فاننا نعجب كيف أنهم بعد أثني عشر عاماً من الاستقلال لم يتعلموا لغتهم الوطنية في الوقت الذي أصبحت فيه العربية في بلادنا تسمع في كل لحظة ، في البيت وفي المدرسة وفي الاذاعة والتلفزيون وفي خطب الرئيس وكل الوزراء بدون استثناء ، في حين أن هؤلاء الناس تعلموا لغات أجنبية زيادة عن الفرنسية في سنوات قليلة ، ويحفظون الأغاني الأجنبية ويرقصون على أنغامها (. . .) أما بالنسبة للجزائر فانهم يعيشون في قصور من العاج بعيدين كل البعد عن الشعب لا يفهمون لغته ، ومع ذلك يتكلمون عن الشعب ، انني أتذكر احدى خطب الأخ الوزير بوعلام بن حمودة حين أخذ الكلمة أمام القضاة الذين زعموا أن تعريب القضاء يجب أن يمر بمراحل فأجابهم بأن من يقول أن العربية ما زال وقتها لم يجىء بعد يذكرنا بموقف أولئك الذين كانوا يقولون لنا أن الثورة التحريرية ما زال وقتها لم يجىء بعد ، أولئك الذين قعدوا عن الجهاد يتفرجون من بعيد حتى غمرتهم الثورة بأمواجها الشعبية الرهيبة .

وأذكر أيضاً أن هؤلاء الناس هم الذين فرحوا لهزيمة العرب في سنة ١٩٦٧ لأنهم وجدوها فرصة لأن يقولوا لنا : أرأيتم النتيجة . ان هذه الهزيمة سببها استعمال العربية التي لا يعرف الناطقون بها كيف يستعملون الأسلحة الحديثة .

وأذكر أخيراً أنني شاركت في السنة الماضية في حملة التطوع في جبهة خميس مليانة ، وكنت مع سبعة من زملائي كلنا من الأقسام الفرنسية ، وكنت الوحيد الذي أعرف العربية ، فقلت لهم : تحدثوا مع الشعب ! اشرحوا له ميثاق الثورة الزراعية باللغة الفرنسية . فقالوا لي : والله لو لم تكن معنا لذهبت أعمالنا عبثاً . وتكلمت مع الشعب لا باللغة الدارجة بل باللغة الفصحى وكانوا يفهمون جيداً ما أقول كما يفهمون الأخبار وخطب الرئيس . ان هؤلاء الذين يزعمون أن الشعب لا يفهم العربية هل تحدثوا هم مع الشعب في الأرياف الجزائرية ؟ انني أشك في ذلك ووالله لو أن الحكومة فرضت عليهم تعلم الانجليزية أو الروسية أو الألمانية لما وقع هذا الضجيج الذي أثاروه على العربية ، فأقاموا علينا الدنيا وأقعدوها . ولذلك فان اعتقادي هو أن المشكل سياسي في الدرجة الأولى ، لقد لقيت الدولة نفس هذه الصعوبة عندما كانت ترسي قواعد الثورة الصناعية ، وهي اليوم مشغولة بالثورة الزراعية ، ولكن هناك من يعرف بأنها لن تنتهي من الثورة الزراعية حتى تشرع في الثورة الثقافية ، أي في ثورة التعريب . لأن الثورة الثقافية كما قال وزير الاعلام الأخ أحمد طالب ، هي التعريب ، والتعريب هو الثورة الثقافية ، ولأنه بعد ١٩٧٥/٧/٥ ينتهي العمل بالقانون الفرنسي ويحل محله قانون جزائري مائة في المائة . وأخيراً لأن الأجيال الصاعدة من المدارس الابتدائية والثانوية وبعض الأجيال الحالية نفسها في الجامعة بالاضافة الى جيش آخر ممن يتعلمون في الخارج ، سيكونون كلهم معربين كلياً أو جزئياً ، وعندئذ من سيبقى في الجزائر يجهل العربية ؟ الا أولئك الذين ستغمرهم أمواج الأجيال الجديدة كما غمرت من قبلهم أمواج الشعب في ثورة التحرير .

أما عن البورجوازيين من هم ، فانه يمكننا أن نقول بأننا نعرف شيئاً واحداً ، وهو أن المعرب هو ابن الفقير ابن الفلاح ، ابن الريف .

واننا نحمد الله على شيء واحد أيضاً ، وهو أن هذه الشرذمة من أعداء العربية في بلادنا لا تمثل شيئاً من جمهور المثقفين بالفرنسية . الذين يقدسون لغتهم ولو لم يدرسوها دراسة علمية . ويحبونها لأنها لغة شعبهم ، وان وضعنا نحن الذين ندرس في فرنسا والذين أكتب اليك هذه الرسالة باسمهم لأقوى دليل على ذلك . فنحن نعد رسالة الدكتورا وسنكون الى جانبكم من أقوى جنود العربية . لأن تعلمنا بالفرنسية لم يضع البوصلة من أيدينا ، ولم يدوخ رؤوسنا ، والسلام عليك ورحمة الله » !

انني أعتذر للأخ عبد الحميد على الاكتفاء من رسالته المطولة الهامة بهذا المقدار ليطلع عليها القراء بالعربية وبالفرنسية ويعرفوا أن هذا الجيل من شبابنا الذين نعتز بهم ، هو الذي حرص جيلنا نحن على تكوينه شيئاً فشيئاً وبدون ضجيج ، ليس فقط منذ الاستقلال ، بل ومنذ الثورة التحريرية ، وقد تعاونت على توجيههم هذه الوجهة كل من جبهة وجيش التحرير ، وجمعية الطلبة الجزائريين ، والاتحاد العام للعمال الجزائريين ، ولئن كان عددهم اليوم يبدو محدوداً ، فان من سيأتي بعدهم من جيل الاستقلال سيكونون أكثر منهم عدداً حتى يصبحوا في يوم قريب ان شاء الله ، هم الذين يشكلون مجموعة جديدة من المثقفين ، خالية من عيوب التناقض التي اتسمت بها مجموعتنا نحن الحالية من « معربين ومفرنسين » وستكون هي الممثلة الحقيقية للفكر الجزائري الحديث ، الأصيل المتطور والمعتز بشخصيته المؤمن بامكانياته الفكرية وتراثه القومي والخالق الحقيقي لثقافة الجزائر الحديثة .

ولكن المشكل اليوم هو أن نبقى بعد اثني عشر عاماً لا نتجادل كيف يمكن أن يتعلم أخواننا المثقفون بالفرنسية لغتهم الوطنية في أسرع وقت ، بل ما زلنا نتجادل ، وبالفرنسية أيضاً ، هل تصلح لنا العربية أو لا تصلح ؟ ولذلك فالمشكل في الحقيقة وكما يقول الأخ عبد الحميد صاحب الرسالة هو مشكل سياسي أو على الأقل ، ما يزال في أذهان البعض مشكل مبدأ ، وهذا خطير ، اننا نرجع بهذا الموقف الى وضعية لم نعرفها حتى في عهد الاستعمار الفرنسي حين كان الزعماء

السياسيون يقفون أمام الجمهور الجزائري ليكلموه فيعتذرون بكل لطف عن اضطرارهم للتكلم بالفرنسية لأنهم ضحايا السياسة الاستعمارية التي قضت على لغتهم الوطنية .

واليوم ، وبعد ثورة أكلت مليون شهيد من أبنائنا من أجل الأرض الجزائرية ومن أجل العلم الجزائري ومن أجل العربية ما زلنا ليس فقط عند موقف الاعتذار من عدم تمكننا من تعلم لغتنا الوطنية ، بل « تطورنا » الى الوراء ، الى التساؤل : لماذا هذه العربية البورجوازية ؟

ومع ذلك يجب أن لا نغضب !

طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
مركب الطباعة ـ رغاية
الجزائر : 1981

